

اقراء

الدكتور مصطفى الدروالي

قراءات وحلالت





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاء



دار المعارف بمصر

خزائن المعارف دار المعارف

الدكتور محمد طه الديوباني

قراءات ورجالات

اقرأ
٤٠٠
دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٠)

الناشر: دارالمعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

... في آفة الروح



ذات يوم من شهر نوفمبر ، من عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، رزئت بنفقد أحي « محمود » ، وكان محامياً لامعاً ، أحب الحياة وأحبته ، وعركها وعركته ، وعرفها وعرفته . وبعد أن وسدته اللحله ينعم براحته الأبدية ، وخرجت أتعثر - وأنا أضن أن أنفض عن حدائى الغبار الطاهر ، الذى أصبح فقيدى من جزئياته - خيل إلى أن عالم المادة قد انتهى بالنسبة لى .

ومضت أسابيع قلائل كان حزنى خلالها مكبوتاً ، لا تصحبه دمعة إلا إذا خلوت إلى نفسى ، ولكن تقاسيم وجهى الباهت الذى شفى عن قلب يتلظى ، وعينى الجامدتين ، وعودى الدابل فضحت كلها لوعتى ، كنت أتمنى أن أحبسها فى نفسى ، كى أنعم بها وحدى دون شريك ، وكأنى كنت أغار عليه من دمع الغريب ؟ . كانت أسارى ووجهى ترفض بعناد أن تنفرج لتشرق منها بسمه عابرة خلال حديث تعتمد قائله أن يمزجه بالفكاهه بغية التسرية عنى .

ثم أخذت عضلات الوجه تلين تدريجياً ، فكانت تسبق البسمه الهزيلة عبسة طويلة تأخذ فى الانفراج رويداً رويداً ، حتى إذا ما أطلت الابتسامه على الوجه الحزين ، هطلت من العينين دمعة الندم على ما فرط . ثم كثر تردد البسمه بين ظهور واختفاء مع الظروف ،

دون إيلام أو ندم ، ثم وجدتنى أنلدمج - فى تدرج سهل بسيط - مع جو الضحك والقهقهة ، عندما التأم الجرح ولم يبق منه إلا ندوب الذكرى الحلوة الجميلة .

ولكن هل نسيت حقاً ؟ . . . إن ما يحزن النفس ، عند فقد عزيز ، هو هذا الخاطر الذى يحول فى نفوسنا : هل انتهى كل شيء ؟ هل السجن الأبدى فى تلك الحفرة الصغيرة ، هو نهاية الدنيا ؟

* * *

أخيراً وجدتنى مندفعاً - دون قصد - فى دراسة الروحيات ، لأهرب من أطيايف الأحزان والذكرى . فى أمسية باسمية ، كنت أسير فى شارع قصر النيل بالقاهرة ، فاجتذبتنى نافذة إحدى المكتبات الكبرى وأخذت أتأمل محتوياتها ، فلفت نظرى كتاب بعنوان « قصتى الكبرى » My Big Story لـ هانن سوافر : وكنت أثناء إقامتى بإنجلترا أطلب العلم ، أقرأ لهذا الكاتب فى كبريات الصحف والمجلات ، وأعلم أنه من عمالقة « فليت ستريت » ، وهو حى الصحافة فى إنجلترا ، ومن طبيعته الهجوم والهدم والتدمير ، والنقد المر ، والسخرية اللاذعة فى كتاباته ، حتى أصبح الكل يخشونه ويعملون له ألف حساب . كما أنه لم يكن يقبل كل ما يقال ، ولا يستسيغ إلا ما يعنقه الحقيقة التى لا مرية فيها .

لذلك كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت كتابه يبحث فى عالم الروح . ولم أكن أظن أن هذا الملمد - وكان يعترف علنا بلحاده -

يسمو في بحثه وتفكيره إلى عالم ما بعد الموت ، وقد كنت أتخيله بهم بيومه دون عده . وعجبت عندما قرأت أن هذا البحث قد شغل تفكيره خلال العشرين السنة الأخيرة ، وقد بدأه ساخراً منحدياً هداماً كعادته ، ثم دخل قابله الإيمان رويداً ، حتى اتخذ من الروحيات ديناً فبدأ كتابه بالكلمات الآتية :

« أنا لا أعترف إلا بديانتين : الروحية والاشتراكية . أنا أؤمن بوجود إله فوق الجميع ، يدفعنا إلى الخير والشر حسبما تقتضي مصالحة العالم . وأعتقد بإخلاص أنه لو آمن الناس بديانتى وجعوا منها أساساً للمعاملة ، لزال الأحقاد ، ولدفت الخلافات الدينية إلى الأبد ، ولبدأ عالم جديد يعيش الكل فيه كأفراد عائلة كبيرة ، لا يمتاز الواحد فيها عن الآخر إلا بما يسديه من خير للمجموع . لقد ثبت لى بصفة قاطعة ، وبعد تجارب مرهقة طويلة ، أن الحياة لا تنتهى عند القبر ، وأن هذه الدنيا بكل ما فيها من مصاعب ومتاعب ما هى إلا روضة أطفال ، تهيننا لمهمة أكثر روعة واكتمالا في عالم آخر ، سوف تتاح الفرصة فيه لمن قصر في أداء مهمته - في هذه الدنيا - أن يصل ما انقطع ، ويجرب حظه مرة أخرى ، ليسدى الخير من حواه ؟ ول هؤلاء الروحيين منطق لطيف كالنسيم العليل ، ينزل على الجرح العميق في النفس الحائرة الحزينة كالبلسم الشافي ، فيلتئم على غير ميعاد . وقد اعتنقوا منطقهم كدين لا يقبلون فيه نقاشاً ، وهو يتلخص في أن هناك جسداً أثرياً يفارق جسد الإنسان عند الوفاة ، ويتكون

من مادة اسمها «الأكثوبلازم» ، توصل العلماء إلى تحليلها «ميكروسكوبيًا» ،
وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء « فوتوغرافيًا وسينمائيًا » .

والروح حسب اعتقادهم خفيفة لطيفة ، مهما بلغ ثقل دم صاحبها
وسماجته أثناء رحلته في العالم الفاني ، إذ يبلغ وزنها بضع عشرات من
الجرامات . وهذه المادة هي التي تنشق من جسوم الوطاء لتصل
وتجول ، مخترقة الحجب ، ومتعدية حدود الفضاء والزمن ، فهي تتخطى آلاف
الأميال في ثوان أو دقائق ، فتصل إلى أماكن قاصية ، فتمكن الوسيط —
وهو جالس أمامك — من وصف منزلك ، أو الاتصال بشخص آخر
في قارة بعيدة كأمريكا مثلا . وهم يفسرون إسرائ البى « محمد » ،
صلى الله عليه وسلم ، بأنه طرح روحى لاجسدى ، ويصفون « محمداً »
في مختلف الكتب التي تبحت في هذا الموضوع ، بأنه من أعظم الروحيين
الذين وجدوا على سطح البسيطة ، منذ بدء الخليقة . . ويفحرون بهذا !

* * *

وهم يعتقدون أن الأنبياء والرسل قد أغدق الله عليهم ميزات
عظيمتين : أولاها الجلاء البصرى ، أى القدرة على الرؤية بشكل
يخالف العرف ، ودون استعمال الحواس العادية ، وثانيتهما الجلاء
السمعى أى القدرة على إدراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف ،
دون تقيد بالزمان أو المكان . ويفسرون نزول الوحي على الرسل بأنه
يكون نتيجة غيبوبة تعريهم — كوسطاء روحيين من الدرجة الأولى —
تصحبها « فسيولوجية » كتييس الجسم مثلا ، تغادر الروح خلالها

الجسد مع بقائها متصلة به بجبل أيرى . . وفي الوقت نفسه ، تكون روح أخرى قد هيمنت على الجسد ، فتنطقه بالإعجاز المبين ا . . ويقول المؤرخون الإسلاميون إن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان إذا نزل عليه الوحي مصى في شبه غيبوبة ، وانتابته رعدة ، وتيبست منه الأطراف ، وفي خلال نوبات الغيبوبة هذه ، أنطقه الله بالقرآن الكريم الذي هو الإعجاز بعينه ، والذي لو حاول الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله لعجزوا وارتدوا حاسرين . والذي يقرأ القرآن يدرك دون إجهاد ذهن أنه فوق طاقة البشر ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون تنزيل العزيز الحكيم على لسان نبيه الكريم .

وهم يدلون على إمكان وجود الغيبوبة والوساطة بأمثلة كثيرة لا حد لها ، منها أن الوسيطة الشهيرة « مرجرى » — عقيلة الدكتور « كلاندون » أستاذ الجراحة بجامعة « هارفارد » — كتبت وهي واقعة في هذه الغيبوبة ، تسعة موضوعات مختلفة ، بتسع لغات مختلفة منها اللغة الصينية ، التي لم تكن تعرف منها حرفاً . ويذكر الدكتور « كلاندون » أن زوجته — وهي وسيطته — تكلمت في إحدى الجلسات بست لغات مختلفة ، مع أنها لم تكن تعرف غير اللغتين الإنجليزية والسويدية . وكل هذه الأمثلة تدل على استحواذ شخصيات غير منظورة على هؤلاء الوسطاء ، تنطقهم بما لا يعلمون في حياتهم الجسدية .

وهم يعتقدون أن النوم طرح لاروح ، وأن الأحلام سياحات بالروح ، فالروح تغادر الجسد خلال النوم وتنضى في سياحتها ، فتجول في عالم

المادة وعالم الروح ، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا ، وتبقى متصلة بالجسد المادى بجعل أثري ، يستطيل وينكمش ويشنى وينفذ من الجدران . . كما أن انسحاب الروح من الجسد - ساعات النوم - يهيئ لها الحصول على تقوية وتغذية روحيتين ، خلال استيطانها المؤقت عالم الروح .

والغريب أن هذا ينطبق مع قوله الله تعالى في كتابه العزيز : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في مناهها . فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » . أى أن النوم طرح روحى مؤقت ، والموت طرح روحى مستديم ، كما يقول أصدقائنا الروحانيون . ومن الطريف أنهم يدلّون على صحة هذا بـ «صور فوتوغرافية» ، مأخوذة بالأشعة تحت الحمراء ، تبين بجلاء ووضوح انسلاخ الروح من الجسد فى حالات الغيبوبة . وهناك أشخاص عندهم ميزة الجلاء البصرى - أى رؤية ما وراء الحجب - وهى تمكنهم من رؤية أرواح الموتي وأرواح الأحياء المطروحة .

والطرح الروحى فى عرفهم نوعان: إجبارى ، وهذا يمارسه الناس كلهم عند النوم ، واختيارى ، وهذا لا يقوم به إلا الموهوبون . ويقولون إن هذه الموهبة تولد مع الشخص ، ولا توجد إلا فى أشخاص معينين ، قد يعثر عليهم بطريق المصادفة ، دون أن يكونوا على علم بأن الله قد أغدق عليهم نعمة الاتصال بالعالم الآخر :
وقد تتجسد الروح بعد طرحها ، فتشعر أهل المكان - الذى

وصلت إليه - بوجودها ، فيرونها أحياناً ، ويسمعونها تتكلم . . وأحياناً يحسبون بها وهي تلمس أجسامهم ، أو يرونها وهي تكتب أمامهم ، كتابة تبقى ظاهرة بعد انصرافها . أى أن هناك جسداً جديداً ثانياً مؤقتاً ، له نفس ميزات الجسد القديم من حيث التشكل والتكوين ، يمكن الشخص العادى من رؤية الروح بعد طرحها . وروى أن سير «كارن راش» رأى في مجلس النواب البريطانى ، بينما كان طريق الفرش في داره . وأن سير «جابر باركر» وسير «آرثر هيت» قد رأياه بوجهه الشاحب ، وحسسه الذى أمضه المرض ، ثم اختفى فجأة . . ويروى «باترزي» أن «الدكتور مارت ماكدونيل» قد ظهر في المجلس ، في فترة كان فيها مريضاً طريق الفرش في داره ، وقد رآه زملاؤه - أعضاء المجلس - في يومين متتاليين ، وهو يعطى صوته !

* * *

وكننت أخيراً أقرأ مجلة إنجليزية وردت من الخارج ، فاسترعى نظرى عنوان ضخيم عن انتقال المستر «ويليام باريش» ، الطبيب الروحى المشهور ، الذى يقولون إنه عالج أربعمئة ألف حالة مستعصية دون سلاح أو دواء . وذكر كاتب المقال أن وسيطتين معروفتين ، هما «إستل روبرتس» و«كاثلين باركل» شاهدتا روحه بما حباها الله من قدرة الجلاء البصرى - أثناء صلاة الجنائز التى كان يقوم بها «موريس باربانيل» . وكانت الروح جالسة

فى كرسى بالقرب من النعش المغطى بالأزهار ، والذى ضم جسده .
وكان (الميت) - ولنضع الكلمة بين قوسين حتى لا يحتج علينا
إخواننا الروحيون - يبدو سعيداً مرحاً ، ينظر إلى جثته من آن
لآخر ، حتى إذا ما حان ميعاد حرقها وذر رمادها فى حديقة
داره - حسب وصيته - انسحب وهو يتسم ، ولوح بيديه مودعاً
جسده المادى .

وكان مظهر زوجته أثناء الجنائز وحرق الجثة داعياً إلى الدهش
والإعجاب ، فلم تكن هناك دموع ، أو ملابس سوداء ، أو حزن ،
أو شجن . . بل ابتسام ومرح ، وملابس زاهية ازدهرت بأحلى ورود
الربيع . وكانت تبسم فى وجه كل من يحلها ، وكأنها فى حفلة
عرس ، وقد كتبت على البطاقة الملصقة بباقة الزهور ، التى وضعها
على نعشه : « عيد ميلاد سعيد فى بيتك الجديد . أزهار على طول
الطريق » ا . . . كما طلبت من عازف الأرغن أن يعزف القطع التى
كان زوجها يحبها . وعندما عادت إلى المنزل مع أصدقائها ، مدت
لهم موائد الشاى كالعادة ، وصبت الشاى فى أقداحهم بيدها ، وأخذت
فى الترسية عن ضابط لم يتمكن من ضبط عواطفه فانهمرت الدموع
من عينيه ، وأخذت تربت كتفه مشجعة ، طالبة منه أن يكون
مرحاً كباقي المدعوين ، لأن ما يحدث أثناء النهار مدعاة للفرح
والانشراح لا للحزن والانقباض .

يحدثنا المستر «سوافر» في أحد فصول كتابه ، عن الوساطة الروحية وكيف توهب . فيقول إن هؤلاء الوسطاء الروحيين ينتون في كل الطبقات بين كل الألوان والأجناس ، كالزهر النادر في الصحراء القاحلة . وقد يكون اكتشافهم مجرد مصادفة ، أو قد يكون مفاجأة للشخص نفسه الذي وهبه الله مقدرة الوساطة وهو لا يدري . وضرب لذلك أمثلة عدة ، لعل أمتعها ما حدث لمستر «ليليان بيلي» وقد دعيت لحضور جلسة روحية في منزل «وليم هوب» - المصور الروحي المعروف . . عند هؤلاء القوم على الأقل - فلاحظ الموجودون أنها راحت في غيبوبة بعد بدء الجلسة بقليل . . ورأت في غيبوبتها ضابطاً شاباً ، تمكن المستر «هوب» من التقاط صورة «فوتوغرافية» له (وقد فصلنا من قبل كيف أصبح تصوير الأرواح ممكناً بالأشعة تحت الحمراء) . ولم تلبث أن تناست ما حدث ، لأنها خشيت أن يؤدي بها التمادى في هذا الطريق إلى الجنون .

ولكن قديمها قاداتها - في مناسبة أخرى - إلى جلسة روحية ، عند الوسيطة المشهورة «هيلين دنكان» . وهناك تجسدت روح الضابط وكأنه كان يتعقبها . . ورأته بوضوح وجللاء وسمعته يقول لها : «أريد أن أجعل منك وسيطتي ، فأنت موهوبة ، وأنا في أشد الحاجة إليك لتأدية رسالة هامة ، وإن أتمكن من إتمامها إلا بمعاونتك» . ولما وعدته بذلك ، أخبرها بأن اسمه الكابتن «وليم ووتن» ، وقد قتل في الحرب العالمية الأولى ، وبأن والدته كانت بعد على قيد الحياة ،

وأعطاهما عنوانها في أمريكا . وذهبت مسز « بيلى » ، في اليوم التالي وراجعت السجلات في وزارة الدفاع فتيقنت من صحة الاسم ، ثم كتبت إلى والدته في عنوانها بأمريكا ، فوصلها رد جاف ، قالت الأم فيه إنها تفضل لو ترك ولدها دون إزعاج ، بعد أن استشهد في سبيل الوطن . . وهذا يدل - على الأقل - على أن العنوان الذي أعطته الروح كان صحيحاً !

ومنذ ذلك الحين أصبحت مسز « بيلى » من خيرة الوسطاء الذين عرفهم المؤلف . ويقول إنها كانت - ذات يوم - تنتظر القطار المسافر إلى بلدة « كرو » حيث تقطن ، فرأت رجلاً رث الثياب مبتلياً ، جالساً على مقعد ، وبينما كان يحاول أن يفسح لها مكاناً لتجلس بجانبه ، تجلبت مواهبها الروحية فجأة ، فرأت روح سيدة تحاول إحاطة الرجل بذراعيها معزية ، مواسية . . ونظرت إليها الروح وقالت : « قولى لهذا الرجل إننى جين » . فحارت مسز « بيلى » كيف تخاطب شخصاً غريباً لا تعرفه ، وأخيراً تشجعت وقصت عليه ما رأت ، فعجب الرجل وقال : « الواقع أن هذا اسم زوجتى ، ولقد ماتت منذ حين ! » .

ثم طلبت الروح منها أن تقول له ألا يقلق على ابنته ، لأنها سوف تسير في طريق الشفاء ، بالرغم من شدة مرضها . فhez الرجل رأسه غير مصدق ، وأخبرها بأنه كان إذ ذاك مسافراً إلى حيث توجد ابنته ، التى أجمع الأطباء على اليأس من حالتها ، لأنها كانت

مصابة بالتدني الرثوي « والدفتريا » معا ، والأمل ضئيل في إنقاذها . .
فأكدت له ما رأت وما سمعت ، وطلبت منه أن يتصل بها بعد أيام ،
ليخبرها بما يجد . . وشدا كانت دهستها عندما جاء لزيارتها ، بعد
بضعة أيام ، وأخبرها بأنه قد قيل له إن حالة الفتاة تحولت إلى الأحسن ،
في نفس الساعة التي ظهرت فيها روح زوجته في المحطة تواسيه وتطمئنه . .
ومند ذلك الحين سارت الفتاة في طريق الشفاء بخطوات سريعة .

* * *

من هذا المثل ندرك أن الوسيط شخص موهوب ، يتمتع بجلاء
بصري وجلاء سمعي ، يجعله يرى ويسمع ما لا يمكن للشخص العادي
رؤيته أو سماعه ، وأن هذه الموهبة قد تكتشف عن طريق المصادفة ،
وأنه لا بد لكل وسيط من روح مرشدة ، يقع اختيارها عليه لتؤدي
رسالتها ، وهي وصل العالم الفاني بالعالم الثاني عن طريقه .
ويقول المؤلف إن روحاً أخبرتهم في إحدى الجلسات بأن هناك
آلاف الأرواح تتحرق شوقاً للاتصال بالأهل والأحباب في عالمنا ،
ولا يمنعها من هذا سوى قلة الموهوبين من الوسطاء ، ومن ثم فإن
كل روح تنتظر دورها أو الفرصة المناسبة ، وضرب لذلك مثلا
بالطيارين الشبان الذين لقوا حتفهم في معركة بريطانيا الجوية الكبرى ،
وهي المعركة التي أنقذت الإمبراطورية ، والتي كانت نقطة التحول
في الحرب العالمية الأخيرة .
فقد عقدت جلسة روحية كبيرة حضرها الأورد « دودنج » ،

الذى قاد معركة بريطانيا . وكانت الوسيطة « استل روبرتس » تتكلم بلسان أربعة شان ، قدموا أنفسهم للحاضرين ، الواحد بعد الآخر . ولقد وجه أحدهم الخطاب إلى والديه ، وكانا ضمن الحاضرين فعرفا صوته تماماً . ولما سئل عن الاسم الذى كان يدلل به وهو على قيد الحياة ، ذكره دون تردد ، مما أزال كل شك فى شخصيته . وتقدمت بعده روح أخرى ، ذكرت اسم صاحبها ، وهو « دافيد هوايت » ، الذى حيا والدته - وكانت حاضرة - وسألها عن أقاربه وهو يذكر أسماءهم واحداً بعد الآخر ، وأخبرها بأنه يتمتع الآن برفقة والده ، الذى أرسل إليها أطيب تحياته وتمنياته .

وهكذا تابعت الحوادث المثيرة فى تلك الجلسة ، لدرجة أقنعت الاورد « دودنج » ، وهو الذى لا يتأثر إلا بالوقائع الثابتة ، فكتب بتوقيعه - فى بعض كبريات الصحف - عن اقتناعه التام بما رأى وسمع . ولعل أكثر ما أثر فيه ، ذلك الحديث الذى دار بين طيار ووالده ، إذ قالت الروح : « لا تتعبوا أنفسكم فى البحث عن حقيقة مصيرى ، فقد انتقلت إلى هنا بعد أن تحطمت طيارتى . وأنا أعرف أنهم لم يعثروا إلا على بضعة قطع من لباس الطيران ، الذى كنت ألبسه فى رحلتى » فقال الوالد : « نعم يا ولدى ، وأنا أحتفظ بقطعة منها فى المنزل » . فضحك الشاب وهو يقول : « أعرف هذا يا ولدى ، وهذه القطعة من ذيل السترة . أليس كذلك ؟ » فقال الوالد : « نعم يا ولدى ، وسأحتفظ بها ما حييت » . ثم ختم الشاب رسالته بقوله :

« حاول يا والدى أن تقنع والدتي بأننى لم أمت ، وأن أشد ما يؤلنى وينغص حياتى وسعادتى فى العالم الذى أنا فيه ، أن أراكما على هذه الحال من الحزن والشجن ... وقال لست الوحيد هنا ، بل معى الملايين الذين يتلهفون على الاتصال بأحبائهم فى عالمكم ، لو سنحت لهم الفرصة . حاول يا والدى أن تحصر معك والدتي فى المرة القادمة ! كانت دهشة اللورد « دودنج » كبيرة عندما تكلمت روح طيار آخر اسمه « ستيفنز » ، كان اللورد يعرفه جيداً . وكانت زوج هذا الطيار جالسة بجانب اللورد أثناء الجلسة ، فوجه كلامه أولاً إلى اللورد قائلاً : « هل تذكرنى ؟ . . . لى أرى زوجتى جالسة بجانبك » . فقال اللورد : « لىنى أذكرك تماماً ، وأذكر جرأتك وشجاعتك » . ثم وجه الشاب الكلام إلى زوجته ، ذاكرة تفصيلات كثيرة ليثبت لها شخصيته . وكان مما قاله « ألا يزال ولدنا مولعاً بالكتابة على الحائط بقلمه الرصاص ؟ » . . وكان هذا - فى الواقع - من عادات ولدهما السيئة ، التى كثيراً ما عاقباه بسببها .

واستمر المستر « سوافر » فى سرد الأمثلة الممتعة عن الجلسات التى تحدثت فيها أرواح ضحايا الحرب الأخيرة . . وكلها مجمعة على أن الموت ليس نهاية ، بل هو بداية رحلة أكثر روعة ونقاء من الحياة المادية التى نغبط أنفسنا عليها . . وكانت تجاربه فى هذا الميدان مما أدخل الغزاء على قلوب الملايين من الأرامل والثاكلات ، فشكراً له على أى حال .

ويظهر أن رابطة صداقة متينة كانت تربط المستر «سوافر» بالورد «نورثكليف» ، ملك الصحافة في بريطانيا ، الذي مات في عام ١٩٢٢ ، فقد بدأ المؤلف أبحاثه الروحية بعد وفاة «نورثكليف» مباشرة ، وأراد أن يثبت لنفسه والعالم أن هذه الجذوة المتقدة لا يمكن أن تموت إلى الأبد ، وأنها لا بد واجدة أفقا بل آفاقاً واسعة ، تستأنف فيها نشاطها . ويقول «سوافر» إنه بدأ يؤمن بوجود الروح عندما اتصل بنورثكليف في جلسات روحية متعددة . فقد كان على علم تام بآرائه ، وطرق تعبيره الفكاهية اللاذعة أثناء المناقشات الحادة . وما كان يمكن أن تخفى عليه نبرات صوته الساحر ، التي لا تخطئ أذناه أبداً .

كذلك يقول «سوافر» إن صديقه بدأ اتصالاته بالعالم في نفس الليلة التي مات فيها ، ليشت أنه لم يَخْتَفِ إلى الأبد . كان ذلك في جلسة روحية عُقدت بمنزل قسيس في «سووث نوروود» ، فلم يشعر الحاضرون إلا «نورثكليف» يعلن حضوره ، ويعد بزيارتهم من آن لآخر . وفعلاً ، أعاد الكرة بعد أسبوعين ، وانتقد مقالاً نشرته مجلة روحية ، إذ أشار إلى مواطن الضعف في المقال وذكر أنه منشور في العمود الثالث من الصفحة الثانية . . ولاحظ الموجودون أن شخصيته كانت تتطور مع مرور الأيام ، حتى أنه — بعد عامين من موته — قال إنه قد تجرد من شخصيته القديمة ، ويعتقد أنه وُلد من جديد بالرغم مما مر به من تجارب هائلة إبان حياته الدنيوية .

وقد ظل حضوره مقصوداً — في مبدأ الأمر — على حلقة «سووث

نورود» هذه ، ثم أخذ بعد ذلك يتردد على حلقة روحية كان يحضرها المستر سوافر ، فيشبعه بنكاته اللاذعة ، وتعاليقاته التي كان يتميز بها في حديثه الدنيوى ، وقد قال له مرة إنه يشرف بروحه على اجتماعات مجلس إدارة صحيفة «الدلي هيرالد» .. وصباح مرة بأعلى صوته ، عندما سمع كلاماً لم يعجبه : « أنتم مخطئون ، أنتم مخطئون ! . . » ولكن أحداً لم يسمع صوته ، بالرغم من أنه كان يراهم ويسمعهم يتكلمون ، فاضطر في آخر الأمر إلى الانسحاب في يأس وقنوط .

وكان من أصدقاء المؤلف أيضاً السير « هنرى سيجريف » بطل سباق الزوارق البخارية العالمى ، الذى كان معبود الأمة الإنجليزية جمعاء ، والذى قضى نحبه فى محاولته الأخيرة لتجاوز الرقم القياسى . . وكان هذا البطل صديقاً حميماً للمؤلف ، وكثيراً ما زاره فى منزله ليأتنس به ، وليحدثه فى فلسفة الروحيات . ويقص المؤلف فى خطاب أرسله إلى الليدى « سيجريف » — بعد وفاة زوجها بأيام — تفاصيل أولى محاولات السير « هنرى » للاتصال به ، فكتب إليها قائلاً : « لقد عدت أنا وزوجتى إلى مسكننا فى المساء ، بعد أن شاهدنا على ستار « سينما البلازا » عرضاً سينمائياً مروعاً لسباق زوجك الأخير : . . وكان الخدم قد انصرفوا ، وليس بالمسكن أحد غيرنا ، والأبواب والنوافذ محكمة الإغلاق . . ورأينا أن نتناول عشاءنا فى المطبخ ما دمنا وحيدين ، وقبل ذهابنا إليه ، تركنا صحيفة « السنداي اكسپريس » فى غرفة الجلوس ، وكان بها مقال كتبه السير « هنرى » قبل انتقاله . وكان نور الغرفة

هضاء ، وهذا ما أجزم به دون أى شك .. وكذلك كان نور غرفة النوم :
وبعد أن تناولوا العشاء ، كانت دهشتنا عظيمة . إذ وجدنا
غرفة النوم مظلمة ، فحاولنا إضاءتها ، ولكن النور الكهربائى أبى
أن يعمل ، فضغطت زوحتى زراً آخر أضواء مصباحاً فى ركن آخر
من الغرفة ، أمكننا على ضوءه أن نرى أن «لمبة» المصباح الأولى قد
أرليت من مكانها ، وضعت فى الموقد . . ولو أنها كانت قد سقطت
من تلقاء ذاتها ، لوقعت على الأرض بعيداً جداً عن الموقد ، ولتكسرت
ألف قطعة . . أما نقلها من مكانها فى المصباح إلى الموقد ، فلا يمكن
أن يتم إلا بوساطة يد بشرية . ثم ازدادت دهشتنا عندما وجدنا
الصحيفة — التى تركناها فى غرفة الجلوس — ملقاة على السرير ،
فأخذناها إلى مكانها الأول . . وغفلنا عنها لحظة ، تناقشنا خلالها
فى هذه الظاهرة العجيبة . . وعند رجوعنا إلى غرفة النوم . وجدنا
الصحيفة على الفراش للمرة الثانية . .

ولست أملك أن أتسرع فى الحكم على ما شاهدته وزوجتى ،
فى تلك الليلة ، وقد كنت على يقين من عدم وجود شخص خلافنا
بالمنزل ، ومن أن أبواب المسكن ونوافذه كانت مغلقة .. ولكن هناك إحساساً
داخلياً يجعلنى أشعر بأن كل ما شاهدناه كان مجرد محاولة من زوجك
العزیز ، ليشعرنا بوجوده بجانبنا ، وإن افتقارنا إياه لا يعدو فراق الجسد !
ويتابع «سوافر» القصة فى كتابه ، قائلاً :
«وبعد ثمانية عشر شهراً ، بدأ سيجريف يزور دائرتنا الروحية .

وكانت أول مقابلة بينه وبين زوجته مشوشة لأن العاطفة غلبت عليهما ، فلم يكن النجاح كاملا ، لهذا أخذها (الزوجة) « مورييس باربانيل » إلى حلقة « رد كلاود » الروحية ، ذات الصوت المباشر ، وهناك تحدثت إلى زوجها في وضوح تام ، وصار « سيجريف » يتردد - كل أسبوعين - على نفس الحلقة ، ليتحدث إلى زوجته . وقد حضر اللورد « كوتنهام » - صديق سيجريف - الحميم إحدى الجلسات ، فأكد أن الصوت صوته ، والكلام كلامه ، وكان السير « هنرى » يحضر أحيانا إلى حلقاتنا الروحية . ويتحدث إلينا . . وفي إحدى الجلسات ، سمح لنا بالتقاط صورة له . . وفي جلسة أخرى ، وضع حول إصبع زوجته حاتما صنعت الحجارة النفيسة التي تزينه في العالم الآخر !! وفي جلسة ثالثة ، وضع على حجر زوجته وردة حمراء ، عليها قطرات الندى ، مع أن الوقت كان صيفاً ، وكانت الغرفة مغلقة تماماً على ما فيها مدة ساعتين قبل الجلسة ، حتى لا يسمح بدخول هواء أو إنسان ، فمن أين يمكن أن تأتي هذه الوردة المبللة بندى الربيع ، إلا من عالم آخر غير العالم الذى يعيش فيه الموجودون في غرفة التحضير ١٢

ويتحدث المستر سوافر عن صديقه « وليام باريش » ، فيقول عنه إنه أكبر معالج روحى ظهر على وجه الأرض . وقد تعرف إليه قبل اثنتى عشرة سنة من نشر كتابه ، عالج خلالها ما لا يقل عن

أربعمائة ألف حالة مستعصية ، بعضها فى جهات نائية كالصين واليابان وسيام وآلاسكا وفنزويلا . ولقد كان « باريش » - قبل اكتشاف مراهبه الروحية - موظفاً بالسكة الحديدية بإنجلترا ، ولم يكن يؤمن بالروحيات بل كان من أكبر المشككين فى صحة ما يروى عن عجائبها ومعجزاتها . وقد نكب فى زوجته الأولى التى ماتت بالسرطان . ثم أصيبت زوجته الثانية بنفس المرض ، وقرر الأطباء أن وفاتها مرتقبة خلال ستة أشهر .

وفى ذات مساء ، ألحت عليه زوجته ، تلمساً منها لبصيص أمل فى ياسها ، أن يصحبها إلى اجتماع روحى دعيت إليه فنزل عند إرادتها لإرضاء لحاظها . ولما أطفئت الأنوار ، وراح الوسيط فى غيبوبته ، وتقمصت الروح المهيمنة على الحلقة ، لم يشعر « باريش » إلا والروح تناديه ، وتقول له : « إنك وجدت فى هذا العالم لتكون معالجاً روحياً ، وستعالج زوجتك حسب الإرشادات التى نملئها عليك ! . . » وكانت الروح لطبيب مات من عهد بعيد ، فأعطت « باريش » التعليقات بدقة . . ونفدها هو الآخر كما أوحيت إليه : من صلوات معينة ، ولس بالياءين بطريقة خاصة .

وبعد تسعة أشهر حدثت المعجزة . . شفيت زوجته من السرطان وأصبحت مساعدته الأولى فى رسالته الجلييلة . وكان قد عاهد نفسه - إذا شفيت زوجته - على تكريس بقية حياته للعلاج الروحى ، فلما تحققت الأمل أوفى بالعهد ، فكان يعالج المرضى فى بيته ، أو يذهب إليهم

فى المستشفيات . أو فى منازلهم ، دون أن يتقاضى عن كل هذا ملياً واحداً . ولما ضاق به المنزل ، أوحى إليه أن ينتقل إلى بقعة معينة حددتها له الروح المسيطرة عليه . فلما ذهب لمعاينتها ، وجد أنها من أملاك المستر « هوربليشا » وزير الحربية البريطانى إذ ذاك ، ولم تكن معروضة للبيع ، ولكن المستر « سوافر » توسط له عند الوزير ، فتنازل له عن قطعة الأرض عن طيب خاطر ، لما علم بالغرض الذى من أجله ستشيد المصححة .

وأخذ المرضى يترددون عليه من جميع بقاع العالم . ويؤكد المستر « سوافر » أن المعجزات كانت تتوالى فى سرعة عجيبة ، وقد شفى على يديه كثير من البؤساء التعماء . وكثيراً ما أحال إليه الأطباء ما كان يصادفهم من حالات مستعصية فشل فيها طيهم . كان كل ما يفعله هذا الرجل ، هو أن يصلى صلاة خاصة ، ثم يسلم نفسه للروح العليا ، ويروح فى غيبوبة يضع أثناءها يده على المرضى ، واحداً بعد الآخر . ويقول المستر « سوافر » إن معجزات يسوع عليه السلام ، كانت تتكرر يومياً فى المصححة ! .. بل امتدت مقدرته إلى علاج مرضى على مئات الأميال أو آلافها من مكانه . إذ أوقى موهبة المقدرة على طرح روحه ، ليصل جسده الأثيرى إلى أى بقعة على سطح الأرض ..

كان - بعد أن يقوم بإجابه - يفتيق فيعطيك وصفاً دقيقاً لغرفة المريض ، والبيئة التى يعيش فيها ، بتفصيل لا يدع مجالاً للشك

فى أنه عاش فيهما برهة من الزمن . وكان لبعض المرضى البعيدين موهبة الجلاء البصرى فكانوا يشاهدون جسمه الأثيرى وهو يقوم بعلاجهم ، وقد وصفوه وصفاً دقيقاً . وقد قال « سيلفريش » وهو صاحب أكبر روح مرشدة فى عالم الروحيات ، اعتادت أن تهيمن على كثير من الجلسات الروحية — فى إحدى الجلسات : إن « باريش » أعظم معالج روحى وجد منذ بدء الخليقة . فسأله كاهن صديق ، كان حاضراً الجلسة : « وأكبر من يسوع أيضاً ؟ » . . . فقالت الروح : « هل تظن يا ولدى أن العالم لم يتقدم منذ تلك الأيام الغابرة ؟ . . . إن الإشعاعات الروحية التى نرسلها خلال جسمه ، تكفى لقتل أى شخص آخر . . . وعلى هذه القوة الخارقة تتوقف نتائج العظيمة ! »

ولقد توفى هذا الطبيب الروحى أخيراً ، ويذكر القارئ التفاصيل التى سردتها فى بداية الحديث عن حفلة جنازه ، وكيف أن وسيطتين معروفتين شاهدتا روحه أثناء الصلاة جالسة بجوار النعش . . . ووصفتنا مسلك زوجته المرح أثناء الحفلة وبعدها : . . . ولقد عادت روحه أخيراً — فى جلسات روحية عديدة — واعدة بإتمام الرسالة التى بدأتها أثناء الحياة المادية ، وهى تخفيف آلام المرضى والتعساء !

* * *

ويمضى . . . مؤلف الكتاب فى سرد النادرة تلو النادرة ، والقصة تلو القصة ، مدللاً بالبراهين الدامغة على أن ما يقوله هو الحق ،

وأنه لا شك في النهاية السعيدة للقضية ، يوم تملو كلمة الروحية
وتصبح واقعة يأتي ذكرها على الألسنة بنفس البساطة التي تتداول بها
عجائب الزمن الأخير . . كالراديو واللاسلكي والدرة وخلافها :

واسترعت انتباهي قصة « شارلس بنيت » ، الكاتب المسرحي
المعروف . يقول المؤلف إن خطاباً وصله من الكاتب ، عقب انتحار
شقيقه في ظروف غامضة . وقد جاء في الخطاب ما يلي : « أنت تعلم أنني
في حالة نفسية مروعة . لقد شئت أخى نفسه ليلة أمس ، وكأني بعد هذا
الحادث المروع ، أشعر بأن العالم قد انتهى بالنسبة لي ، وقد أصمد
للصدمة لأنني رجل ، ولكن كان الله في عون والدتي . . إنها تكاد
تجن ، وأريد منك أن تعمل شيئاً في سبيل تهدئة روعها . أنا أعلم
أنك مغرم بالدراسات الروحية ، عليم بخفاياها ، فهلا فعلت شيئاً
يعين والدتي في محنتها القاتلة ؟ .. سأتصل بك تليفونياً في الساعة الخامسة
مساءً ، لأحدد معك ميعاداً للمقابلتك » .

وعندما تقابلا ، قص « بنيت » على المؤلف تفاصيل الحادث . :
وكان يتلخص في أن الأخ المنتحر دخل الحمام ليغتسل ، وكان على
أحسن حال من المرح والصحة ، ولكنه شئت نفسه بعد قليل ، دون
ما سبب أو دافع ظاهر . . . واستمع المستر « سوافر » إلى القصة
ثم قال : « ستعقد هنا جلسة روحية بعد قليل ، ويمكنك الانتظار
لحضورها ، إذا أردت » . : وبعد ساعة ، كان الوسيط « نوبل
جاكين » قد مضى في غيبوبته ، وأدار دفة الحلقة بإرشاد روح

ناظر مدرسة اسكتلندي اسمه «ماكدونالد» . ما لث أن تحدثت الروح بالهجة اسكتلندية ، على لسان الوسيط قائلة : «أشعر بوجود شخص قلق حزين بينكم يا سادة » ثم وجهت كلامها إلى « بنيت » منبهة إياه بأنها تدرك مقدار حزنه ووالدته بسبب فقد أخيه ، وطلب منه أن يؤكد لوالدته أن ابنها ليس مشغولاً عما حدث له في تلك الليلة !

ثم قصت الروح عليه قصة كانت أغرب ما سمعه المؤلف طوال اشتغاله بالمسائل الروحية ، إذ قال : إن جريمة وقعت على يدي أحد أبناء أسرة « بنيت » قبل أجيال عديدة ، وأن من الممكن التثبت من هذا بالرجوع إلى تاريخ العائلة . ومنذ وقعت الجريمة ، وروح القتيل تحوم حول أسرة « بنيت » لتنتهز أول فرصة للانتقام ! . واستمر الوسيط في حديثه قائلاً : « ولما دخل أخوك الحمام في تلك الليلة ، كان الدولاب الذي في الحمام مفتوحاً . فلما شرع في تعليق ملابسه فيه ، انتهزت الروح فرصة النور الخافت وعملت عملها في نفسية أخيك ، حتى زينت له شئق نفسه في نفس الدولاب ، دون أن يدرك أو يعي ما كان مقدماً عليه . قل لوالدتك كل هذا ، عسى أن تبعث هذه التفاصيل السار إلى قلبها . لقد تعرفنا على هذه الروح ، وأمسكناها فوضعناها حيث يأمن الجميع شرها ، فلا خوف عليكم منها بعد الآن ! » .

واستطردت الروح التي تقمصت الوسيط تقول : « يبدو أنكم

لا تصدقون ما أقول . هل تريدون الدليل على صحة قولي ؟
 سأتى إلى منزلكم فى الساعة الثانية بعد منتصف هذه الليلة ، وسأدق
 على الحائط مرتين هكذا ! » (ثم دق بيده على الكرسي مرتين)
 ويقول « بنيت » لأنه بقى مستيقظاً فى منزله حتى الساعة المحددة ..
 وكانت والدته معه ، وقد تعمد ألا يخبرها بما حصل فى الجلسة وما قالته
 له الروح عن طريق الوسيط ، لأنه لم يكن موقناً من صحة ما قيل له ،
 فلم يشأ أن يزعم السيدة العجوز دون مسوغ . وفى تمام الساعة الثانية
 سمع دقاً على حائط الغرفة ، وقد سمعته والدته أيضاً ، وعجبت له ،
 وتساءلت عن سببه ، فطمأنها .. ولكنه لم يشأ أن يقص عليها حقيقة
 التفاصيل إلا فى اليوم التالى .

حدث هذا عام ١٩٢٨ . وفى عام ١٩٤٤ كان المؤلف سائراً
 فى شارع « شارنج كروس » بلندن ، فسمع شخصاً يناديه باسمه ،
 فلما التفت نحوه ، وجده « شارلس بنيت » ، وكان عائداً لتوه من
 « هوليوود » ، بعد رحلة فنية ناجحة ، وبادره « بنيت » بقوله :
 يسرنى أن تكون أول صديق أصادفه بعد عودتى . هل تذكر يا سوافر
 تلك الليلة التى قضيتها فى مسكنك عقب وفاة أخى ؟ .. لأننى أتساءل
 أحياناً ، أكان ما رأيته وسمعته حقيقة أو حلماً ؟ .. فأجابه سوافر :
 « بل كان حقيقة ، ولقد كتبته مفصلاً فى مذكراتى » .

* * *

ويروى لنا المؤلف فى أحد فصول كتابه ، حديثاً جرى بينه وبين

« برناردشو » ، يبدأه بالسؤال الآتى : « هل كونت فكرة صحيحة ، عما ينتظرك بعد الموت ؟ » . فأجاب « شو » ، فى صراحة وبساطة : « كل ما أعرفه أننى بعد الموت أذهب إلى غير رجعة ، فلست أعتقد فى خاود الروح ، ولا أظن هناك عاقلاً يمكنه قبول مثل هذه الفكرة ، أو هضم الأسس التى بنيت عليها .. إن خاود شخص مثل « برناردشو » يبدو مزعجاً ، مروعاً مخيفاً . وإنى لأهب خمسة جنينيات لمن يطلق رصاصة ويرى من نفسى ، ويرى العالم منى .. إن جسمى الذى تراه الآن ، ما هو إلا خليط من الكربون والبوتاس وبعض المواد الكيميائية الأخرى ، تسبب بتفاعلها قوة الاندفاع التى نسميها الحياة ، وسيأتى اليوم الذى تقف فيه الآلة فجأة ، وينتهى كل شئ .. يفنى الأشخاص والدنيا باقية .. نموت نحن ، ويعقبنا آخرون يتولون إدارة عجلة الحياة الدائمة ، ويعيشون كما عشنا ، ثم يذهبون ويأتى غيرهم ، وهكذا .. وقد أسمح لك بأن تعتقد أن روحاً معينة تقمصتنى وقضت معى كل عمرى ، لتنتقل بعدها إلى جسم آخر ، وهكذا . : ولكن ليس معنى هذا خلود الشخص نفسه بعد الفناء .. وليكن فى علمك أنى أتحدث فى موضوع لا أفقه فيه شيئاً ! » ..

وجرهما الحديث إلى موضوع مفارقة الروح للجسد بعد الموت ، فقال سوافر : إن الروحيين يعلمون من رسالات وصلت إليهم من عالم الروح ، أن روح الإنسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام . وهم لذلك يصممون على ألا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد

الموت بأيام » .. وأضاف سوافر قائلاً : « لئننى على يقين من أنك ستحضر ، بعد أسبوع من وفاتك ، إلى حلقتى الروحية ، وتقول : أنا برنارد شو ، أنبئ العالم بأننى لم أمت .. فأجابه شو فى سخرية : « هلا جربت خداع غيرى قبل الآن ؟ » .. فقال المؤلف : « أبداً ! .. أنت تعلم أننى صحفى ومخبر أمين ، تعقب قضية خلود الروح ، فلما تيقن منها نشر أمرها على الملأ .. ما رأيك فى أننى رأيت أخت زوجتى تمشى أمامى فى إحدى الجلسات الروحية ، بشعرها الطويل المسترسل على ظهرها ؟ » . وعند ذاك قال شو : « هذا لا يثبت لى أكثر من أنك إنما رأيت أخت زوجتك للمقدرة بصرية وهبت لإياها ، تمكنك من رؤية أرواح الموتى » .. ويعلق المؤلف على هذا الجواب فى سخرية لازعة ، قائلاً : « من المؤسف أن كاتباً عظيماً مثل برنارد شو ، لا يعرف أن الجلاء البصرى نوع من الوساطة » !

* * *

ويمضى المؤلف فى سرد ما يتمتع نفس القارئ العادى ، وما يثير رغبة البحث والاستقصاء فى الباحث المدقق ، ويغرى بغزو هذا الميدان الشائك الذى يفضل فى أرجائه الفسيحة أمثالنا .. ويا ليتنا نوالى ضغطنا عليه ، حتى ينجلي السر الأكبر ، أو نفتنع بأن الروح سر فوق طاقة البشر : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً » .. صدق الله العظيم .

طالما تساءلت عن الحلقة المفقودة بين النوم والموت . . وحدث
أننى عثرت فى مكتبى على كتاب عن الطرح الروحى ، من تأليف
« مولدن وكارنجتون » . ولم أكن قد شعرت بميل إلى هذا الكتاب فى
بادئ الأمر ، فكرته على مكتبى حوالى تهرين ، دون أن أمسه . .
فلما جاشت فى نفسى هذه الذكريات ، أمسكت به فى تناقل ،
وحملته حملاً إلى السيارة ، لأحاول أن أتصفحه وأنا جالس فى مقعدى ،
لا رقيب على سوى السائق وعابرى السبيل . . راجعت فهرس الكتاب
بسرعة آلية ، حتى وقفت عند كلمة « النوم » ، فقلت لنفسى :
« ترى ماذا يقول هؤلاء الروحيين عن هذه الظاهرة الطبيعية من حياتنا
اليومية ؟ » . فوجدت اعتقاداً راسخاً بأن الروح تغادر الجسم أثناء
النوم ، وتبقى متصلة به بحبل أثيرى يستطيل وينكمش حسب
مقتضيات الرحلة التى تسبح الروح فيها فى عالم المادة والروح ،
فترى من الأحداث ما نسميه بالأحلام : . ويحدث هذا الطرح
الروحى أيضاً خلال الغيوبة الواسطية ، أو السات العميق الذى
ينتج عن نخدر كالكلوروفورم ، أو خلال ما يسمى « تعليق
الحوية » عندما يدفن فقراء الهنود أنفسهم أياماً أو أسابيع ، ثم
يعودون ليقظة الحياة . . ويصف المؤلفان بعض عجائب هذه الظاهرة
الآخيرة ، فيقولان إن أحد فقراء المصريين ، ويدعى « حامد بك »
أبدى فى هذا الميدان مهارة عجيبة ، إذ بقى مدفوناً مدة ساعة فى

مدينة « اتلانتا » بالولايات المتحدة ، وثلاث ساعات في « نيوجرسي »
وسع ساعات في « سان دييجو » . والغريب في حالاته أن التراب
أهيل على جسده في حفرة عميقة ، دون أن يوضع في تابوت مغلق ،
كما يفعل فقراء الهنود وغيرهم . وذكرنا مثلاً آخر لفقير هندي ظل
مدفوناً ، في قبر محكم الإغلاق ، مدة ثلاثين يوماً بالتمام ، بعد
وضعه في صندوق أحكم إقفاله تحت رقابة لجنة محايدة من كبار
موظفي المنطقة .

والفرق بين كل هذه الحالات والموت الحقيقي ، هو بقاء الجبل
الآثيري سليماً ، ويصل الروح المطروحة بالجسد المادي . فإذا أفلت
هذا الجبل من الجسد ، حذب الطرح الروحي الدائم . . أى الموت .
أما النوم فهو طرح مؤقت للروح ، وما الأحلام إلا سياحات للروح
في عالم المادة والروح ، فترى المنظور وغير المنظور ، وتقابل الأحياء
والأموات على حد سواء . وهذا الاستيطان المؤقت في عالم الروح يهيئ
لأرواحنا فرصة الحصول على تغذية وتقوية روحيتين ، لا تلبثان أن تنعكسا
على الجسم عامة ، فيصحو الإنسان من نومه منتعشاً متجدد النشاط .
وما هذا الجبل الآثيري الذي يفرق بين الحياة والموت ؟

يجزم الروحيون أن الروح تفارق الجسد في حالات النوم والغيوبة
ولكنها تظل مرتبطة به بجبل آثيري مطاط ، يطول ويقصر ، ويخترق
الحجب والحواجز والجدران مع الروح امانمة . ويقولون إن هذا الجبل
يبدأ في مكان حيوي في المخ المادي^١ ، حيث تجتمع كل المراكز الحيوية

التي تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهى في نفس المكان المقابل من الجسد الأثيرى . فإذا كان شخص مستلقياً على ظهره ووجهه إلى أعلى برز الحبل الأثيرى من الجبهة ، لينتهى في مؤخرة الرأس من الجسم الأثيرى . وتكون الروح في مبدأ الأمر موازية — في اتجاهها — للجسم المادى ، ثم تتخذ بالتدريج وضعاً عمودياً ، قبل أن تبدأ سياحتها في عالم الروح . وعند الاستيقاظ ، نتيجة ضجة أو انفعال شديدين ، تعود ثانية إلى وضعها الأفقى ، ثم تقرب من الجسم ، بينما يقصر حبل الاتصال ويغيب في الجسد مرة أخرى . . . ويقول أحد المؤلفين — وهو « مولدن » الذى أوتى القدرة على النوم الاختيارى — إنه جرب هذه الظاهرة في نفسه ، ف شعر أولاً برأسه يتنى حتى لا تست ذقنه صدره ، ثم راح جسمه في استرخاء النوم ، بينما صعدت روحه الأثيرية تدريجياً نحو سقف الغرفة . . وكان يشعر بما يشبه نبضات القلب عند مؤخرة رأسه ، مما أثبت له أن الحبل الأثيرى يبدأ هناك . . وما لبث جسمه الأثيرى أن تحول تدريجياً من الوضع الأفقى إلى الوضع العمودى ، وعندما أراد لإنهاء التجربة ، أخذت الروح تعود تدريجياً إلى الوضع الأفقى ، ثم تقمصت الجسم مرة ثانية .

وهو يصف التفاصيل بدقة الموقن من أنه رأى شيئاً محسوساً ملموساً ، ولا تشعر وأنت تقرأ السطور أو ما بينها ، بأن في الأمر ابتداءً أو خيالاً !

* * *

ويقول المؤلفان إنه متى انقطع الحبل الأثيرى ، فلا أمل مطلقاً فى عودة النائم إلى الحياة . ويقولان إن معجزات « يسوع » عليه السلام فى إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها — على ضوء العاوم الروحية — إلا إذا افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى وإنما كانوا فى غيبوبة شديدة ، وضرباً لذلك مثلاً معجزة المسيح — عليه السلام — فى إحياء صديقه « لازارس » ، فإن « يسوع » بوصفه وسيطاً روحياً من الدرجة الأولى — قادر على أن يرى غير المنظور ، لما كان له من ميزة الجلاء البصرى — أدرك أن « لازارس » لم يكن ميتاً ، إذ قال عليه السلام « إن لازارس لم يمت ، إنه نائم وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه » . ثم ذهب إلى المقر ، وأمر بإزالة الحجارة ، ثم نادى قائلاً : « قم يا لازارس » فهب الأخير من نومه ، وتقدم إلى « يسوع » . . أى أن المسيح عليه السلام ، قرر وهو يتقدم نحو القبر أن صديقه نائم فقط ، وليس بميت .

وضرب المؤلفان مثلاً آخر من معجزات المسيح ، وهو نفخ الحياة فى ابنة الحاكم الميتة ، فإنه دخل بيت الحاكم بين أصوات العويل والنحيب ، حتى إذا اقترب من فراش الميتة ، نظر إلى من حولها ، وقال : « إن الفتاة ليست ميتة . . لماذا تبكون إذن ؟ » . . ثم أمر بإخراج جميع من كانوا بالغرفة ، إلا والدة الفتاة والدةها ، وأمسك بيد الفتاة ، وصاح فيها قائلاً : « قومي يا فتاة ، قومي » . . فوقفت الفتاة لثورها ، ومشت إلى خارج الغرفة .

ويقول المؤلفان إن المسيح أقر في هذين المثليين بأن الشخص لم يكن ميتاً ، بل كان نائماً فقط ، ولإلا لتكررت المعجزة في مئات أو آلاف من الحالات الأخرى ، ولكنها لم تحدث إلا في حالتين أو ثلاث . ويخرج المؤلفان من هذا القول بأن عودة الروح إلى جسم الميت شيء مستحيل ، ما دام الحبل الأثيرى قد انقطع . . إذ عندها ينطلق الجسم الأثيرى - أى الروح - ويترك الجسد المادى بكل دنسه وموبقاته . فالموت عبارة عن طرح روحى دائم . أما النوم فطرح روحى مؤقت ، نكون الروح خلاله متصلة بالحبل الأثيرى ، فتصلو ويجول وتتمتع بالاتصال بأرواح الموقى السابقين ، والأحياء المعاصرين . وهذا منطق معقول ، يتمشى مع قول الله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، إلى لم تمت في منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » . . صدق ، الله العظيم .

* * *

والواقع أن السر الإلهى قد شعل الأذهان من قديم الزمان . ولقد كشف ابن آدم من أسرار الطبيعة ما كشف - والله أعلم بما أخفى ، ولعله أكثر وأعظم - ولكن عبقريته وقفت جامدة عند أسوار الحقيقة الكبرى ، التى لا يعلم سرها إلا الله . ولقد حاول الباحثون - فى مختلف الأزمان - أن يكشفوا عن عالم ما بعد الموت . وقد عثرت صدفة على كتاب للإمام « عبد الرحيم بن أحمد القاضى » ، عنوانه « دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار » ، استعرض فيه معتقدات الأولين بتفصيل الذى

يوقن من صحة ما يسرد مع أن معظمه لا يعدو أن يكون تخمين الخائر
الذى بود أن يفتح المغاليق، ليرى ما وراءها من أسرار هائلة . وهو يروى
عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت :

« كنت قاعدة متربعة في البيت ، إذ دخل رسول الله عليه السلام ،
فسلم على " : فأردت أن أقوم كما كانت هي عادتى عند دخوله ،
فقال عليه السلام : اقعدى مكانك ، ما كان لك أن تقومى يا أم المؤمنين !
قالت : فقعده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع رأسه على حجرى ،
فنام مستلقياً على فخاه ، فجعلت أطلب شيبة في لحيته ، فرأيت بها
تسع عشرة شعرة بيضاء ، ففكرت في نفسى ، فقلت إنه ليخرج من
الدنيا قبلى ، فتبقى الأمة بلا نبي ، فبكيت حتى سال دمع عيني على
خدى ، وتقاطر منه على وجهه ، فانتبه من نومه ، فقال عليه السلام :
« ما الذى أبكاك يا أم المؤمنين ؟ » . فقصصت عليه القصة ، ثم قال
عليه السلام : « أى حال أشد على الميت ؟ .. » فقلت : قل يا رسول الله
فقال عليه السلام : « بل قولى أنت » فقلت : لا يكون أشد حالة
على الميت من ارتقت خروجه من داره ، يحزن أولاده خلفه ، يقولون
والداه ، وأماه ، ويقول الوالد : يا ابناه ! فقال عليه السلام : هذا
شديد ، فما أشد منه ؟ قلت : لا تكون حالة أشد على الميت من
حين يوضع في لحده ، ويغشى التراب عليه ، ويرجع عنه أقرباؤه
ويسلمونه إلى الله تعالى مع فعله ، فيأتيه منكر ونكير في قبره ... فقال :
يا أم المؤمنين ، ما أشد منه على الميت قالت : قلت الله ورسوله

أعلم ... قال عليه السلام : « يا عائشة ، إن أشد حالة على الميت ، حين يدخل عليه الغاسل في داره ليغسله فيخرج حاتم الشباب من أصابعه ، وينزع قميص العرس من بدنه ، وينزع عمامة المشايخ والفقهاء عن رأسه ، فعند ذلك تنادى روحه ، حين تراه عريان بصوت يسمعه كل الخلائق إلا الثقلين ، تقول : يا غسال ، أسألك بالله أن تنزع ثيابي برفق ، فإني الساعة قد استرحت من مجاذبة ملك الموت » . . .

وإذا صب عليه الماء ، صاحت الروح كذلك : « يا غسال بالله لا تصب ماءك حاراً ، ولا تجعل ماءك بارداً ، فإن جسدى يحترق من نزع الروح ! ... » فإذا غسلوه تقول الروح : « بالله يا غسال ، لا تمسني قوياً ، فإن جسدى مجروح بخروج الروح ! » .. فإذا فرغ من غسله ، ووضع في كفته ، وشد موضع قدميه ، ناداه : « بالله يا غسال لا تشد كفني رأسي حتى أرى وجوه أهلي وأولادي وأقربائي ، فإن هذا آخر رؤيتي لهم ، فأنا اليوم أفارقهم ولا آراهم إلى يوم القيامة » .. فإذا خرج الميت من الدار ، نادى : « بالله يا جماعتي ، لا تعجلوا بي حتى أودع داري وأهلي وأقربائي ومالي » . . . ثم ينادى : « بالله يا جماعتي ، تركت امرأتي أرملة فعليكم ألا تؤذوها .. وأولادي يتيم فعليكم ألا تؤذوهم فإني اليوم أخرج من داري ولا أرجع إليهم أبداً » . . . وإذا وضع على الجنازة يقول : « بالله يا جماعتي ، لا تعجلوا بي حتى أسمع صوت أهلي وأولادي وأقربائي ، فإني اليوم ، أفارقهم إلى يوم القيامة » .. فإذا

حمل على الجنازة ، وخطروا بها ثلاث خطوات ، ينادى بصوت يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، ونقول الروح : يا أحبائي ويا إخواني ويا أولادي لا تغرتكم الدنيا كما غرتني ، ولا يابن بكم الزمان كما لعب بي ، واعتبروا بي فلني خلفت ما جمعت لورثتي ، ولم يحماوا من خطاياي شيئاً ، وعلى الدنيا يحاسني الله تعالى ، وأنتم تستمتعون بها ! .

* * *

ويروي المؤلف أيضاً ... يروي إحدى أساطير الأولين ، عن خروج الروح من الجسد فيقول :

إذا خرجت الروح من البدن ، ومضى للميت ثلاثة أيام ، تقول الروح : « يارب !... ائذن لي أن أنظر إلى الجسد الذي كنت فيه » .
فيأذن لها ، فتجئ إلى القبر ، وتنظر من بعد ، « فترى الماء قد سال من منخريه وفه ، فتبكي بكاء طويلاً ، وتقول : « يا جسدي ، هذا منزل الوحشة والبلاء والغم والحزن والندامة » . . ثم ترجع . فإذا مضى خمسة أيام ، تأتي إلى القبر فتجد الدم قد سال من فمه ، والقيح والصدئ من أذنيه ، فتبكي بكاء طويلاً ، ثم تقول : « يا جسدي ، هذا منزل الهم والغم والدود والعقارب ، الآن يأكل الدود لحمك ، ويمزق جلدك » . . ثم ترجع . فإذا مضت سبعة أيام ، تأتي إلى القبر ، فتجد الدود ينهشه نهشاً فتبكي بكاء طويلاً ، ثم تقول : « أين أولادك وأقاربك وإخوانك اليوم ، سيكون عليّ وعليك إلى يوم القيامة ؟ » .

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنه قال : « إذا مات الرجل

المؤمن ، تدور روحه حول داره شهراً . فإذا تم الشهر ، جاءت إلى قبره فندور حوله سنة ، فإذا تمت ، رُفعت إلى يوم القيامة » ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : « إذا كان يوم العيد ، ويوم العشر ، ويوم الجمعة الأولى من شهر رجب ، وليلة النصف من شعبان وليلة الجمعة ، تخرج الأموات من قبورهم ، ويقفون على أبواب بيوتهم ، ويقولون : ترحموا علينا في هذه الليلة بصدقة ، ولو بلقمة من خبز ، فإننا محتاجون إليها ! فإن لم يجدوا شيئاً يرجعون بالحسرة » .

وهو يروى على لسان النبي محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« إذا خرج الروح من بدن ابن آدم ، ومضى ثلاثة أيام ، يقول الروح : « يارب ا : . ائذن لي حتى أمشي وأنظر إلى جسدي الذي كنت فيه » : فيأذن الله تعالى له ، فيجىء إلى قبره ، وينظر إليه من بعيد ، وقد سال من منخريه ومن فمه دم ، فيبكي بكاء طويلاً ، ثم يقول : « أواه يا جسدي المسكين ، يا حبيبي ، أتذكر أيام حياتك ؟ ... هذا المنزل منزل الوحشة والبلاء والكرب والحزن والندامة » . . . ثم يمضي . فإذا كان خمسة أيام ، يقول : « يارب ا . ائذن لي حتى أنظر إلى جسدي » . فيأذن الله له ، فيأتى إلى قبره ، وينظره من بعيد وقد سال من منخريه ومن فمه ماء صديد وقيح ، فيبكي بكاء شديداً ، ثم يقول : « يا جسدي المسكين ، أتذكر أيام حياتك ؟ ... هذا منزل الغم والهلم والحمة والديدان والعقارب . . . قد أكلت الديدان لحمتك ، ومزق

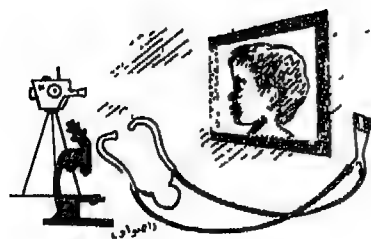
جلدك وأعضاءك» . ثم يمضى . فإذا كانت سبعة أيام ، يقول :
 « يا رب ! ... ائذن لى حتى أنظر إلى جسدى . فيأذن الله له ، فيأتى
 إلى قبره ، وينظر من بعيد ، وقد وقع فيه دود كثير ، فيبكي بكاء
 شديداً ، فيقول : « يا جسدى ، أتذكر أيام حياتك ؟ ... أين أولادك ،
 وأين أقربائك ، وأين زوجتك ، وأين إخوانك وأصدقائك ، وأين
 رفقائك ، وأين جيرانك الذين كانوا يرضون جوارك ؟ اليوم سيكون
 علىّ وعليك ! ... » .

وروى عن أبى هريرة ، رضى الله تعالى عنه : إذا مات المؤمن ،
 دارت روحه حول داره شهراً ، فتتظر إلى ما خافه من مال كيف
 يقسم ، أو كيف تؤدي ديونه . فإذا تم له شهر . ردت إلى حفرته ،
 فتدور بعد ذلك حتى يتم عايه حول ، فينظر من يدعو له ومن يحزن
 عليه . فإذا تم الحول ، رفع روحه إلى حيث تجتمع الأرواح . إلى يوم
 القيامة ، أى يوم ينفخ فى الصور .

وهكذا تناقل الأولون ما يبنى بأن شيئاً ما ينتظروا عند الطرف الآخر
 من الرحلة .

والعلم عند علام الغيوب أولاً وأخيراً .

... في آفاق الطب والمؤتمرات



كلمة سواء :

إلى المرضى بالقلوب

أهم سؤال يوجه إلى الأطباء من عشرات الألوف من مرضى القلوب — بعد أن يجتازوا المحنة القاسية ويدخلوا النقاهة — هو : إلى أى مدى ، وكيف أستاذف نشاطى اليومى ، وأى نوع من الرياضة أمارسه فى سبيل بعث الحياة من جديد ، إلى عضلات هدها طول الرقاد ، سواء فى هذا عضلة القلب ، أم عضلة الساق أم اليد ، أم الجذع ؟... إن المريض يبدو وكأنه يبدأ حياة جديدة ، فى دنيا جديدة ، ويظل الخوف جاثماً فوق صدره خشية النكسة ، فيتغاب عليه دائماً الشعور بأن أى مجهود يبذله قد يؤدى إلى موته . وهذا الشعور — فى حد ذاته — كفيل بأن يولد فيه استعداداً خصباً لنوبات من الخفقان ، الذى قد يصحبه عرق وضيق فى الصدر مما يزيد من خوفه على نفسه ، فيخيل إليه أن هذه المحنة القاسية المملة — التى أضناه خلالها رقاد بغير حركة لمدة من الزمن — سوف تعود ، فترده إلى الرقاد والسكون ويظل العمر أسير تلك الحلقة المفرغة ، التى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة .

وهنا تتبين صعوبة مهمة الطبيب المعالج فى سبيل إرشاد مريضه : كيف يقف عند مفترق طرق حيوية ، فالويل للمريض إذا لم يدرك

٤٣

تماماً ، إلى أى مدى يمرّ قلبه وعضلات جسمه ، ومتى يقف عند الحد الفاصل بين المحرّم وغير المحرّم ، فلا يبالغ في إظهار عضلاته وقلبه على وهن ، من ناحية ... ولا يخاف - من ناحية أخرى - من تمرين قلبه ، ليرغم شعيراته الدموية على خلق دورة إضافية ، تحمل محل الشريان المسدود .

إن واجب الطبيب - في هذه الحالة - هو إقناع مريض القلب بأن ينصاع لتعليماته ، دون خوف أو وجل ، وأن يصدع بإرشاداته عن مقدار الجهد الذى يجوز له بذله في حدود الأمان والسلامة ، ثم التدرج به في خطوات وثيدة ، حتى يصل به إلى درجات السلم العليا ، دون أن تنقطع منه الأنفاس ... مع تدريبه طول الوقت على إلتقان فن الاسترخاء فإن فشلت الوسائل الطبيعية ، فلا بأس من الاستعانة ببعض الأقراص المهدئة للوصول إلى هذا الغرض ، ثم الاستغناء عنها تدريجياً .

ويجب قبل البدء في ممارسة التمرينات الرياضية ، أن تتأكد من أشياء عدة تكون سبباً في تعريض المريض لهذه النوبات القائمة . ومن أهم هذه العوامل ارتفاع ضغط الدم ، ومرض البول السكرى ، والإفراط في التدخين . أما عن السمّة ، فليس هناك داع لاتّباع نظام خاص في المأكّل والمشرب ، بل يكفي بنصح المريض بتجنب الإفراط في الطعام . وقبل أن نسمح للمريض بممارسة التمرينات ، يجب فحصه جيداً للتأكد من أن القلب قد خرج سليماً تماماً من محنته ، فإن تمدد القلب مثلاً مع وجود

الصوت الثالث Gallop « وأنيوريزم » البطين ، وتختلف الصمام الميترالى Mitral incompetence ، وذنبذبة الأدين Auricular Fibrillation ... تعتبر مبررات هامة لتأجيل البدء فى إجهاد القلب بالتمرينات التى قد تضره ضرراً بليغاً . وهناك مريض يبالغون فى إجهاد قلوبهم بشئ الطرق عن حسن نية ، بغرض إيقاظ النائم من عضلات قلوبهم وشرائبيها ، مثل هؤلاء يجب عدم البدء فى معاونتهم قبل أن يرضخوا للنصح ، ويتحلوا بسعة الأفق والعقل المتفتح ، فإذا ما أصبح الجوى ملائماً لبدء التمرينات ، يجب أن نسدى للمريض الناقه النصيحتين الآتيتين :

الأولى : إياك أن تتجاهل ما يسمونه التعب . ففى شعرت به ، فاسترح فى الحال .

الثانية : إياك والمبالغة فى بذل الجهد إلى درجة الشعور بالألم وانقطاع الأنفاس .

وينصح الأخصائيون بأنه فى الحالات التى يعفى فيها المريض من التمرينات - بسبب الإجهاد أو القلق - فلا مانع من حضوره إلى « الجمينزيوم » فى أيام راحته ، ليخالط الذين سبقوه إلى هذه التجربة المضنية ، ويرى بعينه كيف تمالأوا إلى الشفاء الكامل ، فتزداد ثقته بنفسه ، ويغمره شعور بالاستبشار بأنه لا بد لاحق بهم بإذن الله .

* * *

وخلال زيارتي لاندن - فى العام الماضى - تعمدت أن أזור

« الجمنيزيوم » الذى يملكه ويديره المستر « البستيره وراى » ، وقد لاحظت أن جميع مرضى القلوب الذين يرتادون معمله ، يتمتعون بروح عالية ، وقد تدرج بعضهم فى التمرينات درجات قد يصعب بعضها على الشخص السليم . ورأيت أنه وهو يتهازل عندما عرف أننى من مصر ، فأخذ يذكر لى أسماء الرباعين واحداً بعد الآخر ، مبتدئاً بالمرحوم السيد نصير . وطفرت من عينه دمعة وهو يذكر اسم المرحوم « خضر التونى » .

ثم أشار إلى مرضاه وقد استعادوا عهد شبابهم ، بما يؤدونه من حركات عنيفة ، تدرّجوا ببطء حتى اعتادوها . وقال لى إن المريض الوافد حديثاً — وهو يستقبل مرضى من أخصائى القلب فى جميع أنحاء بريطانيا — تتباه فى بادئ الأمر عصبية وحساسية ، وتزيد سرعة نبضه دون مبرر لا سيما إذا كان ممن لم يمارسوا الرياضة قبل إصابتهم بالمرض . . . وهو يتدرج معهم فى هواة وتؤدة ، مستعيناً طول الوقت بجهاز بسيط . وقد عرض على أن يختبر قلبى بهذا الجهاز فلما قبلت ، طلب منى أن أصعد عشر مرات إلى كرسي له ارتفاع كرسي القعود العادى ، ثم طلب منى أن أمسك بعمودين صغيرين فى جهاز مجاور ، يقيس النبض بعد المران . ويحسب الجهاز الوقت الذى يعود بعد النبض إلى معدل الطبيعى ، من حيث عدد دقاته ، فإذا عاد بعد دقيقتين هنا فأثلاً : إن قلبك سليم ، ويمكنك البدء بالتمارين توالاً . وقد وجد عندى ما جعله يهتفى ويعرض على أن أندمج حالا فى زمرة

المجاهدين ، الذين ملأوا الجمنيزيوم » ، يرفعون أيديهم وأرجلهم وهم رقود على ظهورهم وينحنون بمجدوعهم ذات اليمين وذات اليسار ، وإلى أمام وخلف ، وكأنهم شبان في العقد الثالث من أعمارهم السعيدة . وكان يتنير إليهم قائلا : « إن كل سر العملية هو الماران التدريجي البطيء » .

وشكرت له حسن استقباله واعتذرت عن مداومة الماران فقد كان على أن أغادر لندن في اليوم التالي .

• • •

ويةص أستاذ أمراض القلب الكبير الدكتور « بيتر نيكسون » ، الذى زار مصر من عهد غير بعيد ، قصة مريض القلب وهو مقبل على التجربة ، بقلب واجف بعد طول رقاد ، ودقات قلبه سريعة نتيجة عامل الخوف والقلق ، ون ثم فإن قلبه لا يسمح له ، بأكثر من لحظات قصار ، ويلهث بعدها لا سيما إذا كان - قبل مرضه - من ذلك الصنف المكسال ، البعيد كل البعد عما يمت للرياضة بصله . ومهمة أخصائى الطب الطبيعى فى هذه الحالة هى ألا يسمح له بالتمرن إلا بقدر ما تسمح به سرعة نبضه ، فلا يتعدى التسعين أو المائة ضربة فى الدقيقة .. وذلك بالاستعانة بالجهاز المبسط ، الذى سبق لى شرحه ، والذى يمسك المريض بكلتا يديه عمودين صغيرين مثبتين فى أعلاه ، فيشير مؤشر خاص به إلى سرعة النبض . ويشترط فى التمرينات أن تشمل جميع أجزاء الجسم !. فلا يكتفى

مثلاً : باستعمال الدراجة المثبتة في أرض « الجمنيزيوم » لأنها تمرّن الساقين فقط ، ولا يفيد منها الجذع والذراعان . كذلك تسجل مدى ازدياد التحركات يوماً بعد يوم برسومات بيانية يتابعها المريض بنفسه ، حتى يدرك مدى التقدم الذي يحرزه ، والأخصائي الفنان هو الذي يفصل التمرينات في حدود إمكانيات مريضه ، ويجعل لكل جزء من الجسم نصيباً منها . فالمفاصل والجذع والأطراف يجب أن تعتبر كوحدة توزع التمرينات بينها بعدالة . ويجب أن يجعل همه الأول تشجيع مريضه العصبي المرهف الحس على الاسترخاء ، وتسليم نفسه إلى موج الحياة في اطمئنان ، وإشعاره بأنه يحرز تقدماً ملموساً ، وخاصة إذا رأى بعينه المؤشر - في ذلك الجهاز المبسط - يتحرك إلى اليمين في شدة غير متعمدة ، ثم لا يلبث أن يطمئن قلبه عندما يرى بعينه كيف يتراجع المؤشر مقترباً من رقم التسعين أو الثمانين - وهي سرعة النبض الطبيعية . وهذا التراجع قد يستغرق - عند بدء التمارين - خمس دقائق ، ولكن مع استمرار التحسن ، ينكمش الرقم إلى أربع ثم دقيقتين . . وهذا منتهى أحلام المريض الآمل ، المترقب . . وهذه هي الفرحة الكبرى !

وقد يقال لي المستر « موراي » - صاحب « الجمنيزيوم » : إن المريض تزداد ثقته بنفسه يوماً بعد يوم ، ويغمره شعور التفاؤل عندما يرى بعينه أن كل المقاييس والرسومات البيانية في صالحه ، وأنها تدل دلالة واضحة قاطعة على أن عضلات القلب وقدراتها على العمل

تتحسن باطراد : ويجب أن يكون التنسيق كاملاً بين فترات التمرين والراحة والاسترخاء ، حتى نحصل على أحسن النتائج ، من حيث الشعور بالأمان واختفاء الألم ، ويجب أن يدرك المريض أن الراحة هي الترياق الوحيد كلما انتابه شعور بالتعب أو الضيق ، وما يصحب كل منهما من اضطراب نفسى وشعور بالخوف من عودة الضيف الثقيل ، الذى جعله يلزم الفراش لبضعة أسابيع غنية بالضيق والحيرة والخوف والقلق . . والويل له من نفسه إذا تجاهل هذا الشعور بالتعب ، فإن الأحداث تتوالى عليه ، وخاصة الألم المزعج ، وانقطاع الأنفاس : والمريض الذكى هو الذى يعرف متى وأين وكيف .

* * *

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : هل من سبيل للتنبؤ بالمحذور قبل وقوعه بأشهر أو أعوام ؟ : إن الأعراض يكتنفها غموض ، قد يبرره تقدم السن بخطوات وثيدة نحو ما يسمونه بالشيخوخة . فقد يشعر الشخص السليم المظهر بالتعب — لأول مرة فى حياته — عند القيام بمجهود ما ، وقد ينتابه ضيق لا يخفى على زملائه الملازمين له من زمن ، ولعله يضيق بنفسه عندما يلاحظ أنه لم يعد قادراً على بذل المجهود البدوى فى سهولة ويسر ، ما لم يقاوم ذلك الشعور القاتل الذى يسببونه التعب السريع ، وتلاحظ الزوجة شحوب وجهه بعد بذل الجهد خلال الساعات التى يقضيها فى عمله ، فتعجب — كما يعجب زملاؤه — من ضيق خلقه ، وسرعة هياجه . .

ولو علموا السبب لالتمسوا له العذر ، فهو يدرك أنه حتى أيام أو أسابيع قلائل كان مغوارا يكاد يجرى خطاه ، ويصعد درجات السلم في ثقة وأمان دون أن ينقطع منه النفس . فيداخله الحرف من المستقبل وما يخبئه من مفاجآت ، أهونها العجز عن تحمل المسئوليات الملقاة على كتفيه ، وأشدّها المرض والرقاد ، ثم الموت الذى هو حق على الجميع . وقد يفكر — للمرة الأولى في حياته — في استشارة طبيب . ثم يظل يتردد على هذا الطبيب بالرغم مما يؤكدّه من أن قلبه حتى هذه اللحظة سليم . ولكن أنى له أن يهدأ ويطمئن ، وهو الذى صنعت منه الأوهام مريضاً نفسياً ، والويل له إذا انتابه ، بين حين وآخر شعور غريب فى الصدر قد لا يصل إلى درجة الضيق ، أو خفقان فى القلب مما يجعله يركز اهتماماً أكثر وأكثر على قلبه .

أما حدوث الآلام التى تشبه الذبحة الخفيفة ، كالآلم الذى يبدأ فوق منطقة القلب ثم ينتشر إلى الكتفين — وخاصة الكتف اليسرى — فإنه ينبه الطبيب إلى احتمال وجود الذبحة الصدرية ، وعندما يفحص القلب بالراسم الكهربائى ، يكون الرسم فى الأغلبية الساحقة من الحالات طبيعياً ، لأن عضلات القلب لا تكون قد تأثرت بعد بجلطة عابرة . ولكن على الطبيب أن ينصح مريضه بالراحة وعدم الإجهاد ، وأن يصف له دواء مهدئاً يساعده على التطيع بالنعمة الكبرى التى يسمونها الاسترخاء . وبعد أن يصل به إلى هذا الدور من إراحة القلب والأعصاب ، يسلمه إلى خبير فى تأهيل الحالات القلبية ، يتدرج به فى التمارين حتى تتحسن

قدرات القلب والرئتين على مواجهة المجهودات والانفعالات ، وبقية من حدوث ما نخشاه دائماً ، وهو الجلطة في أحد فروع الشريان التاجي .

* * *

والسؤال الثاني هو : لمفترض أن المحذور قد حصل ، وأصيب المريض بانسداد في أحد شرايين قلبه ، ثم قسم الله له الشفاء ، فكيف نأخذ بيده خطوة خطوة نحو شفاء دائم بإذن الله ؟ . . وكيف نوفق بين الآراء المختلفة التي ينحرف بعضها شرقاً ، وينحرف البعض الآخر غرباً . . . إن الآراء تكاد تكون متفقة - في مختلف مدارس الفكر - على طرق علاج المريض في بداية الأزمة ، فالراحة الجسمية والنفسية شرط أساسي ، فلا بد أن يلزم المريض فراشه دون حراك ، وأن تغمر أعصابه بالمسكنات والمهدئات ، مثل « الفاليوم » و« والانسيدون » و« التريبتزول » ، وغيرها مما يطول حصره ، وقد ينام المريض طول الليل ومعظم النهار ، ولا يصحو إلا في موعد تناول الدواء أو قليل من الغذاء يسد رمقه خلال شهية أضعفتها عوامل عدة .

أما ما عدا ذلك من الأمور العلاجية ، فالآراء فيه مختلفة متباينة . ولنبدأ بأدوية السيولة كما يسمونها أو الـ Anticoagulants أي المضادة للتجلط . فهناك مدارس عدة ، وفي مقدمتها المدرسة الإنجليزية ، تنصح بعدم إعطائها إلا لمدة لا تزيد على الشهرين ، على أن يحتفظ الدم بدرجة من السيولة تتراوح بين ٢٥ ، ٣٠ في المائة - : وفي مدارس

أخرى - وفي مقدمتها المدرسة الأمريكية - تميز استعمال هذه الأدوية طوال ما تبقى للمريض الناقه من حياة ، مستعيناً طول الوقت بتقدير عامل التجلط Prothrombin Time في دمه ، وإنقاص مقدار الدواء أو زيادته حسب التغيرات في عامل التجلط ، بحيث يحتفظ بمستواه بين الخمسة والعشرين والخمسة والثلاثين في المائة . وهناك من يكتفون بما يلاحظونه من أعراض "نزفية في جسامهم مثل نزيف اللثة ، لاسيما عند استعمال فرشاة الأسنان أو من الدقن عند حلاقتهما في الصباح . عندها يتحتم على المريض أن يذهب في الحال إلى معمل التحاليل ، للتأكد من مستوى التجلط في دمه . فإذا انخفض إلى درجة الخطورة ، أوقف الدواء في الحال ، وأعطيت أقراص الفيتامين « ك » (كوناكيون) . ومن الصحيح أن هناك مبررات حاسمة تمنع استعمال هذه الأدوية . مثال ذلك ارتفاع ضغط الدم الشديد ، ووجود قرحة في المعدة أو الاثنى عشر ، وأمراض الكبد والكليتين الشديدة ، والسمنة المفرطة ، وحالات الحمل وسبق الإصابة بأمراض نزفية . أما خلاف هذا ، فالمعقول والأكثر أماناً هو الاستمرار في استعمالها ممدداً طويلة ، أقلها عامان مع الاستعانة بالمتابعة المعملية لأن بعض هذه الأدوية تتلاعب بمستوى البروترومين ، فهو يوماً عال جداً دون مبرر ، ويوماً منخفض لحد الخطورة .

وجدير بالذكر أن الحيض عند السيدات لا يمنع من استمرار تعاطي الدواء .

واختلفت الآراء كذلك بصدد القيمة العلاجية للأدوية المضادة

للكولسترون ، مثل « الأثروميد » و « الديسينوفس » وغيرهما . وبالرغم من الآراء المضادة ، فإن معظم مرضى القلب يواظبون على تعاطى هذه الأدوية ، وكأنها سراب الأمل فى الصحراء القاحلة . وما الضرر منها مادامت لها القدرة على خفض مستوى هذه المادة فى الدم . فإن هذه المادة تعتبر عاملاً هاماً فى حدوث تصلب الشرايين . وتفضل المدارس المتطرفة الطريقة الطبيعية ، وهى المشى لمدة نصف ساعة أو ساعة يومياً ، والإقلال من تعاطى الأغذية الدهنية ، وتجنب زيادة الوزن ما أمكن .

* * *

حضر إلى مصر أخيراً أستاذ بريطانى كبير ، أخصائى فى أمراض القلب ، وهو الأستاذ « بيتر نيكسون » . وبقي بين ظهرانيها شهراً كاملاً يفحص الحالات التى تهافتت عليه فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى ، وكان بعد أن يطمئن على حالة المريض من الناحية الإكلينيكية ورسم القلب الكهربائى ، يكتب له على ورقة صغيرة أقراص : « فاليوم » ٥ مليجرام ، والمشى لمدة ساعة يومياً . وكانت السيدات يولولن ساخرات « أندفع عشرة جنيهات ليقول لنا : المشى وأقراص الفاليوم المهدئة ؟ .. » والواقع أن هذا يمثل بأمانة رأى المدرسة الإنجليزية . فغالبية علماء القلب من أتباعها يعتقدون أن المشى والإجهاد الجسمى المعقول — مثل ممارسة السباحة — من أقوى الوسائل لفتح شرايين القلب وخلق دورة دم جانبية تكاملية حول الجزء الذى أصابه التليف نتيجة لانسداد الشريان الأسمى . وقد يعتمد بعض الكسالى إلى الاعتماد على موسعات الشرايين ، مثل

« التراينترين » ، وخاصة بطيئة المفعول منها مثل « الايزودريل » و« البيرتريت » و« الكوروفاز » وغيرها مما يصعب حصره ، وكلها وسائل لا تغنى أبداً عن رياضة المشى وغيره مما يمارس في مراكز تأهيل القلب. ولكن لا بأس من أن يحمل المريض في جيبه بضعة أقراص من « التراينترين » وأشهرها « الانجسيد » ، وهو الدواء الرخيص الثمن القوي المفعول . فإذا شعر المريض بانقباض فوق صدره ، نتيجة أى مجهود ، فما عليه إلا أن يضع إقرصاً تحت لسانه . ومتى أحس بالراحة ، وجب عليه أن يبصق ما يتبقى منه . ، لأن امتصاص الكثير من هذا الدواء يؤدي إلى أعراض مزعجة ، مثل الخفقان والهبوط والعرق ، مما يزيد من خوف المريض على نفسه .

ومن المستحسن اللجوء إلى مدرات البول غير الزئبقية ، وخاصة في المرضى الذين يراد لإراحة قلوبهم المنهكة . كما هى الحال في الذين تراكت المياه في أجسامهم ، ثم فاضت حول الكعبين وفي جدار البطن ، فهنا يستحب سحب أكبر قدر ممكن من المياه والأملاح المتراكمة بين خلايا الجسم فيخفف وزن المريض ويحد نفسه خفيفاً . . ويجب عليه في الوقت نفسه أن يقلل من الملح في الطعام ، ومن شراب السوائل دون مبرر حتى لا يثقل قلبه الجريح .

هذه باختصار مسيرة المريض الناقه من اللبحة الصدرية بمختلف أنواعها وتفاوت درجاتها . ولعلها طريق السلامة بإذن الله .

طبيب أطفال . . . فى السودان

عندما قبلت راضياً مغتبطاً مهمة العمل بالسودان الشقيق ، نظمها لى الهيئة الصحية الدولية ، لمدة ثلاثة أشهر ، دهش زملائى : كيف يترك إنسان مثلى قاعدته العريضة من الثقة والانتشار ، إلى بلد ولو أنه شقيق إلا أنه فى نظر المتكاسلين سحيق : وتساءلوا ماذا يفيد شخص له تجاربى - ذرع العالم شرقاً وغرباً ، ونهل من منابع العلم حتى غص حلقه من التزوح إلى بلد يقسو الجحوى فيه أحياناً ، ومشكلاته المرضية شبيهة بمشكلاتنا ..

فهم يرون أنه ليست هناك فرصة للاستزادة من المعرفة ، ناسين - أو متناسين ! - أن فى كل بلد على وجه البسيطة مجالات للبحث والاستقصاء ، وإن رحلة كهذه تبعدين مؤقتاً عن ثقة المريض التى تثقل كاهلى ، وتهنئ فسحة من الوقت أراجع فيها ما فانى فرصة قراءته من الكتب والمراجع والمجلات الطبية الحديثة ، فتزيد متعنى النفسية ، وتزدهر مكتبنى الفكرية للدرجة التى ترضى النفس التواقفة الشواقفة . . إذ أعود لتلميذاً من جديد ، ألهم الصفحات فى نهم ، ومدرساً يقطأ لا يتوانى لحظة عن تنفيذ الجدول المنوط به ، فأدرس للطلاب وأمر بهم على الحالات دارساً فاحصاً ، وأفيد أطباء وطلاب السودان من نتائج

أبحاثى فى أمراض سوء التغذية ، التى قضيت سنين طويلة أحل طلاسمها مع مجموعة من أساتذة طب الأطفال المصريين - الذين أعتر بتعاونهم فى هذا المجال - حتى هذه الساعة ولسنوات قادمة بإذن الله . . وأضرب لذلك مثلاً بمرض « الكواشيوركور » ، والطفل الضامر ، والأديما الغذائية ، والنزلات المعوية بكل مشكلاتها المعقدة ، وأنيميا البحر الأبيض المتوسط (مرض الثلاسيميا) . كما أننى أفيد منها بمناظرة حالات ينذر وجودها فى مصر ، مثلاً نوع الأنيميا التى تشبه فيها كريات الدم الحمراء الهلال فى أيامه الأولى من الشهر القمري أو المنجل الذى يقطع به حشيش الأرض ، ويطلقون عليها Sickle Cell Anaemia أى الأنيميا المنجلية . وهى « أنيميا » لم يكتشف منها فى مصر - خلال السنين الطوال - سوى حالة واحدة ، لأن حدوثها يكثر فى الأطفال ذوى البشرة السمراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أطيل الحديث قليلاً ، عن هذه الأنيميا ، حتى أنه الأطباء عامة إلى مميزاتها ، لعالمهم - سواء فى القرية النائية أو المدينة الكبيرة - يتمكنون ذات يوم من أيام الحياة من اكتشافها فى مرضاهم ، ويضيفون إلى العلم شيئاً جديداً . والعلم غير مقصور على الجامعات أو المعامل ذات الاستعداد الضخم ، بل هناك الحاسة الإكلينيكية أولاً وأخيراً . ويحالفك فى أن تكشف عن حقيقة أى مرض - بواسطة الفحص - عين واعية مدققة ، وأيد مرهفة الحس ، فيها لمسة السحر ، تستشف ما وراء الحجب ، وذهن واع متفتح ، يكاد

يلتهم الكلمات التهاماً من فم المريض أو أهله ، فيحولها إلى معان توجهه نحو حقيقة المرض ، مهما كان نوعه أو كانت درجته . : . وأخيراً ، وليس آخراً ، إلهام رب العرش الأعلى ، فأنت بدون وحى ينزل عليك ليملكك الصواب ، عاجز أى عجز عن فك التلاسم التى تواجهك إذ تتصدى لمشكلة من مشكلات هذه العقدة الأزلية التى يسجى فيها الطفل . لكل هذا كانت سعادتى كبيرة ، عندما عرضت على الهيئة الصحية العالمية أن أشغل منصب أستاذ زائر بقسم الأطفال بالجامعة الخرطوم . وللسودان عدى ذكريات عزيزة كانت أول زيارتى له خلال انعقاد مؤتمر اتحاد الأطباء العرب - فى عام ١٩٦٧ - بالخرطوم ، والثانية خلال انعقاد مؤتمر جمعية أطباء الأطفال السودانية الأول بوادى مدنى ، فى عام ١٩٦٩ . . وقد لقيت من زملائى محبة وحفاوة يعجز اللسان عن إيفائهما حقهما .

* * *

وصلت إلى الخرطوم فى فجر يوم السبت ، الموافق اليوم السادس عشر من يناير عام ١٩٧١ . وبلغت الفندق الكبير « جراند أوتيل » فى الصباح المبكر . وبعد أن استرحت قليلاً ، وبينما كنت أنتظر وصول صديقى الدكتور « محمود محمد حسن » ، جلست فى « التراس » الكبير المطل على النيل ، واستنشقت عبير السودان الحبيب بعد غياب . وشعرت بانتعاش الإعجاب ، وأخذت أسترجع ماضى الذكريات حتى أهل على الصديق الحبيب . . وبعد ترحاب تخللته القبلات والأحضان ،

اصطحبني إلى قسم الأطفال بمستشفى الخرطوم . وهناك قابلت صديقي الدكتور « حافظ الشاذلي » ، مدرس الأطفال بالجامعة ، وطبيبين شابين عاددا حديثاً من إنجلترا ، بعد أن اجتازا امتحان عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن - وهما : الدكتور « محمد إبراهيم على عمر » والدكتور « حسن عثمان » - وعدداً من أطباء الامتياز والنواب يكفل تمتع المريض برعاية فردية لأبأس بها تحت توجيه مدرسيهم وأساتذتهم الذين سبق لي ذكر أسمائهم .

وإذا حكمنا على طب الأطفال في السودان على المستوى الجامعي وجدناه مريضاً للغاية ؛ فطالب « البكالوريا » تتلقفه أيد أمينة لأساندة تخصصوا تخصصاً عالياً ، فيصقلون معلوماته للدرجة التي تجعله يلم تماماً سليماً بمشكلات الطفل أثناء مرضه ، وتساعده على الأخذ بيده عندما تستد به العلة ، في المدينة الكبيرة أو القرية النائية على السواء .

ومراكز رعاية الطفل تزيد ببطء نسبي . . فمع أنها مطردة ، فإنها لا تفي بحاجة السودان الشقيق الواسع الأرجاء . لذلك كان من الضروري الاستعانة بأطباء من البلدان المجاورة الناطقة بالضاد ، ليسدوا النقص حتى يتخرج الأطباء الشبان في جامعة الخرطوم ، وفي جامعة « واد مدني » المزروع إنتاؤها قريباً . . فيشغلوا فراغاً هائلاً هم أهل لأن يشغلوه .

* * *

وعدتك يا قارئ العزيز ، بالتحدث إليك في بعض الإيجاز عن نوع من فقر الدم المزمن ، لاحظت كثرة حدوثه بين أطفال السودان ،

وتتميز فيه الكريات الحمراء بشكلها الهلالى أو النجلي Sickle ، بدلا من الشكل المستدير الذى تلاحظه فى الطفل العادى . . وهذا المرض يطلق عليه « الأنيميا المنجلية » ، ويندر جداً حدوثها فى مصر . وقد سنحت لى الفرصة لمناظرة الكثير منها ، وكأنها حدث يومى لا تخاو منه عيادة أطفال فى مختلف أنحاء جمهورية السودان .

وينتج هذا النوع من « الأنيميا » من تغير خلقى فى تركيب « الهيموجلوبين » ، يحوله إلى « هيموجلوبين S » بدلا من الطبيعى الذى تصطبغ بها كرياتنا الحمراء ، والذى يحافظ على استدارتها . وللكرات الهلالية المنجلية ، من شكلها ما يساعد على تلاصقها ، وخاصة من أطرافها وتتجمع على هيئة كرات مستديرة تسد الشعيرات الدموية فى أجزاء الجسم المختلفة ، لاسيما فى الطحال . فيشكو المريض من آلام حادة فى البطن ، قد يشخصها الطبيب على أنها التهاب فى « البريتون » أو الزائدة الدودية . . وقد تحدث هذه الأيام فى الأطراف ، فيختلط الأمر بينها وبين الحمى الروماتزمية . . أما إذا كانت هذه الكرات ترسب فى الكليتين ، فقد يلتبس الأمر على الطبيب ، فيحسبها التهاباً كلوياً حاداً . . والويل للمريض إذا حدث الترسب فى الجهاز العصبى، فهنا تظهر التشنجات والغيوبة وتيبس الرقبة والشلل ، وبقيّة الصورة التى تصاحب الالتهاب السحائى ، والتهابات المخ عامة . : أما إذا كان الانسداد فى صلب العظام ، فإن الجراثيم تهرع إلى نقط الضعف هذه ، مسببة التهاباً عظميةً حاداً .

وما لم يشخص المرض الأصلي على حقيقته ، فإن الجراح يعالج الحالة كما تبدو له ظاهرياً ، ويعود المريض إلى ذويه سليماً معافى من الحالة الجراحية الطارئة . . حتى يحين الأوان - في مستقبل قريب أو بعيد - الذى يعثر فيه الطبيب الباطنى مصادفة على فقر الدم الطاهر الواضح لكل ذى عينين ، والطحال المتضخم ، ومنظر الكريات الحمراء الهالكة . . والذى يخطر فيه ببال الطبيب المعالج أن يطلب من طبيب معمل - ذى كعب عال فى فنه وعلمه - أن يدلّه على وجود هذا النوع من « الأنيميا » ، إذا وجد بعضاً من مميزاته الأخرى ، وأهمها تضخم الطحال واصفرار اللون الشديد ، وإذا كان المريض أسود البشرة - وهو الغالب - فاعليك إلا أن تقلب جفنه الأسفل ، لترى إذا كان من الداخل قد تحول من اللون الأحمر القانى إلى لون باهت لا يسر الناظرين .

من يدري يا عزيزى الطبيب القاطن بعيداً عن صخب الجامعات والمعامل ؟ . قد تسوقك المصادفة إلى أن تكتشف إحدى الحالات الأولى من هذا المرض فى جمهوريتنا . . والقدرة على كشف الحديد متوقفة على أن تتوقع وجوده دائماً فى مخيلتك رفى ناظريك . فإذا خرج الطبيب منا كل صباح ، وفى نيته عزم وتصميم على العثور على حالة من مرض نادر ، فإنه قد يوفق : ذات يوم جميل أشرقت شمسّه ، فيكون له فخر الإنذار والتنبيه ، للتصدى للداء الوافد .

أما أمراض سوء التغذية ، فهي كثيرة الانتشار في السودان كما هي الحال في جمهوريتنا ، مثال ذلك مرض « الكواشيوركور » ، الذي يتميز بتغيرات جلدية ، وتورم يشمل جميع أجزاء الجسم ، وتحول في لون الشعر من الأسود القاتم إلى الكستنائي ، أو الأشقر .. فضلاً عن تضخم في الكبد نتيجة تراكم دهني ، وسرعان ما تختفي كل هذه الأعراض إذا أمددنا الطفل بما يلزمه من « البروتينات » ، وهي موجودة بسحاء في اللحوم والألبان والبقول ... فالخطأ الشائع عندنا وفي كل البلدان — التي ابتليت بهذه الأمراض ، مع أنه من السهل أن نجنب الطفل مخاطرها بقليل من الإرشاد والتوعية — هو أن تكثر الأم من إعطاء طفلها النشويات والسكريات ، وتحرمه — غير عامدة — من المواد « البروتينية » ، ولعل كوباً من اللبن ، أو وجبة من العدس ، أو الفول المدمس أو قليلاً من اللحم إذا تيسر ، كافية لوقاية الطفل من هذا البلاء المبین .

إن الطفل في مصر يلتمس ما تقدمه له أمه من أرز مسلوق . فيزيد وزنه للدرجة التي تغتبط لها الأم ، غير مدركة أنها ترتكب في حقه خطأً أو جرماً غذائياً خطيراً ، قد يودي بحياته ، أما في السودان ، فإن الطفل يزدرد في لذة ما تقدمه له أمه مما يسمونه هناك بالشرابات ، وهو شراب عسلي لا يغني عن القحط « البروتيني » الذي يعاني منه مريض « الكواشيوركور » أو الطفل الأحمر كما يسمونه .

والغريب في هذا المرض أنه — بالرغم من الصبورة القاتمة التي يبدو

عليها في أول الأمر — قابل للعلاج . فأنت تواجه طفلاً بائساً ، تبدو عليه الكآبة والحزن ، ويرفض التعاون مع من حوله ، ويعد اليد التي تقدم له الطعام ، وكأنه يتعمد الانتحار جوعاً ، فإذا ما صادفت مثل هذا الطفل المتهالك ، المتعنت ، فلا تتخذ منه موقفاً سلبياً ، بل عليك بحقه بالبلازما عن طريق الزريد . وإذا لاحظت عليه الشحوب نتيجة فقر الدم الذي يصحب معظم هذه الحالات ، فإن عملية نقل الدم أفضل من حقن البلازما وحدها .

ولقد ثبت أن هذا الشعور بالاكتئاب — الذي حدثت لك عنه — ناتج عن نقص « الفيتامين ب - ٦ » أو « البيروكسين » ، فإذا حقنته بهذه المادة في العضل يومياً ، زال هذا العارض المزعج ، وأقبل الطفل على طعامه ، وازداد تعاونه مع من حوله ، وسهلت مهمة الطبيب على الأخذ بيده إلى بر السلامة . ومتى تفتحت الشهية ، اندفعت خلالها كل مقومات الحياة من أنواع الغذاء والدواء ، وبدأ كل شيء سهلاً مهنئاً لشفاء سريع بإذن الله ... وبهذه الطريقة يمكن شفاء المريض تماماً خلال أربعة أسابيع من بدء علاجه .

* * *

وما أدهشني حقاً ندرة حدوث مرض لين العظام (الكساح) في السودان بالرغم مما عرف عن كثرة حدوث هذا المرض بين الأطفال ذوي البشرة السمراء ، نظراً لصعوبة اختراق الأشعة فوق البنفسجية للجلد ، كى

تصل إلى الدهنيات المتركمة تحتها ، لتحولها إلى « فيتامين - د » يكون له أثره في تمثيل « الكالسيوم » في الجسم ، عند امتصاصه خلال الأمعاء وترسيبه في العظام فيزيديها صلابة ومتانة . إنه منتشر جداً بين الزنوج في أمريكا لهذا السبب الذي أشرت إليه ... ولكن ، يظهر أن أشعة الشمس - كلما اقتربنا من خط الاستواء - تزداد حدة وقدرة على اختراق طبقات الجلد ، مهما بلغ سمكه أو اشتدت سمرة - لذلك قضيت في السودان تلك الفترة من الزمن دون أن أشاهد طفلاً واحداً مصاباً بمرض لين العظام .

وبمناسبة « لين العظام » ، أود أن أنبه زملائي إلى خطورة الإفراط في استعمال حقن « الأوستلين فورت » ... وهي التي تحوى ٦٠٠,٠٠٠ وحدة من « الفيتامين - د » في الحقنة الواحدة . إذ تكفى حقنتان منها أو ثلاث على الأكثر . وكثيراً ما يصف الطبيب خطأ حقنة كل أسبوع حتى يصل العدد إلى ١٠ حقن فعلاً ، ويؤكد على الأم ألا تكف في منتصف الطريق ، وإلا كان العلاج غير مجد . وذلك دون أن يفطن إلى أن هذا الطريق يؤدي إلى ما يسمونه التسمم بالفيتامين د Hypervitaminosis الذي يتميز بحدوث ارتخاء عام في الجسم ، وميل إلى القيء والإمساك . فعند ظهور هذه الأعراض في طفل يتعاطى هذا الفيتامين ، وجب تقدير مستوى « الكالسيوم » في دمه . والمعروف أن المستوى الطبيعي للطفل هو من ٩ إلى ١١ مليجراماً في المائة . أما في حالات التسمم - التي أشرت إليها - فإنه يرتفع إلى ١٥ « مليجراماً » أو أكثر . وكلما كان التشخيص مبكراً ، لممكن علاج الحالة في سهولة تامة ،

وذلك بإيقاف تعاطى « الفيتامين » ، وجميع الأغذية التى تحتوى على نسبة عالية من الجير ، مثل اللبن ومشتقاته . كما أن تعاطى عقار « الكورتيزون » له أثر فعال فى علاج هذه الحالات .

ولا تقف خطورة الخطأ عند هذا الحد ، بل هناك احتمال جد خطير ، وهو ترسب الجير فى الكليتين ، وهذه هى الطامة الكبرى ، لأن هذا يؤدي إلى تسمم بولى خطير ، قد يصعب إنقاذ الطفل من برائته .

ولكثرة حدوث النزلات المعوية فى السودان ، نجد الأطباء بالمستشفيات — على مختلف درجاتهم — يتقنون الاستعانة بالمحاليل التى تحقق فى وريد الطفل المصاب بهذا المرض ، . وأود أن ألفت النظر إلى أن أى خطأ فى هذا المجال ، قد يكون قاتلاً . فالطفل المصاب بالقيء فقط ، يازمه حقن محلول الملح ، ولا مانع من « الجلوكوز » فى نفس الوقت ، لقيمته الغذائية . أما إذا كان الطفل مصاباً بالإسهال فقط ، فإن حقنه بمحلول الملح قد يضره ضرراً بائعاً ، لأن مثل هذا الطفل يكون مصاباً بارتفاع فى حموضة الدم acidosis ، فإذا حقن بمحلول الملح زادت هذه الحموضة ، وساءت حالة الطفل . والطريقة الوحيدة هى حقنه بمحلول $N/6$ Molar Lactate or Bicarbonate ، لأنها متى دخلت الجسم انطلق منها الصوديوم Na حرّاً ليتغلب على الحموضة السائدة فى دم الطفل . أما عنصر « اللبانات » Lactate فإنه يتحول فى الجسم إلى « جلوكوز » . وإذا كان الطفل يشكو من قيء وإسهال فى نفس الوقت ، فلا مانع من حقنه بالجلوكوز مع محلول الملح . وإذا كان الانتفاخ شديداً فهذا فى غالب الأمر ناتج عن هبوط

مستوى « البوتاسيوم » في الدم ، لذلك يجب إضافته إلى السائل المحقون في
الوريد . وإذا لم يتسن هذا ، ففي عصير الفاكهة — مثل البرتقال والليمون
والتفاح — كمية من « البوتاسيوم » كافية لمقابلة هذا الطارئ في منتصف
الطريق .

مشاهدات في مؤتمر الطفولة بأنقرة

يخطئ من يظن أن ارتياد المؤتمرات عبء ومضيق للوقت.... لقد دأبت على المواظبة على حضور كل مؤتمر يمت إلى الطفل بصلة منذ عام ١٩٥٦ ، عندما عقد مؤتمر الطفولة الدولي بكونهاجن ، عاصمة الدنمرك . وأذكر ونحن نحتفل باختتام أيام المؤتمر، أن تقدم منى الذكور « حامد على خان » مندوب الباكستان ، وهمس في أذني بصوت يرتعش فرحاً : لقد استولى « ناصر » على قناة السويس . . . وكان ذلك في يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦ .

ثم جاء دور مؤتمر الطفولة الدولي التاسع بمونترال ، بكندا .. وصممت - في طريقى إليه - أن أعرض على الجمعية العامة للمؤتمر دعوته للانعقاد بالقاهرة . وأخذت أجوب طرقات المؤتمر، المنعقد في قاعات الدور الأول من فندق « الملكة إليزابيث » ويسمونه دور المؤتمرات كما يسمونه في معظم الفنادق الكبيرة في وقتنا هذا - وأجريت اتصالاتي الشخصية مع أصدقائي من أعضاء وفود البلاد الأخرى ، فلقيت الفكرة قبولا مشجعاً حتى إذا ما جاء يوم جلسة الجمعية العامة ، نهض مندوب إسرائيل وندد بالفكرة ، ما دامت مصر لا تقبل دخول مندوبي إسرائيل . ومن شروط المؤتمرات الدولية أن تقبل الدولة المضيضة جميع الجنسيات دون تفرقة (٣)

عنصرية . فكسبت « لشبونة » عاصمة البرتغال ، الجولة . . . وذهبتا في عام ١٩٦٢ إلى « لشبونة » لأن المؤتمر الدولي يعقد كل ثلاثة أعوام .
عندئذٍ خطرت لي فكرة عقد مؤتمر إقليمي يضم بلدان الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط ، لأرجع وفي يدي هدية أقدمها لجمعية طب الأطفال المصرية ، التي كنت أراسها . فعرضت الفكرة على الأستاذ « جيدو فانكوني » ، سكرتير عام جمعية الطفولة الدولية . وكانت حجتي أن مثل هذه المؤتمرات الإقليمية تناقض مشكلات واحدة ، متجانسة ، وهذا يعود بفائدة أكبر على طفل المنطقة . واقتنع الأستاذ الكبير في الحال ، ودعاني للغداء في مطعم الفندق — بالدور التاسع — وسمى الأستاذ « إحسان دجرامتمشي » مندوب تركيا ، الذي أصبح — فيما بعد — مدير جامعة أنقرة . وقد كان رئيس المؤتمر التاسع الإقليمي ، الذي عقد في أنقرة في شهر سبتمبر ١٩٧٣ . واتفقنا على أن تكون القاهرة مكان انعقاد مؤتمر الطفولة الإقليمي الأول لبلدان الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط ، ثم تطورت الفكرة في المؤتمر الخامس ، الذي عقد في القدس فزيدت الرقعة بحيث تشمل حوض البحر المتوسط بأكمله ، وأصبحت تضم إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال ودول شمال أفريقيا .
هكذا نشأت فكرة المؤتمر الإقليمي... بداتها كمحاولة لتغطية موثف مصر ، بعد إذ حالت وجهة نظر إسرائيل دون نجاحنا في عقد المؤتمر الدولي بالقاهرة . وأخذت أرقب الفكرة وهي تتضخم دولياً ، وأقبل عليها كبار الأطباء من مختلف أنحاء العالم وأخذت تنتقل من بلد إلى آخر ،

فبعد المؤتمر الثاني بأثينا في عام ١٩٦١ . . . ثم بيروت ، وأثينا ، والقدس ،
وأثينا مرة ثانية - بدلا من القاهرة - بسبب حرب ١٩٦٧ ، ثم طهران .
فبرشلونة . . . حتى إذا ما جاء عام ١٩٧٣ ، كان الانعقاد في أثينا للمرة
الثانية . وكان هذا المؤتمر الأخير حائلا بالمشغليات العالمية في طب
الأطفال ، ومن جميع الجنسيات . . . وكانت الموضوعات التي نوقشت على
مستوى عال من الجودة والعمق مما جعلني أغتبط لنجاح فكرتي وشكراً لله
الذي وقف دائماً بجانبني ولم يخذلني أبداً .

* * *

وصلت أثينا قبل موعد المؤتمر بيوم ، أي في الثلاثين من أغسطس من
عام ١٩٧٣ . . . وعند وصولي إلى الفندق ، وجدت حافظة بها برنامج
المؤتمر ، فتصفحته في الحال ، كما دتي في أخذ هذه المؤتمرات بجدية تامة ،
من بدايتها إلى نهايتها . . . وتبينت أن ندوة - سموها « ندوة ما قبل المؤتمر » -
على وشك الانعقاد في مقر المؤتمر في مستشفى « هاسيتيب » . من الساعة
الثانية إلى الساعة السادسة مساء . وقرأت أسماء المتحدثين في هذه الندوة
فإذا بها تبحث في مشكلات الطب الاجتماعي ومن بينها الطفل المتخلف ،
والطعوم الوقائية . . . وجدت بين الأسماء جهابذة من فرنسا أمثال
« سينيكال » ، الذي كثيراً ما زار مصر وكرس حياته لخدمة الطفل الإفريقي
في « داكار » وما يجاورها من البلدان . وقرأت اسم « مانسيو » و « ماندي »
من فرنسا أيضاً ، و « دو كسيادس » من اليونان والدكتور « جمال حرفوش »

من لبنان ، و « تيزى » و « برنان » من تركيا . . . فهرعت فى سيارة أجرة إلى هناك ، لألتقط المزيد من المعلومات فى موضوع يهمنى جداً ، وهو التطورات فى استعمال طعوم الوقاية فى مختلف الأمراض. وقد ألقى البحث البروفسور « ريمون » ، واستخلصت منه — وأنا أنصت إليه فى متابعة لا تخلو من متعة — النقاط الآتية :

أولاً : إن الإصابة بمرض شلل الأطفال قد هبطت هبوطاً هائلاً ، نتيجة استعمال الطعم الواقى . فنجد تعميم استعماله ، لم يحدث غير مائتى (٢٠٠) حالة سنوياً ، فى ٢٤ من البلدان المتمدينة ، ومن بينها الولايات المتحدة ودول أوروبا وأستراليا ، فهمست لنفسى وأنا أنصت فى دهشة : ما بالنا ونحن نستقبل — بالرغم من تعميم استعمال الطعم الواقى فى حدود إمكانياتنا — آلاف الحالات سنوياً ، فى عياداتنا الخاصة والمستشفيات الحكومية وغير الحكومية .

ثانياً : سمعت واقعة طريفة عن طعم السعال الديكى ، عندما قرر الأستاذ « ماندى » أن الطعم قد ينتج ظاهرة شبيهة بالسعال الديكى ، بعد انقضاء أسبوعين أو ثلاثة على الحقنة . . ويسمونه سعالاً ديكياً صناعياً ، ولا علاقة له مطلقاً بالمرض الأصلى . وهذا طبعاً قد يغرى والذى الطفل على عدم تطعيم قيمة أولادهما ، اعتقاداً منهما بعدم فائدته ... وقد ينشرون الإشاعة بين العائلات المحيطة بهم ، ويسيتون إلى سمعة الطعم الواقى دون مبرر :



المؤلف مع الدكتورة لمياء زكى رئيسة وفد العراق والدكتورة زهيرة عابدين

ثالثاً : تكون الفترة بين حقن الطعم المثلث (الدفتريا والسعال الديكي والتتانوس) شهراً ، ويمكن زيادتها إلى شهرين دون ما ضرر .
ويحسن أن يكون عدد الحقن ثلاثاً ، لأن المناعة في مثل هذه الحالة تكون أقوى بكثير من نظام الحقنتين . أما الحقنة المنشطة لتدعيم المناعة ، فيجب إعطاؤها خلال السنة الثانية من عمر الطفل .

رابعاً : تعطى حقنة طعم الحصبة بين الشهرين التاسع والثاني عشر من عمر الطفل . ويعطون في الولايات المتحدة — حسب توجيهات أكاديمية طب الأطفال الأمريكية — جرعة ثانية خلال السنة الثانية من العمر .

خامساً : إن فاعلية طعم « الكوليرا » لا تزيد على خمسين في المائة ، وإن المناعة الناتجة عنه لا تزيد مدتها على ستة أشهر .

سادساً : إن هناك طعومات تجمع بين عناصر عدة : فمنها ما يجمع بين الدرن والجدرى ، وما يجمع بين الدرن والحمى الصفراء والحصبة والجدرى . . . وهذا يستعمل خاصة في البلدان الإفريقية . والملاحظ عموماً أن الخاط بين الطعوم المختلفة في جرعة واحدة ، يقلل من مفعول واحد من عناصرها أو أكثر .

سابعاً : نجح الباحثون أخيراً في تحضير طعم مضاد للحمى الشوكية الخفية ، ولكن ضد الفصيلة (١) وليس ضد الفصيلة (ب) من الجرثومة .

ثامناً : تمكن الباحثون أخيراً من تحضير طعم ضد الحصبة والحصبة الألمانية معاً ، وتكفى حقنة واحدة منه . . . ولو أنه يحسن إعطاء حقنة منشطة ، بعد مضي سنة من الحقنة الأولى .

* * *

لا بد أن أنوره في هذا المجال بالوجوه المصرية الحبيبة ، التي أقبلت - على مدى الأعوام - على ارتياد مؤتمرات طب الأطفال الإقايمية أو الدولية . كنت في بادئ الأمر ، أجد نفسي وحيداً بين أبناء الفرنجة والهند والباكستان والصين واليابان وغيرها من البلدان ، ثم فوجئت في عام ١٩٥٦ بالدكتور « ممدوح حنفي » والدكتور « رياض ناشد » يزاملاني في حضور مؤتمر الطفولة الدولي بكونهاجن . وكانت الصحبة جميلة ، وبهجة . وفي عام ١٩٥٧ رافقتي الدكتور « أحمد شفيق عباس » إلى مؤتمر شال الأطفال الدولي الثالث الذي انعقد في جنيف والذي كانت أيامه خالدة ، وشاهدنا « سولك » - مكتشف الطعم المضاد - لشال الأطفال عن طريق الحقن - في عثفوانه ، يخاطر في طرقات المؤتمر مزهواً فخوراً ، راكن في أدب وتواضع جديرين بعالم مثله ، وبدأ « سابين » يتحدث عن الطعم المضاد عن طريق الفم باعتباره طعم المستقبل . . . وينصت إليه « سولك » في هدوء ، حتى إذا جاء عام ١٩٦٠ ، رافقتي إلى المؤتمر الرابع الدكتور « إمام زغلول » . وشاهدنا أفول نجم « سولك » ، ورأينا « سابين » يتحدث عن الطعم المسمى باسمه - والذي يعطى عن طريق الفم ، فيكسب الجولة بالضربة القاضية - وينحني « سولك » إلى الأبد ، ولكن بعد أن خلد اسمه كأول مكتشف لأول

طعم مضاد لهذا الداء الوبيل .

وأخذت القافلة تتضخم عاماً بعد عام . ففي مؤتمر يال - في عام ١٩٥٩ كانت معى الدكتورة «نعمت هاشم» ... وفي أندونيسيا زاملنى الدكتور «على عبد العال» و «ممدوح حنى» و «زهيرة عابدين» فى المؤتمر الآسيوى الأفريقى الثالث ، الذى انعقد فى أغسطس من عام ١٩٦٤... وفى لشبونة عام ١٩٦٢ - كانت القافلة كبيرة ضمت «ممدوح جبر» و «صلاح عواد» و «على عبد العال» . . . وفى كل لحظة وصول - أعنى كل مؤتمر جديد - كان ثمة ركاب جدد ينضمون ، حتى بلغ العدد فى مؤتمر أنقرة ، الذى أتحدث عنه ، حوالى الثلاثين من الأطباء المصريين . وإذا كان واجباً على أستاذ الجامعة أن يرتاد المؤتمرات بأى ثمن وبأية تضحية ، فإنى لا أنسى أن أنه بمواظبة الصديقيين الدكتور «نجيب زكى بطرس» ، والدكتور «رؤوف» ناشد - من أطباء وزارة الصحة - على حضور كل المؤتمرات فى السنوات العشر الأخيرة ورأيت - فى أنقرة للمرة الأولى - الدكتور «محى الدين الجارحى» أخصائى الأطفال بالمنيا . وإنى لأشعر بسعادة كبيرة عندما أرى الوعى المؤتمرى - كما أسميه - ينتشر بين الزملاء ، فلست تتخيل شعور الألفة الذى ينمو بينك وبين زميل فى بلاد الغربة .

ونظرة واحدة إلى الصورة المنشورة مع هذه السطور التى التقطت فى سبتمبر الماضى - تثبت لك صدق قولى . فها أنا ذا جالس فى غاية الانشراح بين زملائى الأستاذ عبد الغنى وشاحى - الجالس إلى يسارى - والدكتور «هاشم الدباغ» السعودى الجنسية والجالس إلى يمينى ، وأمامى الدكتور



امام باب الموقر ، من ائمة الكاتورة جميل والى - عبد النبي وشاحي - زهرة عابدين -
روزوف ناشد - ليلى زكي - علي عبد المال

« رؤوف ناشد » يناقش الدكتورة « زهيرة عابدين » — السيدة الوحيدة في الصورة — وإلى يمينه زوجها الأستاذ « الدكتور عبد المنعم أبو الفضل » ... بينما جلس إلى يسارها الدكتور « مهدي الباسوسى » ، رئيس قسم الأطفال طب المنصورة .

ولمهدى الباسوسى عندى معزة خاصة (بتشديد الزاى وفتح الميم لا بكسر الميم وتسكين العين) لأنه بنى مجده بيديه العصاميتين . لم يكن نائباً في قسم أطفال جامعى ، ولكننا قابلناه جميعاً وهو نائب مقيم في مستشفى الجمهورية بالحلمية الجديدة بالقاهرة . وكنا نحن — أساتذة الأطفال بالجامعات — نرسل حالاتنا التى تحتاج لعناية خاصة إلى هذا المستشفى الأصيل ، فكنا — بطبيعة الحال — نقابل نائب القسم . فنجدّه شاباً مهذباً ، دائم الابتسامة في جدية ورسامة ، يسرد تاريخ الحالة بتفصيل مركز ، ويصف لك العلامات والأعراض في دقة بالغة ، مما يجعلك تعجب في نفسك مما يدعو إلى أن تحرم الجامعات من شاب كهذا ، يصلح لأن يكون مدرساً قديراً .

وتدرّج الشاب العصامى في دراساته العليا ، فحصل على دبلوم طب الأطفال ، ثم حصل على الدكتوراه بعد تعثر لبضع سنوات ، وهو تعثر يصادفه زملاؤه من نواب ومعيدى أقسام الأطفال بالجامعات عادة ، وتصادف إذ ذاك افتتاح كلية طب المنصورة ، فعرضت عليه أن يذهب إلى هناك ، ليضع اللبنة الأولى في القسم ويرفع لواء طب الأطفال بمحافظته الدقهلية ، متمثلاً بقول المرحوم الدكتور « على باشا إبراهيم » الذى يتلخص في

الكلمات الآتية : أن تكون الأول في قرية ، خير من أن تكون الثاني في المدينة ! . . وأطاع الشاب دون تردد ، كما يطيع الجندي قائده ، ولع في محافظة الدقهلية ، وأنشأ مدرسة لطب الأطفال من مساعديه « محمد حافظ » و « أحمد خشبة » . . . والبقية تأتي .

* * *

أعود لصلب المؤتمر ، فأقول إنه من أنشط المؤتمرات التي ساهمت فيها . . . وكانت الجلسات تبدأ في الثامنة والرابع من كل صباح . فكان علينا أن نصحو مبكرين ، ونتجول مسرعين — دون أن نلهث — من قاعة إلى أخرى ، حسب أهمية الموضوعات أو لنجامل زميلاً مصرياً حان موعد إلقاء محاضرتة . وكان في ذلك نوع من الترابط العجيب بين الرملاء المصريين الذين صالوا وجالوا بحث في أبحاثهم عالية المستوى ، ولع « عبد الحليم شحاته » و « رشاد صقر » و « ممدوح جبر » و « محمود العيسوي » و « زهيرة عابدين » و « حسين كامل بهاء الدين » و « عادل لطفى » وزوجته « جيلان عبد الحميد » و « أحمد أبو الحسن » و « صلاح نصار » و « محمد خليل عبد الخالق » و « خليل الديوانى » و « عبد الغنى وشاحى » . ورأس « على عبد العال » إحدى الجلسات الهامة . ومن الإسكندرية برز الدكتور « شفيق عباسى » : و « ممدوح حنفى » و « جلال عارف » . ومن جامعة « عين شمس » أيضاً لمع الدكتور « محمد ربيع الظواهري » الذى أتى أربعة أبحاث هامة ، كان أهمها — بالنسبة لى — هو تحضير أقراس « البتسلىن » التى تحتوى على مليون وحدة ، وقيمتها

الوقائية في حالات الروماتيزم وقيمتها العلاجية في غير الروماتيزم . . . وكذلك البحث الذى ناقش فيه القيمة الغذائية :

وكان صباح يوم ٢ سبتمبر - من عام ١٩٧٣ - من أسعد أيام حياتى فلقد عقد مؤتمر دائرة مستديرة Round Table ناقش الحمى الروماتيزمية من كل زواياها التشخيصية والعلاجية والوقائية. وكان أول المتحدثين الدكتور « حسين كامل بهاء الدين » ، الأستاذ المساعد بقسم الأطفال بطب القاهرة . وكان قمة فى طريقة عرضه وتلخيصه وتركيزه لموضوع معقد . لقد كان « حسين » مدرساً لامعاً فى قسم الأطفال ، وكان له نشاط اجتماعى خارق فى مجال الشباب ومعسكراته ، منذ بدأت ثورتنا المباركة ، فلفت إليه الأنظار وأخذ يتدرج فى مراكز القيادة حتى عين أميناً للشباب فهجر التدريس إلى حين . . . وكنت أشعر دائماً بالخسارة التى منى بها قسم الأطفال ، ولكنه عاد إلى الخطيرة بعد سنين قليلة ، فالذى يتلوق رسالة المدرس لا يسلوها أبداً . والطبيب منا سرعان ما يراكم الصلداً عليه ، إذا انحرف ولو إلى طريق أحسن وأكثر راحة . ولكن حسيناً سرعان ما تأقلم من جديد لرسالته الأصلية ، وداوم الدراسة والبحث ، حتى بلغ المستوى الرفيع الذى شاهدته عليه فى مؤتمر أنقرة :

وبتلخص بحثه القيم - الذى استغرق بضع سنوات - فى أنه وجد فى حالات الروماتيزم نقصاً ملحوظاً وواضحاً فى مادة دهنية فوسفورية تدعى « ليزوليسيتين » Lyso Lecithin فى دم الأطفال المصابين بالروماتيزم ، وتقدم بنظرية جديدة. بأن الروماتيزم قد يكون نتيجة خطأ خلقى فى التمثيل

الغذائي . كما أثبت أيضاً أن فقر الدم عند المصابين بالروماتيزم ليس ناجماً عن نقص الحديد في الدم ، وإنما عن نقص المواد البروتينية الحاملة للحديد ، والتي تصنع في الكبد ، واسمها الترانسفيرين Transferrin وتحديث أيضاً عن بحث آخر له عن تغيرات تحدث في الدم ، تساعد على التشخيص المبكر الدقيق ، وأهمها زيادة « الجاما جلوبيولين M » ، وخاصة في الحالات التي تصيب القلب .

واستمعت بعد ذلك إلى الدكتور « تونكالي » - وكيل جامعة أنقرة - يتحدث عن وسائل التشخيص ، مؤكداً أهمية الروماتيزم كسبب للرعاف (نزيف الأنف) ، وألم البطن المتكرر ، وأن آلام المفاصل غير المصحوبة بورم وإصرار ظاهرين هي أقل العوارض أهمية في التشخيص ، بعكس الاعتقاد السائد . فهناك آلام النمو في الأطفال الكبار ، وجميع الحميات خاصة الأنفلونزا ، والإصابات الطفيفة غير الملحوظة .

ولفت النظر إلى أن أي سرعة ترسيب تزيد على ٦٠ في الساعة الثانية ، تشير في الغالب إلى احتمال الروماتيزم ، إذا ما توافقت العوارض الأخرى : وهناك عوامل تعوق ارتفاع سرعة الترسيب ، مثل هبوط القلب ، وأعراض الكبد ، وتباطؤ « الكورتيزون » .

ونصح بضرورة عمل مزرعة من الزدر في حالات إصابة الأطفال الذين يتناولون جرعات وقائية منتظمة من البنسلين ، وذلك خشية أن يكون هناك جراثيم عنقودية Staphylocoeci مفرزة لحميرة « البنسلينيز » التي توقف مفعول البنسلين . . . وفي هذه الحالة تعالج هذه الجراثيم

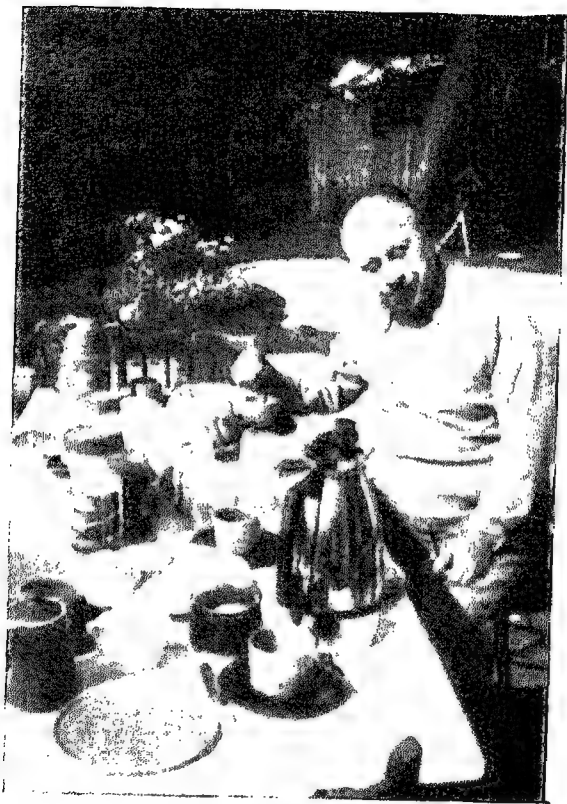
مضادات حيوية أخرى . مثل « الازثروميسين » Erythromycin و « البروستافيلين » ، والديكلوسيل « Diclocil . وهكذا تجولنا خلال ساعتين مركّبتين في آفاق عالية من البحث وراء أسرار هذا المرض اللعين وهو الذى يقولون عنه إنه يلعق المفاصل ولكن يعض القلب شأنه شأن الأفعى الملساء .

* * *

وأخيراً . من حقى على نفسى — وأنا الذى أكتب كل هذه السطور — أن أخصص بضعة منها للبحث الذى ألقينته فى نفس المؤتمر ، وهو عن « أنيميا البحر المتوسط » . التى لم أمل البحث وراء طلاسمها ، منذ اكتشفت الحالة الأولى فى مصر عام ١٩٣٨ . وكنت ألتقى فى كل المؤتمرات — التى حضرتها — البحث تلو البحث . وتدرّجت معها خطوة خطوة ، وهى تريد على الأيام وضوحاً . . . بل عموضاً كذلك هداها الله لنا ، حتى تستسلم رافعة الراية البيضاء . بعد أن قضيت أعواماً طويلة ألث وراءها مع زملائى « ممدوح جبر » و « نوال مختار » و « أنيسة الحفنى » . . . وكان البحث هذه المرة عن : النتائج التى يؤدى إليها إزالة الطحال المتضخم ، فى هذا النوع من فقر الدم .

وبحث هذه الجولة يتلخص فى المقارنة بين عمر كريات الدم الحمراء ، قبل وبعد عملية إزالة الطحال . . . وكذلك مقدار الحاجة إلى عملية نقل الدم بعد الجراحة وقبلها . فقد وجدنا أن « الهيموجلوبين » — فى الحالات الشديدة — يتراوح بين ٤ و ٦ جرامات فى المائة ، وأن الحاجة تدعو إلى

٧٩



المؤلف في إحدى ضواحي (هامبورج)
يتمتع بشمس الصباح في منزل ريفي

لإجراء نقل دم مرة أو مرتين في الشهر ، على الأقل ، ليثبت عند هذا المستوى . أما بعد إزالة الطحال ، فقد وجدنا أن المدة بين عمليات نقل الدم تزيد إلى شهرين أو ثلاثة ، بل إن حالتين — من الحالات التي أجرينا عليها البحث — لم تحتاجا إلى نقل دم ، خلال ٨ أشهر بعد العملية ، كما زاد عمر الكرية الحمراء زيادة ملحوظة بعد العملية .

وقد استخلصنا من هذا أن الطحال المتضخم يزيد من شدة « الأنيميا » بطرق عدة ، فهو يلتهم الكريات التهاماً ، يملأ بها جيوبه ، ليزيد من ضخامته . . . أو أنه قد يحطمها دون رحمة ، ثم ينبذها مع الحديد المتخلف منها ، فتتركز في خلايا الجسم الحيوية ، مثل القلب والكبد ونخاع العظام ، فيهرقها . . . أو يتضخم القلب والكبد ، ويعجز النخاع عن العمل ، وهو المعمل الهام في تصنيع الكريات الحمراء — فتزيد الحالة سوءاً . لذا كان من أهم وسائل العلاج التي أجريناها في بحث سابق — منذ خمس سنوات — هو حقن الطفل بمادة « الديسفرال » Desferal التي تحول دون ترسيب الحديد في أجزاء الجسم المختلفة . ولقد ثبت أن هذا العقار يجب حقنه أيضاً مع كل عملية نقل الدم ، لأن الذي يصيب دم الطفل ، يحدث أيضاً لدم المتطوع فيترسب مزيد من الحديد في الخلايا المرهقة بشحنها .

ويكفي هذا القدر عن مؤتمر أنقرة ، فن المستحيل تلخيص مئات الأبحاث عالية المستوى ، التي أقيمت هناك . . .

« أنيميا البحر المتوسط » في مؤتمر طهران

كنا على موعد مع طهران هذا العام لحضور مؤتمر الطفولة الإقليمي السابع . وصادف موعد انعقاده عودة العلاقات الدبلوماسية بين جمهورية مصر العربية وإيران ، فوجدنا عند وصولنا جواً مليئاً بالحبّة وروح الزمالة الحقة . وما أبدع أن يسرد الزّمام الشعوب المتجاورة ! .
لقد رأينا شعباً متمدينًا ، ومدينة — وهي طهران — تعتبر صورة مشرفة للمدينة الشرقية التي امتزجت في انسجام وتوافق بكل ما في المدينة الغربية من ميزات .

وأنا الآن — إذ أسرد ملاحظاتي عن أحداث المؤتمرات العلمية — سأقتصر على ما قلته بنفسى ، فأنا به كفيل وعن كل كلمة مسئول ، وسوف أتكلّم عن كل ما أعتقدّه طريفاً بما قاله زملاء من غير بلدى ، تاركاً لكل زميل تشرف بتمثيل مصر أن يسرد بحثّه مفصلاً ، علّه يفيد أفراد الشعب من الأطباء ومن غير الأطباء ، وليثل هذا فليتنافس المتنافسون.
كان حديثي في المؤتمر يشمل زاوية غير مظلمة عن عرض « التلاسيميا » أو « أنيميا البحر المتوسط » ، وهي التي مضيت في البحث ، عما خفي منها ، منذ اكتشفت الحالة الأولى في الجمهورية في أواخر عام ١٩٣٧ . . .
وكانت تلك الحالة في طفلة يونانية أرسلها المرحوم الدكتور « على باشا إبراهيم »

بخطاب توصية إلى المرحوم الدكتور « إبراهيم شرقى باشا » ، الذى حوّلها بدوره إلى . . . فقد كنت لتوى عائداً من بعثة التخصص فى « أنيميا الأطفال » فى إنجلترا . فأدركت فى الحال - ودون جهد - وأنا أتسلم الطفلة وخطاب التوصية من والدها اليونانى ، أنها أول حالة من مرض « التلاسيميا » اكتشفت فى مصر . . فقد راعنى وجهها « المنجولى » ، وصفرة جلدها الشديدة ، حتى إننى بادرت بدسّ يدى تحت ملابسها الداخلية ، وهى واقفة ، لأننا أكد من وجود الطحال المتضخم ، الذى يعتبر من أهم مميزات المرض .

وكنّا بعد واقفين فى ردهة المستشفى المؤدية إلى المعمل ، فأخذتها - وأنا جد مغتبط - إلى رئيس المعمل الدكتور « على عمر » وأخذنا عينات من دمها . وكنت أتمم لزميلى - طبابة الوقت - أن هذه أول حالة من حالات « أنيميا كولى » - وكانت تسمى بهذا الاسم إذ ذلك *Coley's anaemia* - فى مصر .

وأثبت الفحص المعملى صدق حدسنا ، فكانت فرحتنا بها كبيرة ، والتقطنا صوراً بالأشعة للجهاز العظمى للطفلة سواء الجمجمة ، وأطراف العظام الطويلة ، واليدين والأصابع ، فوجدنا بها كل مقومات التشخيص الصحيح لهذه الحالات .

وبدأت هذه الحالة « مدرسة الأنيميا » فى قسم الأطفال ، وأصبح اكتشاف أمثالها سهلاً فى الأطفال المصريين ، وسهل تشخيصها الإكلينيكي فى جميع المستويات التعليمية ، وأصبح طالب البكالوريوس قادراً على

تشخيصها في سهولة ويسر ، إذا عرضت عليه في الامتحان . . . بعد أن كان يكتنفها الغموض القاتل ، وكانت تعنتي وراءها تشخيصات شاع استعمالها في أيام شابنا ، مثل تضخم الطحال المصري . .

* * *

ولقد أصبحت هذه « الأنيميا » (كولي) موضع تدليل الاختصاصيين في أمراض الدم في مختلف أنحاء العالم ، فقسموها إلى نوعين : العظمى Minor والصغرى Major ، وذلك حسب شدة الأعراض ، ونسبة « الهيموجلوبين » الجيني ، وهو الذي يخفى عادة من دم الطفل الطبيعي بعد أسابيع قليلة من ولادته ، ولكنه في « أنيميا البحر المتوسط » يوجد بنسبة عالية — قد تصل إلى ٦٠ في المائة طوال حياة المريض .

وتكوّنت نواة من الباحثين المصريين لسبر غور هذا المرض ، تضمني والدكاترة « ممدوح جبر » و « نوال مختار » و « أنيسة الحفنى » . وقد بلغنا في أبحاثنا شأواً لا بأس به . لفت الأنظار إلى درجة أن معهد الأبحاث الأهلى بواشنطن قرر لنا منحة سنوية ، خلال سبع السنوات الأخيرة ، مكنتنا من تكوين وحدة لأمراض الدم كاملة الاستعداد بالأجهزة الحديثة ، فاستطعنا بالمثابرة والدأب أن نجعلها أحد المراجع العالمية في مرض « التلاسيميا » وغيره من أنواع فقر الدم في الأطفال المصريين . ولكن متابعتنا لأنيميا البحر المتوسط — أو « التلاسيميا » أو مرض « كولي » — كانت — هدفنا الأول ، وكنا نهانها أحياناً لنطرق بحثاً في مرض جديد ، ولكن كنا نفق فجأة ، ونقول : « أين ذهب ملك الجراثيم ؟ . . » ونعود ثانية لتقصي

ما غمض من أحوال غريما الأول .

وتساءلنا ذات يوم ، مع السائلين من جميع أنحاء العالم ، ما هو السلاح القاتل الكامن في هذا المرض الذى يلزم الطفل وهو جنين ، ويرافقه حتى يقضى عليه بعد سنوات قد تطول إلى الثلاثين عدداً ، كما حدث في بعض الحالات التى تضمنتها مجموعتنا الكبيرة . . . لقد اعتدنا أن نوالى الطفل بعمليات نقل الدم المتوالية ، كلما اشتدت حدة المرض . وجربنا عملية إزالة الطحال المتضخم في كثير من الحالات ، وساعدنا في هذا المجال الدكتور « عادل لطفى » أستاذ جراحة الأطفال المساعد بمستشفى المنيرة الجامعى . وتوصلنا إلى نتائج مشجعة ، أهمها أن الحاجة إلى نقل الدم تصبح بعد الجراحة أقل منها قبلها ، ولكن حالة ذوبان الكريات الحمراء ظلت مستمرة . . . بل إن الدم الذى نحقنه في وريد المريض ، لإنقاذه من النكسات الحادة ، كان يتحلل هو الآخر ، ويترسب الحديد الناتج عن هذه العملية المعقدة في أنسجة الأعضاء الحيوية: كالقلب والكبد والبنكرياس ، فأنت إذا أجريت فحصاً بالأشعة للقلب ، وجدته متضخماً غاية التضخم ، وإذا جسست الكبد بيدك الحانية ، وجدته متليفاً Cirrhosis . وناهيك بغدة البنكرياس وما يجرى بها من ترسب الحديد (الهيموسيدرين) في جزيرات « لانجهام » ، مما قد يعرض المريض للإصابة بالبول السكرى ، كما حدث في بعض الحالات في مجموعتنا .

• • •

هرش علماء الكيمياء جباههم النيرة باحثين عن عقار يشد الحديد

إليه ، ويفرزوه معه في البول ، وبهذا يحول دون ترسيبه في الأنسجة الحيوية . وقد نجحت شركة (سيبا) في اكتشاف « الديسفرال » ، وجربنا العقار الساحر الحديد : ممدوح جبر ، وأنيسة الحفنى ، ونوال مختار ، وأنا ، في ١٣ حالة ، بحقنة في العضل أو الوريد ، بمقدار جرام واحد في اليوم ، فوجدنا زيادة في إفراز الحديد في البول قد تزيد بما يصل إلى أربعة عشر ضعفاً عن الحالات التي لا تتناول العقار على أنه يجب الاستمرار دون انقطاع في إعطاء حقنة - مرتين في الأسبوع على الأقل - حتى نضمن مفعوله في وقف تدمير المريض . ويجب أيضاً حقنه مع كل عملية نقل دم إذا دعت الحاجة إليها .

وعقار « الديسفرال » غالى الثمن ، ولو أنه مثالى في ثنائه ، من حيث نزع الحديد المتراكم في جسم المريض ، فيريح الخلايا من عبء ثقيل هي في غنى عنه . . . فهاهو القلب قد استراح فانكمش بعد تضخم ، والكبد أيضاً عاد إلى حالته الطبيعية بعد أن كان مهدداً بالتليف الأبدي والبنكرياس ، ماذا دهاها ؟ .

لقد اكتشفنا في مجموعتنا حالتين مصابتين بمرض البول السكري ، مما يدل على الأثر السيئ الناتج عن ترسب الحديد في « البنكرياس . . . » . هذه الغدة التي تعتبر المسئولة الأولى عن تمثيل « الكربوهيدرات » في الجسم . وكان هذا الكشف حافزاً على التعمق في هذا الاتجاه باطراد ودأب ... فلما تقدم أحد تلاميذى ، وهو الدكتور « محمود الموجى » المعيد بقسم الأطفال بكلية طب الأزهر ، بطلب أن نقترح عليه موضوع بحث لرسالة دكتوراه

فى طب الأطفال خطر لنا - الدكتور « ممدوح جبر » وأنا - أن نقترح عليه أن يجرى بحثاً عن « أبص الكربوهيدرات » (أى قدرة الجسم على التصرف فيها) فى مرض « الثلاثيميا » .

وشمر الطيب الشاب عن ساعديه، وأفسحنا له المجال فى وحدة أمراض الدم التى رأسها ، بكل معداتها وأجهزتها النادرة . . وتوصل بعد أبحاث طويلة إلى نتائج تغتبط لها النفس... فقد أثبت أن هناك قصوراً واضحاً فى « أبص الكربوهيدرات » فى كل حالات اثلاثيميا التى كانت موضوع البحث ، إذ وجد أنه بعد تناول المريض جرعة « الجلوكوز - سواء عن طريق الفم أو الوريد - يرتفع منسوب السكر فى الدم إلى مستويات أعلى منها فى الشخص السليم ، كما يستغرق رجوعه إلى المستوى الطبيعى مدة أطول .. وهذا يشبه تماماً ما يحدث لدى مرضى البول السكرى. وقد وجد أن حقن « الأنسولين » مع « الجلوكوز » فى نفس الوقت - يؤدى إلى تحسن واضح فى الرسم البياني ، ويعود به بسرعة إلى المستوى الطبيعى .

وقد استخلصنا من هذه النتائج أن هناك قصوراً فى إفراز « الأنسولين » من غدة « البنكرياس » المثقلة بالحديد المتراكم فى خلاياها ، وأنه يجب اعتبار الطفل مريض « الثلاثيميا » (أى أنيميا البحر المتوسط) معرضاً - إن عاجلاً أو آجلاً - للإصابة بالبول السكرى ، ويجب أن يعامل حتى هذا الأساس من حيث نظام غذائه . . . بل يجب إعطاؤه جرعة من « الأنسولين » إذا أثبت الفحص المعمل أن هناك اضطراباً فى « الأبص الكربوهيدراتى » ، كما ذكرنا قبل بضعة أسطر .

وقد وقف بجانب الدكتور « الموجى » - وهو دائب فى هذا البحث
المتع - الأستاذ الدكتور « زكى بركات » والدكتور « خليل الديوانى » من
كلية طب الأزهر .

كان هذا ملخص البحث الذى ألقينته فى مؤتمر الطفولة بطهران ،
نيابة عن زملائى الأعزاء الذين كان لهم الفضل الأول ، إذ توصلوا لهذه
النتائج المهمة بعد جهد لا ينكر . ونسأل بعد كل هذا ، هل حلت
عقدة التلاسييميا ؟ ؟ .

فى اعتقادى أن الرحلة التى بدأتها منذ ثلاثة وثلاثين عاماً لم تنته بعد . .
والذين غاصت أقداهم فى الرمال مثلى ، وهم يتابعون القافلة بأمل الوصول
إلى الواحة ذات الظل الوارف ، ينطبق عليهم قول الشاعر :

أكلما راح قيد جاء قيد رب أين المفر ؟

فنحن أمامنا كمنخرج من الممر الضيق الطويل - الذى قد يؤدى إلى
الشفاء الجزئى - وسائل عدة ، وهى : إزالة الطحال ، وتناول جرعة من
حمض الفوليك Folic acid مدى الحياة - لعله يفيد فى تحويل إنتاج
النخاع العظمى المنحرف إلى الطريق الصواب - وتناول عقار « الـسفرال »
عن طريق الحقن ، وبذل الجهد لوقاية المريض من مرض البول السكرى
وتليف الكبد ، وإسعافه بعملية نقل الدم كلما انتابته نكسة حادة قد
تصل بمستوى « الهيموجلوبين » إلى عشرين فى المائة أو أقل . . . وبهذه
الوسائل يمكن للمريض أن يعيش أى عدد من السنين قسم له الله أن يعيشها .

أنيميا الفول . . فى المكسيك

التقطنى أحد الصحفيين المتيمين إلى إحدى الدور الصحفية الكبيرة بمصر عقب عودتى من مؤتمر الطفولة الدولى الذى عقد فى المكسيك ، وأخذ يستدرجنى فى الحديث عن موضوع المحاضرة التى ألقيتها فى ذلك المؤتمر ، وكانت تتعلق بفقر الدم الحاد ، الذى يعقب تعاطى الفول — سواء المدمس منه أو الأخضر (الحراى) أو السودانى — وغيره من البقول الشائعة كغذاء فى بلادنا وغير بلادنا . ومن عادى أن أخذ حيطى مع الصحفيين غير العلميين ، فلم أتردد فى الإفصاح له عن خوفى من التحريف ، لا سيما أننى موضع ثقة واسعة القاعدة مع معظم الآباء والأمهات ، وأخذت أمليه كلمة كلمة ، وراجعت معه ما كتب ، وحذرته من التحريف حتى لا يثير فزعاً بين الوالدين . وعلنى بذلك .

لكنى فوجئت بعنوان ضخم فى الجريدة المحترمة الواسعة الانتشار ، يقول : « ٢,٨ ٪ من أطفال مصر يموتون من الفول المدمس والطعمية ... فتملك الوهم ذهن القارئ ... بالرغم من أن الكاتب — ساعه الله — أردف يقول :

« ليس كل الأطفال طبعاً ، ولكن هذه الأنيميا الحادة تصيب الأطفال الذين ينقصهم وجود إحدى الحماثر الموجودة فى الكريات الحمراء ،

وهى سادس فوسفات الجلوكونز. : إذ يؤدي تناول الفول المدمس والطعمية — عند هذا الصنف من الأطفال — إلى حدوث فقر دم حاد يقتل الطفل فى لحات ، مالم يسعف بعملية نقل الدم وتعاطى مركبات الكورتيزون . . . » ولقد ذكر الصحفي أن نسبة الأطفال المصريين المصابين بنقص هذه الحميرة تبلغ ٢٨ ٪ ، لكنه — ساعه الله — لم يذكر ما أملتته عليه ، من أن ظاهرة نقص الحميرة لا تؤدي إلى حدوث فقر الدم فى كل الحالات ، بل فى حالات خاصة فقط . .

وقامت الدنيا وقعدت ، وتوالى الاستفهامات التليفونية . . . وكانت لإجابتي على جميع المستفهامات محددة ، وهى : « لا تصدقوا كل ما كتب : ففيه تحريف صحفى مبالغ فيه ، وما دام طفلكم قد تعاطى الفول المدمس — ولو مرة واحدة — دون ظهور أعراض مرضية عليه ، فلا خوف عليه إطلاقاً » .

وكان هذا الجواب مطمئناً للأغلبية الساحقة . بيد أنه كانت هناك أقلية ضئيلة ، وجهت هذا السؤال المخرج : « وإذا لم يكن طفلى الصغير قد ذاق الفول المدمس من قبل فما حكمه ؟ » .

ولقد رأيت أن أنلخص — فى تفصيل واف — البحث الذى ألقيته فى المؤتمر الدولى الثانى عشر لأمراض الطفولة ، فى الساعة الخامسة والنصف من يوم الجمعة ٦ ديسمبر من عام ١٩٦٨ ، عن هذا الموضوع — ويسمى « بالفالغيزم » — وعن درجة انتشاره بين الأطفال المصريين ، كنتيجة لنقص خميرة « سادس فوسفات جلوكونز » ، التى سبقت الإشارة إليها . ونهت

إلى أن أثر نقص هذه الخميرة لا يقتصر على مسئوليته في تحليل الكريات الحمراء في حالات « الفافيزم » ، بل إنه يحدث أيضاً — في بعض الحالات — اليرقان الشديد في الطفل وأنواعاً أخرى من فقر الدم الخلقى... وليس القول المدمس المتهم الوحيد من أمرة البقول ، ولكن يقف معه جنباً إلى جنب في قفص الاتهام ، متهمون آخرون مثل : البسلة ، والحمص والأسبرج ، والرومان ، والخرشوف . . . ولكن القول المدمس يبدو في وسطها كالقمر بين الجوارى . وقد طغت تهرته في هذا المجال على غيره . ولقد ثبت أن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ أيام الفراعنة ، وأنها منتشرة في بلاد أخرى مجاورة في الشرقين الأوسط والأدنى .

* * *

أما الإحصائية الوحيدة التي عملت بقسم الأطفال بكلية طب جامعة القاهرة ، والتي وصلت بنا إلى رقم ٣,٣٤ في المائة — وهو الرقم الذى أحسنت الفرع الشديد بين الأمهات — فقد عملت على أساس أن عدد الحالات التي قبلت بالمستشفى للعلاج بلغ ٨٥ حالة ، خلال عام ١٩٦٧ ، من مجموع الحالات التي قبلت للعلاج من أمراض أخرى .

فالإحصائية إذن محلية جداً ، ولا يمكن أن تتخذ مقياساً ، فقد تزيد أو تنقص بقدر الحالات المثيلة ، التي تتردد على العيادات الخاصة أو المستشفيات الأخرى .

ولقد أمكن الخروج بالاستنتاجات الآتية ، من البحث الذى قمت به بالاشتراك مع الدكتور « ممدوح جبر » و « نوال مختار » و « محمد الدالى »...

أولاً : إن نقص الحميرة (سادس فوسفات الجولوكوز) لا يؤدي إلى فقر دم في كل الحالات ، بل هناك أطفال ينقصهم وجود هذه الحميرة ، ومع هذا فإنهم لا يصابون بأية أعراض حادة عند تناول الفول المدمس وأخواته ، أو بعض الأدوية مثل «السلفا» والمركبات المضادة للملاريا مثل «الكامكوين» و«البريماكين» . ويظهر أن هناك حساسية خاصة عند بعض الأطفال ، تجعلهم أكثر قابلية لحدوث هذه «الأنيميا» المزعجة .

ثانياً : قد يحدث هذا العارض عند تناول الفول المدمس لأول مرة ، ثم لا يحدث أبداً بعد ذلك ، وكأن الأطفال يكتسبون مناعة تقيهم حدوث نوبات أخرى في المستقبل .

ثالثاً : يندر حدوث هذه الظاهرة في الأطفال السود . أما النوع الأبيض القوقازي (وهو اصطلاح علمي يطلق على غير السود) فهم أكثر تأثراً بهذه الظاهرة .

رابعاً : إن الأعراض تظهر ، سواء في حالات تعاطى الفول المدمس أو الأخضر (الحراقي وهو أشدها خطراً) والفول السوداني . وكثيراً ما تعجب الأم ، وتقسم أن الفول المدمس لم يدخل جوف ابنها ، وتنسى أن هناك أنواعاً تسمى : (الأخضر) ، والسوداني الذي يحبه الأطفال حباً جمّاً . . . أسوة بالقردة ، والنسائيس ! !
خامساً : أكثر ما يحدث هذا المرض «الفافيزم» ، في السنوات الأولى من العمر ، فقد وجد أن ٨٥ في المائة — من الحالات التي

درسناها - يحدث في السنتين الأوليين من العمر ، وأن أكبر
الذين ظهرت عليهم أعراض المرض من الأطفال - لأول
مرة - كانوا في الثالثة والنصف من العمر .

سادساً : أكثر ما يحدث هذا المرض في الأطفال الذكور ، ونادراً
ما يحدث في البنات ، إلا إذا كان بالوالد نقص في خميرة
«سادس فوسفات الجلوكوز» علاوة على نفس النقص الموجود بدم
الأم ... وهذا دائم الحدوث سواء كان الطفل ذكراً أو أنثى .
أى أن الوراثة تأتي عن طريق الأم ، بالرغم من أن الظاهرة أكثر
حدوثاً في الأولاد الذكور ، وإذا كان الوالد يحمل نفس فصيلة
دم الأم ، فإن البنات يصبحن عرضة للمرض ، ويكون الوالد
بمثابة حامل للفصيلة الوراثية دون أن يكون قد ظهرت عليه
- في أية مرحلة من عمره - أعراض ما ، نتيجة تعاطى
القول المدمس

سابعاً : يكثر حدوث هذا المرض في أواخر الربيع وأوائل فصل الصيف ،
حين يشح المحصول المحلي ، ونبدأ في استيراد المحصول من الخارج .
وعلى هذا الأساس يمكن تهيئة القول المصرى إلى حد ما .

ثامناً : علاج هذه الحالات في متناول كل طبيب . فالحالات الشديدة
يجب إسعافها بعملية نقل الدم ، أما الحالات الخفيفة فيمكن
علاجها بمركبات «الكورتيزون» ، سواء عن طريق الفم أو
الحقن في العضل .

تاسعاً : ليس معنى حدوث حالة فى أسرة ما ، أن يحرم جميع من فى المنزل من أكلة الفول الشهية . : بل إن الطفل الذى يكون قد أصيب من قبل ، قد لا يتعرض ثانية للإصابة . وليس معنى أن يكون أحد إخوة المصاب بـ «الفافيزم» مصاباً بنقص فى الخميرة ، أنه لابد أن يكون مصاباً بنفس الداء . . .

عاشراً : يجب ملاحظة أى امتناع فى الوجه ، أو صفرة فى بياض العين ، أو دكنة فى لون البول . . فكل هذه أعراض تنذر بأن شيئاً ما آت فى الطريق . : وفى هذه الحالة يجب عرض الطفل على الطبيب الإخصائى :

ولإياك يا صديقى الطبيب أن تعطى مريضك مركبات الحديد ، فإن هذا يعتبر خطأ علاجياً فاحشاً ، لأن أنسجته وخلاياه تكون قد تشبعت مقدماً بالحديد المتراكم نتيجة تحليل كريات دمه الحمراء .

مقتطفات من مؤتمر الطفولة بباكستان

احتلت أبحاث فقر الدم مكاناً هاماً بين موضوعات المؤتمر الإفريقي الآسيوي للطفولة ، الذي عقد في « كراتشي » بالباكستان ، فيما بين ٢٠ و ٢٤ فبراير من عام ١٩٦٨ . . . فكانت هناك أبحاث عن « الأنيميا الحادة » التي تنتج عن تكسر كريات الدم الحمراء في سرعة مذهلة ، قد تصل بالطفل إلى حافة الهاوية في بضع ساعات ، ما لم يسعفه الطبيب المعالج بعملية نقل الدم وتناول مركبات « الكورتيزون » .

وعند هؤلاء الأطفال حساسية خاصة نحو الفول المدمس والبقول - وحذار من الفول السوداني و « النابت » أيضاً ، فكلها نصيلة واحدة ، ولها علاقة كبيرة ببعض مركبات السلفا - ومركبي « البرياكين » و « الكاوكين » المستعملين في علاج الملاريا . وقد يحدث هذا النوع من فقر الدم في أكثر من طفل في العائلة الواحدة ، لأن عامل الوراثة هام فيه* . . .

* في موضوع « مشاهدات في مؤتمر الطفولة بأنقرة » مزيد من التفصيلات عن هذه الأنيميا « والباحثين المصريين المعنيين بها . . لذلك نقنصر هنا على ما يتجاوز هذه التفصيلات .

وقد ثبت من البحوث أن هذه « الأنيميا » ظاهرة كثيرة الحدوث في مصر . لذا يجب تنبيه الآباء والأمهات إلى النقاط التي يتكثرون عليها لتجنب أطفالهم مخاطر المرض . فمثلا إذا انتاب الطفل شحوب وجأى ، يصل - في بضع ساعات - إلى بياض ورقة النشافة ناصع كيباض ورقة « النشاف » ، فاعلم أن ناقوس الخطر قد أخذ يدق بما لا يدع مجالا للتردد في عرضه على طبيب الاائلة ، الذي ينبغي عليه أن يتمعن في بضع ظواهر ، ما أسهل عليه من أن يلمحها إذا دقق الفحص ولو قليلا : وأولها : أن يفحص بياض العين للتأكد من عدم اصفرار لونه ، وأن يلاحظ الشحوب القاتل الذي ينتاب الطفل ، ودكنة لون البول بدرجة تلفت النظر ، لفرط وجود صبغة « البوروبيلانوجين » كما يميل لون البراز إلى الخضرة ، يعكس حالات الصفراء الاسنادادية ، حيث يميل لونه إلى البياض . وإذا فحصنا الدم ، اكتشفنا هبوط « الهيموجاوين » وعدد الكريات الحمراء إلى مستوى خفيف ، تد يصل بهما إلى ٢٠ في المائة أو أقل من المستوى الطبيعي ، مما يتطلب سرعة إسعاف الطفل بعملية نقل الدم وتناول مركبات « الكورتيزون » ، سواء عن طريق الفم أو حقن العضل .

وكان البحث الذي ألقاه كاتب هذه السطور عن مرض « التلاسيميا » باعثا على المزيد من النقاش والاستفسارات ، لاسيما فيما يتعلق بعلاج هذا المرض بطريقة إزالة الطحال وإعطاء حمض « الفوليك » ونقل الدم - حينما يقتضى

الأمر — ومنع ترسيب الحديد الناتج عن تكسر الكريات الحمراء . . .
وقد يترسب الحديد في خلايا المخ ، فينتج عن هذا أعراض عصبية
قد تصل إلى حد التخلف الذهني والتشنجات العصبية وغيرها .

ومن مميزات هذا المرض — علاوة على فقر الدم الشديد — تضخم
واضح في الطحال والكبد ، فضلا عن مميزات خاصة في كيميائيات الدم
وصور الأشعة للجسمجمة والعظام عامة . وكانت معظم الحالات تشخص
فيما مضى على أنها ضمن حالات تضخم الطحال المصري . وهو تشخيص
قلما نسمع عنه الآن ، لأن الحالات وزعت على تشخيصات أخرى
حديثة ، بفضل تقدم وسائل التشخيص المعملية .

* * *

وقد احتلت أمراض التغذية مكانها البارزة بين مواضيع المؤتمر ، وصالح
الوفد العربي في تفاصيل مرض « الكواشيوركير » وقد أجرت المدرسة
المصرية (الديوانى — شكرى حنفى — عواد) فيه أبحاثاً عالمية . وتحدث
الدكتور « فؤاد الشربيني » — نيابة عن الدكتور « ممدوح حنفى » — عن
قيمة الغذاء البروتينى فى الخضراوات والبقول ، والتوصل عن طريقها إلى
استحداث غذاء بروتينى يغنى عن اللحم واللبن ، مما يعود على البلاد بفوائد
اقتصادية جمة : . . وهذا الغذاء مكون من خليط من الحمص والبسلة

« فى موضوع « أنيميا البحر المتوسط » تفصيلات وافية عن هذا
المرض .

والسمسم بنسبة : ٣ : ٢ : ١ :

كما تكلم مندوب أندونيسيا الأستاذ « سودوجو » وزملاؤه عن مزايا مسحوق السمك المركز ، بعد إذالة رائحة السمك منه ، بطريقة خاصة . وذلك بإضافته إلى مسحوق الأرز . وقد جرب استعماله في اثني عشر طفلاً ، استجاب عشرة منهم بطريقة مرضية ، واضطر الباحثون إلى وقف استعماله في حالتين لإصابتهما بالإسهال . كذلك ألقى الدكتور « مقصود » على الباكستاني بحثاً عن أمثال هذه المحاولات التي يجب أن تؤخذ بنجدية في البلاد النامية والمتخلفة ، حيث يصعب على الفرد العادي أن يحصل على حاجته اليومية من البروتينات من اللبن واللحوم ، فيجب اللجوء إلى أمثال هذه الأغذية الرخيصة الثمن ، التي تبقى الطفل المواطن من التعرض لأمراض سوء التغذية وأنقصها مرض « الكواشيوركور » .

* * *

كذلك أولى المؤتمر النزلات المعوية اهتماماً ملحوظاً . . . ولعل أكثرها طرافة هو البحث الذي قام به الدكتور « حامد خان » وزميلته « زبيدة حسن » عن استعمال أحد مشتقات البنسلين — وهو الأمبيسلين — في علاج النزلات المعوية ، وخاصة في الحالات المتسببة عن ميكروبات « الشيجلا » ، و « باسل » القولون (شفاء ١٠٠٪ من الحالات) و « السلمونيلا » (٦٣٪) .

ونوقشت في المؤتمر موضوعات هامة ، مثل الحمى الروماتيزمية وأثر الوقاية منها . . . ولكنها تؤكد علاقاتها بالميكروبات السببية في الجلد (٤)

واللوزتين ، ومنع النكسات بحقن البنسلين الطويل الأجل :
 كذلك نوقشت مشاكل الطفل المتخلف عقلياً ، وقد استعرض أنواعها
 وأسبابها الدكتور « ضيف » - من كلية طب لا هوري - وبحث عن التهاب
 الكلية المزمن ، ألقاه الدكتور « محمد إبراهيم مأمون » الباكستاني ، وقد
 ركز على العلاج بمستحضر « الكورتيزون » - وهو الشائع في كل مكان -
 ونصح بالعلاج بجرعات كبيرة في الأسبوعين الأولين ، تخفض بعدها
 الجرعة . . . مع الاستمرار على هذا المنوال مدة تتراوح من ثلاثة إلى خمسة
 أشهر . . . ونوقش علاج التهاب السحايا الحاد بجرعات كبيرة من حقن
 « البنسلين » بمقدار جرام واحد ، أو حقن السلفا بمقدار جرام واحد ،
 أو أقراصها . . .

والحديث عن الموضوعات التي نوقشت قد يطول ، ولكن يجب ألا
 ينسينا ذلك الحفاوة البالغة والحب الأكيد ، اللذين أحاط بهما الباكستانيون
 إخوانهم أعضاء وفد جمهوريّة مصر العربيّة . . .

لقطات علمية في مؤتمر الطفولة بالمكسيك

عقد مؤتمر الطفولة الدولي الثاني عشر في المكسيك ، في الفترة ما بين ١ و ٧ ديسمبر ١٩٦٨ : وقد اعتدت أن أحضر هذه المؤتمرات الدولية منذ عام ١٩٥٦ ، عندما عقدت في « كيرينهاجن » ، عاصمة الدنمارك - ثم أخذ ينتقل بي من « مونتر يال » ، عاصمة كندا سنة ١٩٥٦ إلى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٩٦٢ . . . ثم « طوكيو » في عام ١٩٦٥ ، وأخيراً حملنا إلى بلاد المكسيك ، حيث نعمنا بجو صيفي معتدل . . .

كان الطريق إلى « المكسيك » طويلاً جداً ، ولكنني أحب أن أحرص الزملاء دائماً على اللحاق بقافلة العلم ، مهما تبعد الدار أو يشط المزار ، وأن ينهلوا من منابعها . . . وإلا فالويل لهم من الصلداً إذا تراكم على تلافيف أخضاجهم ! . . . لقد قطعت المسافة بين القاهرة وبروكسيل في سبع ساعات ماراً بأثينا وفيينا ، وتلكأت يومين في بروكسيل بغرض التقاط الأنفاس ، قبل استئناف رحلتي إلى « مونتر يال » بكندا عبر الأطلسي ، على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم فوق سطح البحر . . . وقد استغرق هذا العبور ثمانى ساعات . وبعد استراحة قصيرة في المطار ، استأنفنا رحلتنا إلى المكسيك مارين بسماء الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثمانى ساعات طوال ، تعرضنا خلالها لمطبات هوائية ، كانت الطائرة تهبط خلالها عدداً من الأمطار الله أعلم بها ، لأننا كنا نغمض أعيننا ، ونلقى رؤوسنا إلى الوراء ، حتى تمر الوعكة الطائرة بسلام :

وعندما هبطت الطائرة على أرض مطار المكسيك ، فى ساعة متأخرة من ليلة ٣٠ نوفمبر ١٩٦٨ ، تناسيت كل المتاعب التى صادفتنى خلال هذه الرحلة المضنية . وما دامت الطائرة قد لمست الأرض ، فأنت فى الأمان على أية حال . وتجيش فى صدرك الآمال بأن الغد قريب ، وسوف ترى بلاداً جديدة لها من مفاتها الجغرافية الجذابة ما تكتحل به عيناك ، فتضيف إلى رصيدك من الذكريات شحنة جديدة . . .

~ ~ ~

وكان افتتاح المؤتمر فى صباح يوم أول ديسمبر ، بالمبنى الفاخر الخاص بالمؤتمرات ، والذى لم أر له مثيلاً فى أى مكان آخر فى العالم . فالقاعة الكبرى فيه تتسع لـ ٤ آلاف مستمع ، وبها من الأجهزة الصوتية ما يسهل على كل الموجودين فى مختلف الصفوف — سواء الأولى أو الأخيرة — الاستماع إما بالسماعات الخاصة المثبتة على كل كرسي دون استثناء ، أو بفضل مكبرات الصوت التى وزعت فى إتقان ، مقربة إلى طبانة أذنك كل مناقشات الجلسات .

ورأس الحفل رئيس الجمهورية . . . ولكن الذى لفت الأنظار تمثل فى تلك الفرقة الموسيقية المكوّنة من أطباء من ألمانيا الغربية ، وقد وقفوا وهم يحملون مختلف الآلات الموسيقية ، يعزفون المقطوعات الكلاسيكية معلنين بذلك أنه ليس عيباً أن يكون الطبيب هاوياً فى أى اتجاه لتسرية إرهاب هذه المهنة التى ابتلى بها كل من اختارها كوسيلة للاستمرار فى الحياة . حضر هذا المؤتمر خمسة آلاف وخمسمائة عضو ، بين طبيب ومرافق ،

وتلى فيه ثمانمائة بحث في مختلف فروع طب الأطفال ، ورعت على ثمان قاعات كاملة الاستعداد . وكانت أبحاث المؤتمر تشمل أمراض الدم وسوء التغذية ، وأمراض الوراثة ، والمشاكل النفسية للأطفال وخاصة ما ينشأ عن الخلافات المزلية بين الأبوين . . . فإن الجو العائلي المضطرب ، لا يلبث أن يؤدي بالطفل إلى الانحراف ، فيسرق ويكذب ويهرب من بيته . وكان كل التحذير ينصب على تجنب إظهار عيوبنا وواطن الضعف في علاقاتنا أمام الطفل ، فهو مهما صغرت سنه دقيق الملاحظة ، سريع التقليد ، بالرغم مما يبدو عليه من عدم الاكتراث .

وقد يهيم القارئ أن يعلم شيئاً عما قيل عن الطعوم الراقية ، وإذا جدد فيها في السنوات الأخيرة . . . ولن أنسى كيف حذر « كروجمان » من شدة خطورة الحصبة الألمانية ، وخاصة إذا أصيبت بها الأم الحامل في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل . فإن هذا يعرض الجنين لأن يولد مشوهاً أو مصاباً بضعف في القوى العقلية أو بتشوهات في القلب ، وفي بعض الحالات يصاب بالكاتاكت أو « الجلو كوما » في إحدى العينين أو كليهما . وتقدم الدكتور « كروجمان » بما يثبت أن الطفل قد يولد وبه إصابة الحصبة الألمانية فيتغلغل « الفيرس » يأكل خلاياه ، وتجده في الكبد مسبباً اليرقان ، وفي الأمعاء وإفرازاتها ، فتنتقل العدوى للمخاططين كالممرضات والأقارب والزمائرين ، وقد يصل إلى المخ والرئتين والبنكرياس ونخاع العظام ، التي تبدو شديدة الكثافة في الأشعة السينية . وقد تجد تضخماً في الكبد والطحال ويصبح التشخيص واضحاً إذا اكتشفنا الفيرس في نخاع العظم أو في

فتحة الشرح :

وقد أصبح الطعم المضاد للحصبة الألمانية أمراً ضرورياً ... ويجب أن يحقن به كل طفل ، وكل سيدة في سن الحمل والولادة
 وكان « ساين » مكتشف طعم شلل الأطفال رئيس هذه الجلسة ، فكان في إدارته لها ولناقشتها متمكناً فذاً ، يضيف عليه شعره الأبيض وتقاطيعه الهادئة - هدوء الواثق - وقاراً بالرغم من عنجهيته في التعاليقات التي لم تكن تخلو من سخرية ، ولا عجب فهو الآن جالس على قمة الجبل العالي ، بفضل الطعم المضاد لشلل الأطفال الذي يحمل اسمه ولقد سئل عن سبب فشل الطعم في بعض الحالات ، فأجاب بأن وجود مادة الانترفيرون Interferon - التي تفرزها بعض جراثيم الأمعاء ، في البلدان التي تكثر فيها النزلات المعوية - أو إعطاء الطعم في ظروف غير مناسبة ، مثل وجود ارتفاع في الحرارة ، أو حالة إسهال لدى الطفل ، مما يحول دون إنتاج الأجسام المضادة ، فيصبح الطعم وكأن لم يكن .

وجاء دور صديقي الكبير العالم الروسى « سميرودنتسف » ، وهو الخبير الذى عاون على إنتاج طعم شلل الأطفال في معامل المصل واللقاح بجمهورية مصر العربية وقد نشأت بيننا علاقة وثيقة خلال زيارته العديدة لبلادنا وكانت محاضراته عن الطعم المضاد للغدة النكفية ، أو النكاف الوبائى ولكن القنبلة التى ألقتها هذا العالم الروسى ، تمثلت في نجاحه في تحضير الطعم المثلث ، الذى يولد مناعة ضد ثلاثة أمراض من أهم أمراض الطفولة ، وهى : الحصبة العادية ، والحصبة الألمانية ، والنكاف الوبائى

١٠٣

وكلنا نعرف الحصبة العادية ومضاعفاتها ومضاعفاتها ، من التهابات في المخ ، والأذن ، والعينين ، والربو . والجهاز الهضمي والحصبة الألمانية هي الأخرى تفتك بالجنين في الأم الحامل ، كما أسلفنا ، لذا يتحتم إجهاض الأم الحامل إذا أصيبت بها في الشهور الثلاثة الأولى من الحمل . أما في المريض نفسه ، فمن أهم أخطارها وصول فيروسها إلى الجهاز العصبي ، محدثة التهاباً في المخ قد يؤدي إلى شلل ، أو قصور في القوى العقلية ، أو الوفاة إذا وصلت إلى المراكز الحيوية من المخ .

كذلك نحن نعرف مضاعفات الغدة النكفية ، وأشهرها التهابات الأعضاء التناسلية في الذكر والأنثى ، مما قد يؤدي إلى العقم . . . ولا يستبعد أن تصل « الفيروسات » إلى المخ لتلعب دورها هناك - مثل أختها الحصبة بنوعها - وإلى غدة البنكرياس ، مما يؤدي إلى آلام حادة بالبطن وقىء ، وأعراض صدمة شديدة . . . وقد يظهر السكر في البول ، والدهنيات في البراز ، وغير هذا من الدلائل العملية .

وتقابلت مع صديقي الأستاذ الروسي «سميرودنيسيف» خارج القاعة بعد انتهاء الاجتماع ، فأخلى بالأحضان كعادته ، ثم تأبط كل منا ذراع الآخر ، وسرنا الهويانا نحو عربات « الأوتوبيس » التي أعدها هيئة المؤتمر لتقلنا بين الفندق ومبنى المؤتمر . ولم يكن لنا حديث طول الطريق إلا عن هذا الطعم المثلث ، فقال إن نصف سنتيمتر مكعب من هذا الطعم كاف - إذا حقنت تحت الجلد مرة واحدة لا تتكرر - لإعطاء الطفل والشخص البالغ مناعة ضد الأمراض الثلاثة . .

قصة طعم شلل الأطفال

هل يعود طعم سلوك إلى الطهور؟

كان مرض شلل الأطفال هو الغول الأكبر الذى كان يفزع من ذكر اسمه الآباء والأمهات والأطباء على حد سواء ، حتى إذا ما حل عام ١٩٥٤ دقت أجراس الفرح منبهة بأن الطعم الواقى قد نضج أخيراً وبدأ كالهدى بين الجوارى الواقفات ، وأصبح اسم مكتشفه (سلوك) على كل لسان وكأنه صانع المعجزات ولا عجب فكلم أطاح هذا المرض برؤوس عزيزة غالية ، وكنا نحن الأطباء نشهد الطفل الضحية وهو متعلق بالشب الأخضر النامى على حافة الهاوية التى تؤدى إلى عمق سحيق ونحن مكتوفو الأيدي لا نملك من أمرنا شيئاً .

وأخذت أحاول لفت الأنظار إلى أهمية هذا المرض وضرورة استيراد الطعم المضاد لما كنت أشاهده فى مصر يومياً من مدى هذا المرض الويل .

ولما ذهبت إلى كوبنهاجن فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٦ أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الثامن لأمراض الأطفال استرعت نظرى اللافتات المنتشرة فى كل مكان : فى الترام وفى الأوتوبيس والشوارع . وفيها توجيه للجمهور أن

١٠٥

يتوجه كل مواطن بلغت سنه الأربعين عاماً (يا لى ١١!) إلى أقرب مكتب صحة ليحقن بالطعم المضاد لمرض شلل الأطفال ، فعمجت للتوسط البعيد الذى قطعه هؤلاء القوم فى ميدان الطب الوقائى ، أى أنهم بدأوا فى تطعيم الأطفال بين السنة الأولى والخامسة ثم زحفوا تدريجياً حتى وصاوا إلى سن الأربعين ، وكانوا يأملون فى الوصول إلى سن الستين عام ١٩٥٧ . أى أن كل مواطن بالدمرك سوف يصبح إذ ذاك فى مأمن من هذا المرض :

كل هذا كان يحدث ونحن نغط فى سبات عميق بينما كانت الإصابات تتراكم أمام أعيننا فى العيادات الخاصة والمستشفيات . ونحن مكتوفو الأيدي ننظر بصبر فارغ إلى فئات المائدة يأتينا من الغرب . وهو فئات قيمته : كالدبيب الإبريز .

ثم كان صيف عام ١٩٥٧ عندما سافرت إلى جنيف لحضور مؤتمر شلل الأطفال الدولى الرابع بعد أن تركت ورائى فى مصر أشلاء متناثرة تنشد الخلاص فى غير أمل . وضحايا أودعهم بيدى فى الرأفة الحديدية لأنقذ منهم الأنفاس الأخيرة . وكانت المعركة فى مصر على أشدها والجرثومة الشاليل اليد العليا تطيح بالأجسام وتقطع الأوصال فى سهولة ويسر ، وكأنها معركة من جانب واحد ، وكنت على يقين بأن السلاح الوحيد الذى يمكننا أن نرد به كيد هذه الجرثومة إلى نحرها هو الطعم المضاد الذى أعاد منه كل العالم المتمدين إلا مصر ، وتخيأت إذ ذاك كيف أن الولايات المتحدة قد خططت لإبادة المرض كلية قبل نهاية ١٩٥٨ وقد نهجحت فى ذلك :

ودخانا قاعة المحاضرات وبدأت كلمات رؤساء وفود الدول ، وكان لي شرف لإلقاء كلمة وفد مصر عن مشاكل شلل الأطفال في بلادنا، وكان فيها إحصائيات لفتت النظر . وكان وفد مصر مكوناً من الدكتور شفيق عباسي ومنى .

ثم تكلم جوتاس سولك صاحب الطعم المسمى باسمه. نقوبل بهتاف وتصفيق بعد الانتهاء من كلمته . وأرى أن القارئ يريد أن أصف له هذا الرجل الذي هز العالم باكتشافه . إنه رجل ضئيل الجسم يعلو وجهه الشاب المنسق منظار أنيق ، أسود الشعر شرق السمات ، في نظراته عمق وفي كل كلمة ينطقها معنى ، حتى ليصعب عليك أحياناً تتبعه ، ألم تنصت لإنصاتاً تاماً ، يوجد منه في كل بلد مئات بل آلاف - ولكن الفرصة الكبيرة التي تأتي مرة في العمر وقد لا تتكرر أبداً - ساعدت له بفضل الإخلاص في العمل والمثابرة بلا كمال في عمل مجهز بهذه الدونة ثلاثين الدولارات ، لا تقف في سبيله عقبة وما أكثر العقبات التي تعترض الباحث نحو ألق منشود ، منها ما هو مادي وما هو أدبي أو نفسي ، والويل للعالم من ضيق ذات اليد وعدم الاستقرار النفسي .

وفي المساء نظمت هيئة المؤتمر رحلة في بحيرة جنيف وودت على الباخرتين أسمطة فيها ما لذ وطاب من أكل وشراب ، وكان الجو بارداً فقبعت أنا والدكتور شفيق عباسي في ركن دافئ ننتفض من البرد بينما رقص الجميع من شيوخ وشباب . وقد راقبت الدكتور سابين العظيم صاحب فكرة الطعم عن طريق القم وهو لا ينقطع عن الرقص طوال الرحلة في نشاط

١٠٧

كبير دون أن يلهث وكأنه ابن العشرين مع أنه جاوز الستين ، فهمس الدكتور عباسى فى أذنى قائلاً : لا عجب إذا استيقظ هذا الرجل فى صباح اليوم التالى نشيطاً مكيّاً على البحث وراء المجهول فى نشاط ومثابرة .

واختتم المؤتمر جلساته فى الساعة الرابعة من مساء اليوم الرابع :

ثم نهض رئيس الجلسة وقال فى تأكيد وثقة : إن معركة لا شك فيها قد كسبناها ضد هذه الجرثومة بفضل طعم سواك . ويجب ألا يعاق بأذهاننا بعض حوادث مؤسفة حدثت فى بدء استعماله ، فكلنا يذكر الكارثة التى حدثت فى (لوبيك) عند بداية استعمال طعم الـ سى جى المضاد للدرن : ولكن هناك بعض نقاط يجب أن يوضعها البحث فى المستقبل وهى مدة مفعول هذا الدواء ، والكمية التى تحقن ، وعدد الحقن ، وتكرار الحقن لغرض استمرار المناعة والبحث وراء الفيروسات المشابهة لفيروس الشلل مثل الكوكساكى والأيكو ، فقد أثبتت الأيام أن كثيراً من الحالات التى تشخص على أنها شلل أطفال تنتج عن إصابة المريض بالفيروسات الأخرى المشابهة : ثم قال إننا طوقنا بأبحاث شال الأطفال بعض الزوايا التى قد تفيد فى البحث وراء سبب السرطان التى قد تكون بداية أتق جديد أو طريق جديد .

ثم دق على المكتب معلناً انتهاء المؤتمر ، فتنفسنا الصعداء ، فليست المؤتمرات ملهاة ، إنها إرهاق ومستولية وعذاب :

وبعد هذا المؤتمر اهتمت الدوائر الحكومية باستيراد الطعم المضاد واتخذت التدابير في سبيل تعميمه حتى ظهر الحجم الجديد ، طعم سابين الذى يعطى بطريق الفم ، وبزغ في لماعية كبيرة حتى كاد يكشف طعم ساواك الذى يعطى عن طريق الحقن .

ولما سافرت إلى كونهاجن لحضور المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال كانت الأبحاث بخصوص فاعليته قد ثبتت تماماً وسار الطعمان جنباً إلى جنب في سبيل خير الإنسانية جمعاء والطفولة بصفة خاصة .
كان المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال هو خاتم المؤتمرات الخاصة بشلل الأطفال .

واقصد لاحظت عندما حضرت المؤتمر الرابع لشلل الأطفال في جنيف عام ١٩٥٧ ، أنه لم يكن هناك روسى واحد بين العلماء الذين اشتركوا في البحث والمناقشة . ولم يذكر اسم روسيا إلا مرة واحدة عندما ذكر أحد الحاضرين أن الروس ادعوا اكتشاف نوع رابع من فيروس شلل الأطفال ، ثم أثبت البحث بعد هذا أنه فيروس نوع آخر هو كوكساكى ب ٧ ، وقد اعترف الروس بالخطأ الذى وقعوا فيه فعلا في المؤتمر الحالى الذى كان اليوم الثانى فيه يوم العلماء الروس بقى ، إذ تغافوا في آذاق البحث بما لا يترك زيادة لمستزيد : وانتصروا على طول الخط في أبحاث طعم الفم (سابين كوكس كويروفسكى) وكان علماء الغرب يصفقون لهم بحين معجبين ووضعهم في قلوبهم والهمهم بعيد عنهم . فليس للسياسة مجال بين العلماء .

كان اليوم الأول يوم العلماء الإنجليز والأمريكان لا ينازتهم فيه منازع ، ففي الصباح كانت الموضوعات كلها تعجب اللب وتقهر الظاهر ، لعلو كعبها ، فقد تغلغلت في حياة الفيروس الخاصة وأظهرت لنا كيف تعيش وكيف تتوالد : فهي كائن له رأس وذنب والمذنب زعانف كأنها أشواك السمكة . وفي وسطه قناة تمكنوا من حقن مادة خلالها بإبرة خاصة وهي الكائن الذي لا يراه المجهر العادى ويظهرها بوضوح المجهر الإلكتروني : ولاني مازلت أحاول تخيل قطر هذه الإبرة التي يمكنها أن تدخل هذا الذي لا تراه العين ولا يدركه المجهر العادى .

صالح الدكتور سيدنى في هذا المجال في تودة وثقة شأن أبناء الإنجليز . ثم أخلى مكانه لزميليه هيرست ودليكو الأمريكيين ، ثم ليفون الفرنسي ، وتكلموا عن تأثير عوامل خاصة تؤثر على حيوية الفيروس ومقاومته للعول الميسينات ، ومركبات السلفدريل وارتفاع حرارة الجسم وزيادة حموضة الدم على نمو الفيروس ثم تدخلوا في هواة في موضوع الحمض النووى (حمض النيكوكليك) ذاكرين أنه أهم عنصر في الفيروس من حيث نقله من خلية أخرى . وبرز النجم الحديد المسمى (حمض الربونيكليك) وأثبت « دلبوكو » وهو العالم بحق أن كل جزء منه يتكون من سبعة آلاف جزء وعلى أجنحة هذه الجزئيات تنتقل إشارات العدوى على مختلف المستويات في الجهاز العصبى .

وانفجرت الوقائع من فيه وبمن ثلوه مثل العلماء شيفر وكولنز وستوكز ونيفين ، فألقوا القول غير جزاف مفنديين مفسرين مرتفعين بالعلم إلى السماكين .

والكل منا مرهف السمع ثابت البصر في غير مال زائفة أحياناً حتى ما يشبهونه لحظات على شاشة بيضاء ، وكنت أغبطها لسعادتها فهي التي تنافى الصفعات الرقيقة يصوبها نحوها من بعد فانوس كهربائي دقيق يشرف عاينه متخصص لم يخطئ أبداً خلال الأيام الثلاثة الطوال .

وفي آخر جلسة الصباح ، وفي آفاق قاعة المحاضرات الفاخرة المريحة المجهزة بكل وسائل التهوية والتكييف والترجمة إلى لغات أربع ، زفت بشائر نجم جديد قد يكون له أثر كبير في الوقاية والعلاج في عالم الفيروسات وضممنها شلل الأطفال ، سموه المادة الحائلة . وقد تمكنوا من عزلها وأثبتوا أنها تبدأ في الظهور بعد يوم من الإصابة وتستمر لمدة أسبوع ، كما ظهر في التجارب العلمية على رئة الفيران نمو فيروس الأنفلونزا ، والعلماء يأملون أن يتمكنوا من عزل هذه المادة واستعمالها في وقف سير الحالات الحادة وكذلك الوقاية منها . وهذا فضل على الإنسانية كبير . فلما نحن الآن نقف حائرين أمام حالات شلل الأطفال الحادة وهي تزحف زحفاً نحو المراكز الحيوية العليا دون رحمة من الفيروس القاسي . ترى هل يتمكن العلماء من عزلها والإفادة منها ذات يوم جميل من أيام الحياة .

كذلك تحدثت العلامة ما تدل عن اكتشاف ما زال في دوره التجريبي المعمل ، وهو احتمال الاستفادة من عزل الأجسام المضادة للفيروس لوقف سير نشاطها وهي تتلصق على العصب حال دخولها : وحتى الآن لا يمكن القول لهم وصلوا إلى نتيجة فاصلة في هذا المجال :

ونفستنا الصعداء هذا اليوم الذي استغرقت جلساته ست ساعات

متوالية لم يسمح لنا خلالها إلا بخمس دقائق مرتين ، الأولى بجلسة الصباح والثانية في جلسة بعد الظهر ، وقد حذرنا رئيس الجلسة في دعاية من مغادرة قاعة المحاضرات إلا لأسباب تتعلق بحياتنا وسلامتنا ، وقال : إني أسمح لكم بالوقوف والانشاء قليلا إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم إلى الجانبين ، وأشكركم على حسن إنصااتكم .

وفي فترة الصباح توقعنا شرّاً مستطيراً ، وإن كل الموضوعات كانت تتعلق بطعم سولك وكفاءته للوقاية من شال الأطفال . وكنت أدقق النظر في هذا العلامة طول جلسة الصباح وهو جالس في الصف الأول يعلو وجهه بعض الكتابة وقد نحل وجهه ونحف شعره الأسود الفاحم ، وكان يبدو كشخص يتحفز للدفاع عن كيانه ، فهو مهدد بالانهيار التام بعد أن كان ملء السمع والبصر في خمس السنوات الأخيرة وكان يجاس يجاني مباشرة ويفصلني عن غريمه في العلم الأستاذ ساين أحد مكتشفي الطعام الذي يعطى عن طريق الفم ، واكتفيت هذه المرة بالتعرف عليه . فكان ظريفاً مجاملاً مبتسماً على طول الخط وأصبحنا أصدقاء بقية أيام المؤتمر ، وما المؤتمرات إلا وسيلة للتعارف والتآلف في سبيل العلم والمجتمع :

وكان سولك يستمع إلى الخطباء الواحد بعد الآخر كالمحكوم عليه ، إذ يستمع إلى شهود النفي والإثبات ليحكم له أو عليه . وكان العلماء يتكلمون في حياد تام وبروح عدالة مطابقة فيوردون الأرقام . وكان أوطم الأمريكى لا نجموير ، وهو من ذوى الكلمة المسموعة جداً في هذا المجال : وقد أكد أن النتائج أثبتت أن المناعة المكتسبة من حقن طعم سولك

تبلغ ٩٠٪ بعد الحقنة الرابعة . وهذه نتيجة لا يرق إليها الشك ، وما سبب هذه الانعجارات الوبائية إلا أن الطعم لا يعطى بطريقة منظمة تضمن عدم ترك أى طفل فى المجموعة دون تطعيم فإن بؤرة حساسة واحدة تكفى لإشعال النار من جديد .

وأجمع العلماء على أنه لو أمكن تعديل تحضير طعم سولك بحقنة واحدة بدلا من أربع ، ونخفض ثمنه حتى يتيسر إعطاؤه أكل طفل واكل البالغ فى المجموعة الواحدة دون تمييز أو تفريق ، فإن هذا الطعم لن يموت أبداً ، ولا بأس عليه أن يزامل طعم الفم فى سبيل الوقاية ، وعلقت بينى وبينى نفسى (مثل الكوكاكولا والبيبسى كولا تماماً) وانتهت الجلسات على خير ، وبدأ على وجه سولك بعض الاثرياح وقد آمن مستقبله :

وفى جلسة بعد الظهر نوقش موضوع طعم الفم الذى اخترعه سابين وكوكس وكوبروفسكى . وهم يعملون فرادى فى الولاية أو الجهة التى ينتمى إليها كل منهم . فسابين مثلاً يعمل فى سنسنانى وكوكس فى معامل ليدرل ، ولذا يسمون طعمه كوكس ليدرل ، وكوبروفسكى فى فلادلفيا ، وقد ثبت أن لهذا الطعم قد جرب على نطاق واسع جداً ، فمثلاً جرب طعم سابين فى مائة مليون طفل . وطعم كوكس فى سبعة ملايين طفل . وطعم كوبروفسكى فى مليونى طفل ؛ وقد طبقت التجربة على أطفال بعض الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية والمكسيك وروسيا وألمانيا وبلندا . ولا أظن أن دواء جديداً جرب على هذا النطاق الواسع من قبل . وكانت النتائج باهرة بإجماع

الآراء ، وتجلّى في هذا الاجتماع العلماء الروس : فتحديث شوما كوف ووقف بقوامه الفارع يلقي كلمته نيابة عن نفسه وعن أستاذه زادانوف ، وكانت الكلمة بالروسية ولكننا سمعناها مترجمة إلى الإنجليزية كاحة كاحة ، وفي دقة تامسة ، والفضل في ذلك لهيئة المترجمين الذين يتكلمون ويتقنون اللغات المختلفة كأبنائها تماماً . وكان الكلام يتفجر من فيه كالبركان الهادر . ذاكراً الأرقام والإحصاءات بالهجة المقتنع الذي لا يقبل نقاشاً لا عن عناد ، وإعما عن ثقة فيما يعتقده حقاً وصواباً . وكان طبيعياً في إلقائه بسيطاً في حركاته حتى إنه لكي يقنع الحاضرين بصحة كلامه عن سلامة الطعم وكفايته أخرج من جيبه كيساً به بعض أقراص الحلوى . وابتلع منها واحداً ، ثم ترك الكيس لرؤساء الجلسة وبتدعيم عشرة من أطاحل العلماء وابتلع كل منهم قرصاً وهم يتسّمون بأخوذون بسحر حديثه وقوة إقناعه ، مما أشاع البهجة بين الحاضرين ، وقد قل رئيس الجلسة مداعباً بعد أن انتهت موجة التصفيق الحاد - وهو العالم الفرنسي اليوزف - يمكنني أن أؤكد للزميل شومان كوف أن طعم الأقراص اللذيذ وأنه بحمد الله لم يحدث لنا حتى الآن وفاة مباشرة . ١

ثم أعقبه الخبير الروسي سمورودنتيف الذي أقام بمصر مدة شهرين ذلك العام أتى خلالهما بضع محاضرات عن طعم الفم وغيره ، فتحديث عن تجاربه في ثلاثة ملايين طفل في لننجراد . والحديث عن طعم الفم دائماً بالملايين لخص ثمنه وسهولة تعايطه .

ثم أعقبته العاملة الروسية مارينا فورشيلوفا . وهي زوجة شوما كوف

الذى سبق الحديث عنه . لم أر فى حياتى العلمية إنساناً يتكلم بمثل هذه الثقة وقوة التعبير . كانت الوقائع تخرج من فمها كالمدير ، وإن كانت غير هائجة ، كاملة منمقة وفى سرعة كنت أخشى منها على المترجمة ، المسكينة ، وكان الحاضرون يصفقون لها من قلوبهم المفعمة بالإعجاب ، وكانت تتلو الوقائع من مذكرتها . لم تنظر أبداً إلى ما هو أمامها من مذكرات مطبوعة وكأنها البحر المتدفق وكانت هذه المعجزة خير دعاية لبلادها ، وظهرت للملأ مفخرة لا تقل روعة عن الصواريخ الروسية . وكانت إذا عقب على المتشككين تكلمت بصوت كله عتاب رقيق كالذى توجهه الأم إلى أطفالها الأشقياء ، وكأنها تقول لا تحاولوا خلق المتاعب والشكوك (كفاية شقاوة) الطعم سليم وكفى مائة فى المائة : ثم تبدأ فى سرد أدلة جديدة حتى ينهز المعارضون وتنهز مقاومتهم : ثم تعاقب الخطباء وكلهم يحبل طعم الفم دون نقاش ، حتى إذا اقتربت الجلسة من نهايتها قام الأستاذ ساين وصاح بلهجة المنتصر : ماذا تنتظرون بعد هذا وقد جرب الطعم فى أكثر من مائة مليون طفل دون حادث يذكر ودون أن يفشل فى حالة واحدة أو يؤدي إلى حالة وفاة واحدة ؟ . نصيحى ألا نناقش كفايته ، بل نفكر من الآن : كيف نمهّد السبيل لإعطائه لكل سكان العالم سواء الأطفال أو البالغين ، وبهذا نقضى على هذا الداء الوييل إلى غير رجعة ؟ .

وعندما ركبت الترام عائداً إلى الفندق مع زملائي الدكتور على سالم والدكتور إمام زغلول التفت إليهما قائلاً ، وهما العالمان الخبيران : ما رأيكما ؟

أجابا باقتضاب : اكتساح لاشك فيه .

ثم مال على الأستاذ الروسى سمورود ينسف وقال مبتسماً ، انظر إلى كوكس . إنه كسير الفؤاد ، لأن الفيروس رقم ٢ من طعم كوكس ليدلر ضعيف ويجب أن يجد طريقة لاتخاذ نفسه . واتجهت نحو كوكس بعد أن تركنى العالم الروسى : وبينى وبينه معرفة وطيدة منذ قابلته فى نيويورك منذ عام وابتدرنى قائلاً : ما رأيك فى كل هذا . ألا توافى أن مقدار الكلام الذى يقال عن طعم شلل الأطفال أصبح من مرض الشال نفسه ، وبدأ يتحدث مداعباً وفى بساطة أمريكية ظريفة ... وحديثه عن نقطة الضعف فى طعمه فأكد أن العمل يجرى بلا هوادة فى تدعيمه وتلافى مواضع الضعف فيه .

وفى فترة الاستراحة فى الصباح تقابلت مع سولك ، وكان يبدو كسير الفؤاد فجلسنا على مقعد مريح فى الصالة الملحقة بقاعة المحاضرات . فنظر إلى وهو ساهم شارداً للذهن . وأردت أن أحرك أشجانه ، فقلت له : لقد كنت موجوداً أثناء مؤتمر عام ١٩٥٧ بجنيف ؟ . فقال لى على الفور . لقد كانت الظروف مختلفة تماماً . . . أما اليوم . . .

فقلت له موسياً : إن الأرقام التى أوردتها الباحثون عن طعمك مقنعة مذهلة فليس رقم ٩٥٪ للمناعة بعد الحقنة الرابعة بالرقم الحين فى عالم الإحصاء الطبى . لى ملحوظة واحدة ، وهى أن يجرى البحث مستقبلاً عن تبسيط طريقة تعاطى طعم سولك بقصره على حقنة واحدة بدلاً من أربع ، وعلى العمل على خفض سعره .

فقال ألا تذكر البنسلين في أوائل عهده ؟ . وكيف كان غالى الثمن : وهو الآن بلا ثمن . . . إن مرور الأيام والاستمرار في البحث عن وسائل تعديل الطعم كميلان بحل هذه المشاكل التى حدثتني عنها . وإني واثق بأنى سأصل إلى ما أريد وما تريد .

وقابلت الدكتور الكندى فيرجسون الأستاذ العالمى فى الأقربازين ، ورئيس معامل كونوت بكندا وكنت قد قابلته فى تورنتو فى العام الماضى ، فقال بلهجة إنجليزية مثبته رصينة .. نحن قد حضرنا طعم الفم . . . ولكننا لا نريد طرحه فى السوق بسرعة . . . وأعتقد أن هذا الطعم الجديد سوف يعضى قدماً .

فكانت الجملة مقتضبة وحماسية . وكان القول الحق لآنى أثق فى رزانة هذا الرجل وحسن تقديره للأمر .

وتقابل أعضاء الوفد العربى مصادفة مع سابين فى فترة الاستراحة ، فأخذ يستعيد ذكرياته عن القاهره عندما زارها سنة ١٩٤٣ . وقام بأبحاث فيها ، أخذ يعددها لنا الواحد بعد الآخر ، وقال ، إنه كان يقطن فى شارع فاروق ، وقال الدكتور لإمام زغلول إن طعم سابين يجرب الآن فى مصر . فما كاد يسمع كلمة (يجرب) حتى انحنى عليه متسائلا فى عنجهية وثقة لاحدهما : ماذا تقول ؟ : يجرب ؟ . اذهب يا عزيزى إلى بلادك وقل لأولى الأمر أن يطعموا به كل مصرى دون خوف أو تردد؟ ألم تفتنك كل هذه الأرقام وخاصة أن البلاد التى عمم فيها تتشابه مع مصر من حيث الجو والمستوى الصحى :

كان اليوم الثالث من الصباح حتى المساء عبارة عن انتصارات متوالية لطعم الفم . كان النقاش يدور - لا حول مفعوله أو سلامته - بل حول طريقة تعميمه حتى لا يبقى فرد واحد في البلاد الموبوءة دون تحصين ، وحول السن المناسبة لإعطائه للفرد . هل يعطى بعد الولادة بأيام أو بأسابيع أو شهور؟ وهل يفضل نظام الجرعة الواحدة أو نظام الثلاث جرعات ، وغير هذا من التفاصيل التي لا محل لها عند القارئ العادى .

وعندما غادرت فندق « الترى فلوك » الفاخر، حيث عقد المؤتمر لآخر مرة يصحبنى زملائي على سالم وإمام زغلول من مصر وصبيح الجزار من سوريا التفت خائى لأودع الدار التي اصطليت بناها وتمرغت في نعيمها ، فالعلم جنة ونار طوال أيام ثلاثة مائة بالإرهاق وبذل الشحم واللحم والعرق . وإن كانت هناك دموع الفرح على ما اتصل به ركاب العلم من أسباب التقدم والنهوض ، وفي الله ابن آدم شر الغرور فإنه سبحانه لم يهبه حتى الآن من العلم إلا قليلا . . . وفوق كل ذى علم عليم .

* * *

ولم تعقد مؤتمرات دولية عن شال الأطفال بعد ذلك فقد أصبح الطعم المضاد حقيقة واقعة وكل ما يحاولونه الآن هو اكتشاف أنواع منه تتحمل الجفاف مدداً طويلة ، وبهذا يستغنى عن ضرورة وضعه في اللاجات . ويحاولون زرع الفيروس على الأجنة الآدمية بدل كلية القردة ، وبهذا تقل نفقات تحضيره إلى درجة كبيرة ، فيرخص ثمنه .

ومضت السنون ونجم ساينز آخذ في الصمود وانزوى سلوك بعيداً

عن مجال شلل الأطفال ويقال إنه انحرف إلى مجال آخر في أبحاث عالم الفيروسات لعل نجمه يبرز من جديد ذات يوم ، فليس أشد قتلا للنفس التواقة من خسوف بعد إشراق ، ولا بد أن سولك سوف يجد في البحث عن جديد يعيد لاسمه اللعنان الذي افتقده منذ زمن .

وما زلت أذكر كيف وقف سايبين في الجلسة الختامية مؤتمر الطفولة الدولي الحادى عشر الذى عقد فى طوكيو فى نوفمبر ١٩٦٥ يتحدث فى ثقة عن معجزات طعمه الذى اكتسح طعم سولك وما قاله إنه يمكن أن تكون المدة بين الجرعتين ثمانية أسابيع وأنه يكفى أن تعطى جرعتان فى البلاد التى لا تكثر فيها التزلات المعوية ، أما فى البلاد التى تكثر فيها هذه التزلات فيمكن إعطاء ثلاث جرعات ثم جرعة رابعة عند دخوله المدرسة للمرة الأولى وأردف قائلا فى ثقة :

لا للضرورة القصوى ولكن لم لا وهو طعم لا يسبب أى تفاعل ولا يضر بالجسم على الإطلاق .

وعلقت كلماته بذاكرتى ومرت ظروف كادت لا أوافقها فيها على كل ما يبشر به عن الطعم الذى يحمل اسمه .

فلقد صادفت فى حياتى العملية اليومية حالات يتتابها ارتفاع مفاجئ فى الحرارة قد تصل إلى مافوق الأربعين درجة مئوية وقد يصحبها إسهال حاد أو أعراض عصبية فأسائل نفسى هل هى مجرد مصادفة أم أن لها علاقة بالنظرية التى تقول إن هناك حالات نادرة تفتق منها الفيروس المروضة عندما تصل إلى جسم مضيفها للطفل وكأنها الحية التى أهلكها برد

الشتاء والصقيع ترفع رأسها هجأة إذا واجهت نار المدفأة بعد إذ أواها عابر سبيل في بيته شفقة منه ورحمة فيكون أول ضحاياها ، فتى استيقظت الفيروس صالت وجالت على غير هدى حتى إذا وجدت منفذاً صغيراً ، وما أكثر الفرجات في أمعاء الطفل المصرى كنتيجة لنزلة موعية حديثة أو دوسهطاريا أميبية مزمنة ، انسابت منه إلى الدورة الدموية تسبح فيها وتزداد دفناً وحيوية وهى تنجح إلى موضع الأفضلية عندها وهو الجهاز العصبي ، محدثة التهاباً في المخ وفي حالات نادرة شال أطفال صريع . . . لذا اتخذتها قاعدة كلما ارتفعت الحرارة بعد تناول الطعام أن أحقن الطفل بمادة الجاما جلوبواين عساها أن تولد فيه مناعة مؤقتة يمتاز بفضلها المحنة المرعوبة التى قد تهدد حياته :

وكثيراً ما صادفت حالات شلل أطفال تحدث في أطفال تناولوا الثلاث جرعات من طعم ساين بانتظام ودون أن يكون هناك أحد المانعين الأساسيين وهما ارتفاع الحرارة والإسهال . . . وتساءلت كيف تسلم ملك البرائيم إلى جسم دعمت خلاياه بطعم قبل غذائه لا يخطئ إلا في النادر ، وحاولت أن أفسر بعض حالات الفشل بأسباب منزلية مثل تهاون الأم - في إتمام تناول الجرعة الثلاث وقصرها على جرعة أو جرعتين ، أو أن الأم لا تنتظر في تبليغ طفلها الطعم وهو مادة ملحية المذاق فلا يكادفه يصل إلى كتفها وهى تحمله على وهن حتى يبصقها ليتخلص منها وبذا يحرم نفسه من أقوى سلاح قدمه العقل البشرى لوقايته من داء وبيل :

ولكن العلماء يجدون دائماً لكل علة سبباً :

وخاصة لما وجدوا أن فاعلية الطعم قد هبطت إلى ٤٠٪ (أربعين في المائة) في البلاد الحارة حيث تكثر التلذات المعوية بل وتكاثر الفيروسات المعوية بلا ضمير وفي خفية دون أن تحدث أعراضاً تلفت النظر . والأدهى منها جرثومة الشبحيالا التي وجد أنها عدو لدود لفيروس التال المروضة ، وهي الأخرى تكمن في تحفز بين ثنيات الأمعاء منتظرة غريها في صمت الغادر المقتدر فتفتك به فتكاً يؤدي إلى اختفائه كلية .

ثم يتبين أن لبن ثدى الأم له أثر ضار على الطعم ، ولما تنبهوا إلى ضرورة تحريم رضاعة الثديين لمدة ٦ ساعات من أن يمتص الطفل ثدى أمه ، ولقد أحدث هذا الخبر بلبلة في أفكار الأمهات لأن معظمهن كن يرضعن أطفالهن بعد تناول الطعم بقصد إسكاتهم وضمان استقرار الطعم في معدتهم ، والواقع أنه على هذا الفرض يجب عليهن إعادة حقن أولادهن ، ولكن في اعتقادي يكفي بجرعة واحدة منشطة ما دامت بقية شروط تناول الطعم كانت مستوفاة في الثلاث الحقن السابقة ، وهناك في الوقت الحاضر محاولات للتغلب على هذه الحوائل الجرثومية والفيروسية والبيولوجية بإعطاء ٦ نقط بدلا من ٣ نقط للجرعة الواحدة وأن يزداد تركيز الطعم من مائة ألف إلى مليون وحدة فيروس في النقطة الواحدة .

ويا ويل طعم سابين من اختبار الزمان .. وإلى أذكر أني سأله في مؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٦١ بعد انتصاره الكاسح عن مصير طعم سولك الذي يعطى عن طريق الحقن أجاب في مهمة يشوبها العطف والإشفاق على زميله : لا يجب أن يموت طعم سولك — يمكن إعطاء الحقنة المنشطة من

طعم سولك أما الجرعات الثلاث الأولى فلا بديل لها من طعم الفم الذي يحمل اسمي :

وفي اعتقادي الآن أن الآية لا بد أن تنعكس في البلاد الحارة مثل بلادنا حيث تكثر الجراثيم المتداخلة التي حالت دون مفعول الطعم الدرجة نزوله إلى ٤٠٪ كما تقول الإحصائيات في طرق لا تدع مجالاً للشك . وأجد نفسي منساقاً وراء عاطفتي الأزلية نحو سلامة الطفل الذي كرس جزءاً كبيراً من حياته العمالية لحماية من هذا المرض الاعمى ، أن أنادي — في حالة تكرار الفشل مع طعم سابيين — أن يعود طعم سولك إلى الظهور في البلاد الحارة ويقتصر استعمال طعم سابيين على الجرعات المنشطة .

وهذا كلام مبني على المنطق العلمي العميق لذي يبدو مستهدداً أن تعقم الجهاز الهضمي للطفل من الجراثيم المتداخلة التي تعيق مفعول طعمه في سلام ووثام وكأنها جزء منه ، وليس من المعقول أن نحرمه من ثدي أمه لنهذه الطريق لفيروس سابيين المروضة ، وكل أملنا أن تؤدي المحاولات التي نجري في الوقت الحاضر من تركيز الطعم وزيادة مقدار الجرعة إلى ست نقط بدلاً من ثلاث والعناية أكثر وأكثر بوسائل التبريد ، وفي لا بد منها ، لحفظ الطعم من الفساد إذ أنه لا يتحمل الحرارة أكثر من ست درجات مئوية . . . والله الموفق . . .



...في آفاق الحياة والموت



محمد رسول الله . . في أيامه الأخيرة

شرفني الله بزيارة قبر الرسول مرات عديدة ، وكنت كلما جلست في مكاني المفضل - عند ركن الأغوات - أحملق فيما وراء الأسوار المذهبة التي تحيط بالقبر الطاهر . أتخيل الأحداث التي سبقت موته ، صلى الله عليه وسلم . إذ خرج - وقد اشتدت به العلة - يمشي بين رجلين من أهله ، هما : « الفضل بن العباس » و « علي بن أبي طالب » ، عاصباً رأسه ، حتى دخل بيت عائشة ، ثم أصابته غمرة المرض ، واشتد به وجعه فقال : « أهرقوا علي سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » .

تقول عائشة ، رضى الله عنها : « فأقعدها في مخضب لحفصة بنت عمر ، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » . . . ثم خرج صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، ثم صلى على أصحاب « أحد » ، واستغفر لهم ، وأكثر الصلاة عليهم . ثم قال : « إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . ففهمها أبو بكر ، وعرف أن نفسه يريد . . . فبكى ، وقال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » .

وتستطرد عائشة قائلة : « ولما ثقل المرض على رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم ، عاد أسامة بن زيد ، وكان على رأس الجيش عند الحرف ، على بعد فوسخ من المدينة . . . ودخل على النبي وقد أصممت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة ، وكأنه يدعو له ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ! . . . فقالت عائشة رضي الله عنها : « يا نبي الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت ، كثير البكاء ، إذا قرأ القرآن » . . . فكرر صلى الله عليه وسلم قوله : « مروه فليصل بالناس ! » . . .

« ولما كان يوم الاثنين ، الذي قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ، خرج النبي إلى الناس وهم يصلون الصبح . فرفع السر ، وفتح الباب ، وقام على باب عائشة . فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم حين رأوه فرحاً به . فأشار إليهم أن أثبتوا على صلاتكم . وتيسم صلى الله عليه وسلم ، سرورا لما رأى من هيبتهم في صلاتهم ، وما رأيته أحسن هيئة منه تلك الساعة . . . ثم رجع ، وانصرف الناس وهم يرون أنه قد برئ من وجعه . فرجع أبو بكر إلى أهله بالسبح » .

وتقول عائشة : « رجع إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ذلك اليوم ، وحين دخل من المسجد ، واضطجع في حجرى . فدخل على رجل من آل أبي بكر ، وفي يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نظرة عرفت منها أنه يريد ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ . فقال : نعم فأخذته فضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشد ما رأيته يستنّ ، ثم وضعه . فوجدت

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ينقل في حجرى ، فذهبت أنظر في وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى » . فقلت : « خبرت فاخبرت والذي بعثك بالحق » .

قالت : « وقبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين سحرى ونحرى ، فوضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألندم مع النساء ، وأضرب وجهى » .

• • •

ولما توفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قام عمر بن الخطاب . فقال : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد توفى . . . ألا إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عن قومه ٤٠ ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله إرجعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما رجع موسى . فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو في بيت عائشة مسجى في ناحية من البيت ، وعليه بردة وحبرة . فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم أقبل عليه يقبله ، ويقول : « بأني أنت وأمي ! . . . أما المودة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها مودة أبداً » . ثم رد البردة على وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونخرج وعمر يكلم الناس ، فقال :

« على رسلك يا عمر ، أنصت . . . » فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت » . ثم تلا الآية الكريمة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » . . . فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآيات نزلت ، حتى تلاها أبو بكر يومئذ .

قال عمر : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت (أى دُهِشت) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات » .

* * *

ولما قبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عباد في سقيفة بنى ساعدة ، واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله في بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ، وانحاز معهم أسيد بن حضير في بنى الأشهل ، فأتى آتٍ إلى أبى بكر وعمر ، فقال : « إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عباد في سقيفة بنى ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأذكروهم قبل أن يتفاقم أمرهم » . : . هذا ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — في بيته لم يفرغوا من أمره ، قد أغلق دونه الباب أهله : قال

عمر : « فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه » .

فلما بويح أبو بكر ، رضى الله عنه ، أقبل الناس على جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم - يوم الثلاثاء . ثم إن عليًّا بن أبي طالب ، والعباس ابن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هم الذين تولوا غسله . وجاء « أوس بن حولى » - أحد أهل بدر - فدخل ، وحضر غسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد أسنده على إلى صدره ، بينما « العباس » و « الفضل » و « قثم » يقبلونه معه ، و « أسامة بن زيد » و « شقران » مولا يصبان الماء على قميصه ، و « على » يدلّكه به من ورائه ، ولا يفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : « بأبي أنت وأُمى ، ما أطيبك حيًّا وميتًا » .

وكانوا حينما أرادوا غسل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اختلفوا فيه . فقالوا : « والله ما ندرى ، أنجرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ثيابه كما نجرد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ . . . » فلما اختلفوا ، ألّقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره . ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت ، لا يدرون من هو : أن أغسلوا النبي وعليه ثيابه . فقاموا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم .

فلما فرغ من غسل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كفن فى ثلاثة أثواب : ثوبين صحاريين (نسبة إلى صحار ، مدينة باليمن) وبرد حبرة

أدرج فيه لإدراجاً . ولما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان « أبو عبيدة بن الجراح » يضرّح كحفر أهل مكة ، وكان « أبو طلحة زيد بن سهل » هو الذي يحفر لأهل المدينة . فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : « اذهب إلى عبيدة بن الجراح ! » ، وللآخر : « اذهب إلى أبي طلحة ! » . . . وأردف قائلاً : « اللهم اختر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم ! . . . » فوجد ثاني الرجلين « أبا طلحة » فجاء به ، فلحد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولما فرغ من جهاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الثلاثاء ، وضع على سريره في بيته . وكان المسلمون قد اختلفوا في دفنه ، فقال قائل : « ندفنه في مسجده » . . . وقال قائل : « بل ندفنه مع أصحابه » . فقال أبو بكر : « إني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ما قبض نبي إلا دُفن حيث يقبض » . فرفع فرائس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذي توفي عليه — فحفر تحته . . . ثم دخل الناس على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لإرساله . أدخل الرجال ، حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغن أدخل الصبيان . ولم يؤم الناس في الصلاة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحد . . . ثم دفن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في وسط الليل . . . ليلة الأربعاء . وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هم : علي بن أبي طالب ، والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقد قال « قوس بن حولى » لعل بن أبى طالب : « يا على ، أنشدك الله وحظنا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » . . . فقال له : « انزل » ١ . فنزل مع القوم . وقد كان مولاه « شقران » - حين وضع رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فى حفرة وبنى عليه - قد أخذ قطيفة كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : « والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً ! . . . » .

* * *

يحاول الطبيب منا معرفة كنه الجرثومة التى اقتحمت هذا الجسم الطاهر فحرمت منه الإنسانية . . . ولعل الله سبحانه وتعالى قد وضع للموت والحياة حدوداً ، وخلق لها أسلحتها - وهى عالم الجراثيم - لتنتهى حياة من قسم له أن يموت على فراشه .

وفى تخمين ، أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - أصيب بإحدى الحميات الخبيثة ، التى تستغرق أياماً لإنهاء الحياة . . . وكان خلالها قادراً على الكلام ، والسير مستنداً إلى رجلين من أهله وأتباعه ، عاصباً رأسه من شدة الصداع الذى يصحب حمى « التيفود » عادة . ثم يجلس على المنبر يتكلم إلى المسلمين . وكانوا ينظرون إليه ، يلتهمونه بعيونهم ، فرحين مستبشرين بفضل الله عليهم ، وهم يعتقدون أنه قد برئ من وجعه . ولعلنا نذكر كيف اشتدت به الحمى فى بيت عائشة ، حتى لقد طلب - صلى الله عليه وسلم - أن يريقوا عليه سبع قرب من آبار شتى ، وكيف صبروا عليه الماء صهباً حتى ارتعد منه البدن ، وطلق يقول : « حسبكم ، حسبكم ! » .

هذه الحمى ، وهذا الصداع الملح ، وهذا المرض الذى يمكن الشخص من التحامل على نفسه أياماً عديدة ، دون حدوث غيبوبة أو تشنجات ، تشير إلى موضع إصابة بالمخ أو غشيته بأحد « الفيروسات » أو الجراثيم التى انتشرت فيما بعد وعرفت أسماؤها واكتشف الترياق المضاد لكل منها ، حتى أصبحت النجاة منها فى متناول الطبيب المعالج .

وقد تعطى الإصابة بالمalaria صورة شبيهة . . . وقد تكون الصحوات التى انتابت الرسول — صلى الله عليه وسلم — خلال محنته المرضية ، والتى مكنته من الإفاقة والسير على قدميه إلى المسجد — ليؤم الناس بين الحين والحين — هى التى تحدث بين مرضى « malaria » إذ تهبط الحرارة وترتفع ، وقد تكرر الساعات أو الأيام بين هذا الارتفاع والهبوط يتمتع المريض خلالها ، وقد يستعيد نشاطه إلى حد ما وإلى درجة تمكنه من القيام ببعض الجهود بالرغم من هزاله وتضعف حالته النفسية والجسمية .

وليس مرض « التيفود » جديداً على البشر ، إذ يرجع بنا تاريخ الطب القهقري إلى أيام « أبقراط » ، فيقول الرواة إنه وصف فى مذكراته مرضاً تنطبق أعراضه على الحمى التيفودية ، لأنه ذكر بين علاماته الحرارة المرتفعة المستمرة ، والإسهال ، والطفح الجلدى الوردى المحبب ، وألم البطن ، وفقد الوزن والشهية ، ونزيف الأنف ، والهلين عند اشتداد الحمى . وقد عاصرت جراثيمة هذا المرض أبناء آدم على مر الأجيال ، تضايق هذا ، وتعصف بحياة ذاك . ولم يعن أحد رغم ذلك باقتفاء أثرها ، بل اعتبرها الجميع من فصيلة « التيفوس » حتى عام ١٨٣٩ ، إذ أطلق عليها الطبيب الفرنسى

«لويز» اسم «التيفود» لأول مرة . ولكنه لم يحاول أن يفرق بينها وبين حمى «التيفوس» من الوجهة المرضية . والفضل في التمييز بين المرضين يرجع إلى «جرهارد» ، في فيلادلفيا عام ١٨٣٦ ، ثم إلى «ستيوارت» بجلاسجو عام ١٨٤٠ ، وأخيراً إلى سير «وليم جينر» ، الطبيب الإنجليزي الشهير ، الذي كشف لقاح الجدري . فقد أجرى هذا الأخير بحثاً في الفترة ما بين عامي ١٨٤٩ و ١٨٥١ وأثبت أن المرضين — التيفوس والتيفود — لا يمت أحدهما للآخر بأية صلة ، فكانت كلمته هي الفاصلة . وكان «لايبرت» أول من كشف جرثومة المرض ، في عام ١٨٨٠ . وفي عام ١٨٩٦ ، وصف «فيدال» طريقته الخاصة لتشخيص المرض ، وهي المعروفة باسمه حتى الآن . . . ولو أن طبيبين من فيينا ، هما «جروبر» و «دروهم» ، وصفها قبله بثلاثة أشهر . . . ولكن شاء التاريخ أن يلمع اسمه دون اسميهما .

وهكذا شغلت هذه الحمى أذهان الباحثين ، حتى توصلوا إلى اكتشاف جرثومتها وطريق العدوى بها .

وسواء كانت «التيفود» أو «التيفوس» أو «الملاريا» هي المسببة عن انتهاء حياة أطهر خلق الله ، فالنهاية واحدة ومحتومة ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

نهاية ابن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

إن الذى يستعرض ذرية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، يدرك تماماً أن الله أراد أن يمتحن إيمان رسوله فرزاه فيهم الواحد بعد الآخر ، وماتوا كلهم إبان حياته ، إلا فاطمة رضى الله عنها . ولقد اتفق جميع الرواة على أن جميع أولاد محمد (صلى الله عليه وسلم) كانوا من السيدة خديجة رضى الله عنها ماعدا إبراهيم عليه السلام إذ أنه ولد بالمدينة من السيدة « مارية بنت شمعون » القبطية .

ولقد ولدت له « خديجة » ولدين ، اسم أكبرهما « القاسم » ، وبه يكنى (صلى الله عليه وسلم) أى كانوا يدعونه أبا القاسم ، واسم الثانى « عبد الله » وقد ولد أولهما فى الجاهلية ومات فى الإسلام ، وولد الثانى فى الإسلام . كما أنها ولدت له أربع بنات هن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم . ولقد رتبهم الشيخ أحمد الحلوانى الخليلجى (نجله الاستاذ الدكتور أحمد الحلوانى ، العالم المصرى الكبير فى علم الطفيليات) حسب ترتيب ولادتهم فى نظمه .

بالقاسم ابن المصطفى وبزينب

ورقية هب لى القبول ، وفاطمة

وبأم كلثوم وعبد الله جُدْ

وقيف إبراهيم شر الحاطمة

ولقد بلغ « القاسم » سن المئتي ، غير أن رضاعه لم يكن قد كمل
عندما مات . . . ومات « عبد الله » أيضاً صغيراً . . . أى أن الرسول -
صلى الله عليه وسلم - لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين ، قبل
المبعث أو في مستهله . وتقول الدكتورة « بنت الشاطي » في كتابها :
« بنات النبي » ، إننا لو حاولنا أن نلتبس دليلاً يؤيد هذا ، لوجدناه
في سورة « الكوثر » ، وهي سورة مكية مبكرة ، فهي الخامسة عشرة في
ترتيب النزول بين السور المكية ، التي بلغت عدتها تسعاً وثمانين
سورة . . . فبعد وفاة « القاسم » ، ثم « عبد الله » ، قال « العاصي بن
واثل السهمي » : « قد انقطع نسله ، فهو أبتر » . فأنزل الله عز وجل :
« إنا أعطيناك الكوثر ، فصلٍ لربك وانحر ، إن شئت لكانت لك
الآبتر . . . »

يقول الزمخشري في تفسير السورة ، إن من أبغضك هو الأبتر وليس
أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع
على المنابر إلى يوم القيامة ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ،
يبدأ بذكر الله وينتهي بذكرك . . . وإنما الأبتر هو شائك المنسى في
الدنيا والآخرة ، وإن هو ذكر ذكر باللعن .

وفي ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، ولدت « مارية » - بالمدينة -
« إبراهيم » وقد مات ابن ثمانية عشر شهراً .

١٣٥

في إحدى زيارتي للمدينة المنورة - وهي حديلة بمحمد الله - زرت « البقيع » بعد صلاة الصبح . . . والبقيع كان مقبرة المدينة منذ الجاهلية إلى الآن ، وبعد دخولي ، انحدرت يمينا لأواجه أول ما صادفت رقعة مقدسة من الأرض ، عليها حجارة مرصوفة ، أشار إليها الدليل قائلا : « هذا قبر رقية وفاطمة ، ابنتي النبي - صلى الله عليه وسلم - . . . وهذا قبر زوجات الرسول] ، إلا السيدة خديجة التي دفنت في مكة وميمونة التي دفنت في سرف » .

وتأملت القبر بعد أن أزيلت عنه القباب والحدران عقب الغزو الوهابي ، فوجدته قطعة أرض مسطحة ، أحيطت بحجارة مرصوفة ، رُشق فوق كل منها حجر صغير ، علامة على مكان كل منهن .

وعلى بعد خطوات ، رأينا قبر « الحسن بن علي » ، شقيق « الحسين » وهو لا يختلف في منظره عن تلك القاعدة المتبعة منذ عهد الوهابيين ، إلا أنه ميز وكرم بمربع من الحجارة المرصوفة ، ورشقوا في جزء من هذا المربع الطاهر قطعة من الحجر ، لتدل على مكانه . ثم تساءلت : « أين قبر إبراهيم بن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو الذي سعد به الرسول لفترة وجيزة من حياته ، ثم مات ولم تنتصف السنة الثانية من عمره . . . فقيل لي : « انظر إلى الأفق البعيد ، تر رجلا ملتحفا بعباءة سوداء ، وقد وقف متأملا وكأنه يقرأ الفاتحة . . . اذهب إليه تجده قبر إبراهيم » . فأخذت أسير وبيدا ، حذرا من أن أتعثر في قطع الأحجار المتناثرة ، حتى وصلت إلى ذلك المكان ، فوقفت متأملا ، أناجي التاريخ البعيد . . .

وتخيلت الرسول وقد جاوز الستين من عمره . كان قد فقد أبنائه وبناته ، فلم يبق منهم إلا فاطمة رضى الله عنها ، وقد مضت عشر سنوات بعد وفاة خديجة ، وبعد زواجه من عائشة وسائر أمهات المؤمنين دون أن يعقب . . . فلما ولدت له « مارية » القبطية المصرية « إبراهيم » ، ركز فيه كل حبه وعطفه الأبويين . . . وكان يمر كل يوم بدار أمه ليناغيه ويضمه إلى صدره في حنان طاهر ، وكلما لاحظ غيرة أمهات المؤمنين أعرض عنهن ، وازداد بابنه تعلقاً . . . ولقد مرت الأيام سراعاً ، ترعرع الطفل خلالها ونما ، وازداد بوالده شبيهاً . ثم شاء الله — ولا راد لقضائه — أن يقطع عن نبيه هذا السيل الجارف من السعادة ، وأن يسترد وديعته ، فإذا اللبول ينتاب ابنه الغالى ، وملاك الموت يزحف في بطنه وتصميم نحو الطفل البريء ، لا يشفع له عند الله جل جلاله شيء ، فحقى حمّ القضاء فالكل عند الله سواء .

* * *

وشعر الرسول ذات يوم باقتراب النهاية ، فزادت آلامه النفسية ، وأخذ بيد « عبد الرحمن بن عوف » يعتمد عليه ، حتى وصل إلى حيث تقوم « مارية » بتمريض ابنها ، تعينها أختها « سيرين » . وهناك رأى فلذة كبده يجود بنفسه الأخير ، فتندت بالدمع عيناه . وجلس إلى جوار « مارية » وهو وجل مضطرب خائف ، كأى آدمى ينكب في فلذته . ثم أخذ الطفل في حجره ، وناجاه بصوت غلب عليه الألم الدفين قائلاً : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » . . . وتصرخ مارية وأختها

« سيرين » جزءاً ، والطفل فى غيبوبة ، يتشبث ببقية من الحياة ، وكأنه كان يأمل فى أن تشفع له الدموع الحارة المنبعثة من مآتى أبيه ، أو صراخ والدته وخلاته وهما تضرعان إلى العلى العظيم ذى العرش الأعلى . . . ولكن متى نقض الديان حكمه العالى ؟ . . . لقد قبض الموت روح الطفل البريء وهو لا يزال فى حجر أبيه .

وأخذ الحزن من النبى - صلى الله عليه وسلم - كل مأخذ ، وشرع يناجيه بصوت غلبت عليه العبرات قائلاً : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صادق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزننا عليك بأشد من هذا . . . ثم أردف وقد بلغت به الالهفة مداها : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، ولما يا إبراهيم عليك لحزونون . ثم يلتفت إلى مارية وأختها بعد أن كفكف دموعه رافة بهما ، وقال لهما : « إن له لمرضعاً فى الجنة » . . .

ثم قام ومعه عمه « العباس » وطائفة من المسلمين ، يشيعون إبراهيم بعد ما غسلوه ، وحملوه على سرير صغير ، إلى أن دفن فى هذا المكان الذى وقفت فيه . ولقد سوى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبره بيده الطاهرة ، ورش الماء عليه ، ووضع عليه علامة ، وهو يقول : « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى . وإن العبد إذا عمل عملاً أحب الله أن يتقنه . وعند خروج الناس من البقيع ، انكسفت الشمس ، فحسبوا هذا معجزة شارك فيها الكون رسول الله فى حزنه : فلما بلغه تهامسهم ، قال لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تعصفان لموت أحد ولا لحياته ،

فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة .
وعدت أدرأجى نحو باب جنة البقيع ، وكانت خطاى رفيقة ، رفيقة ،
حتى لا أزعج الراقيدين تحت ترابه . . .

* * *

والذى يستعرض أمراض الطفولة التى تؤدى إلى موت سريع ، فى مثل
سن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يحدها محصورة فى بضعة احتمالات .
فالمعلوم أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يمر كل يوم بدار
« مارية » ليداعب ابنه ويناغيه ، وكان الطفل يستجيب فى محبة وترحاب ،
حتى فوجئ الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومارية وأختها « سيرين »
بالدبول السريع الذى أدى إلى غيبوبة ، أعقبها وفاة غير مرتقبة ، بينما
الرسول فى أوج سعادته بابنه الغالى . . .

وفى اعتقادى - من الناحية الطبية - أن ما أصيب به سيدنا إبراهيم
ينحصر فى أحد احتمالين :

أولهما : النزلة المعوية الحادة ، لأن جراثيمها تترعرع فى الجوف الحار ،
وينقلها الدباب ، وما كان أكثره فى الحجاز حتى سنين قلائل . . .
والنزلات المعوية الحادة قادرة - حتى يومنا هذا ، وفى أكثر البلدان مدنية
وحضارة - على أن تعصف بحياة الطفل فى ساعات ، أو أيام ، إذا كانت
من النوع العاصف الكاسح ، ناهيك بالقصور المتناهى لاذك فى وسائل
العلاج ، من مضادات للحوية ، إلى حقن السوائل بالوريد تمنع الجفاف

القائل في الجسم البض : : : وهي وسائل يتمتع بها الطفل في وقتنا الحاضر ،
وكم أنقذت من أرواح غالية ! :

أما الاحتمال الثاني ، فهو الالتهاب السحائي والخنى بأنواعه ، سواء
الجرثومية منها أو الفيروسية . وكلها منتشرة في بلادنا ومنطقة الشرق الأوسط
عامة وعالم الجراثيم لا يعرف سنّاً ولا جاهاً ، يقتحم عتبات القصور
والأكوخ سواء بسواء . ومع تعاقب أجيال الباحثين والعلماء ، أمكن ابن
آدم اكتشاف بعض مغاليق هذه الجراثيم والترياق المضاد للكثير منها ،
ولكننا ما زلنا — حتى عصرنا هذا — في حيرة من أمر آلاف منها ، وما زال
ملاك الموت يسيطر عليها ، لتسقط الرؤوس التي قسم لها أن ينتهى أجلها
بإذنه سبحانه وتعالى .

هذه حكمة الله ! . . .

نهاية نابليون بونابرت

لم أشأ في الحلقة الأخيرة من الجزء الخاص بالموت — في هذا الكتاب — أن أقصر على اللحظات الأخيرة في حياة نابليون . . . لذلك أسوق مقتطفات من فصول كتاب سبق أن كتبت في صدر محاولاتي الأدبية ، وألحق به فصلا عن التعليقات العلمية والطبية لوفاة هذا البطل العظيم .

وحديث هذا الكتاب يثير ذكريات طريفة لا أرى بأساً من أن أوردها هنا . . .

كان « نابليون بونابرت » حلم صباى ! . . . كنت أقرأ كل ما يكتب عنه ، وأفرح لانتصاراته ، وأحزن لهزيمته في « واترلو » ثم نفى إلى جزيرة « سانت هيلانة » ، حيث سامه حاكمها « هلسون لو » كل أنواع العذاب ، حتى قضى نحبه ذليلاً مهيبض الجناح .

ونخطر ببالي يومئذ أن أكتب رواية عاش أبطاها خلال عهد حملته على مصر ، وسميتها « السر المكنون » . ونشرتها في مجلة اسمها « النديم الروائى » ، كانت تتبع مؤسسة « المقطم والمقطف » ، ويدير تحريرها المرحوم الأستاذ « إسحق صرّوف » . :-

والحق أن هذه المجلة كانت منبراً ، ظهر على درجاته الأولى كثير من الأدباء الشبان في ذلك الحين ، أذكر منهم الأساتذة : سليمان حزين ،

١٤١



نابليون يضع خطط المعركة مع ضباطه
قبل بدء المعركة (عن لوحة زيتية)

وعادل الغضبان ، و(العميد) عبد الرحمن زكى ، وعبد الرحيم طه ، والشافعى البنا ، وكامل البنا .

وكان المرحوم إسحق صروف ذكياً ، لماحاً . . . وقد بدأت أسهم فى تحرير مجلته وأنا طالب فى الصف الثانى من المرحلة الثانوية ، وذلك عن طريق المراسلة ، إذ ما كنت أجرؤ على أن تطأ قدماى عتبة دار المجلة المتواضعة . . . فقد كنت أتخيل صاحب المجلة عملاقاً ، ترتعد الفرائص مهابة له . . . ولم لا ، وهو الذى بيده أن يقبل أو يرفض منتجات أفكارى ؟ ثم ما أدرانى كيف تكون مقابله لى ، عندما يرانى شاباً يافعاً ، يلبس سروالا يكاد يكون قصيراً ؟ . . . وبقيت صلتى عن طريق المكاتبة حتى وصلت إلى الصف الثالث ، واقتربت كتاباتى من مستوى النضج . . . وقد كتبت القصة التى أشرت إليها ، لتنشر مسلسل ، وأرسلتها كاملة فى ظرف بدا لى ضخماً ، وكلفتى من طوايع البريد المسجل ما أرهق ميزانيتى المتواضعة . . . ويظهر أن صاحب المجلة المرهف الحس أراد أن يكافئى أدبياً ، فنشر فى صحيفة « المقطم » المسائية إعلاناً ، بشرفيه قراءة المجلة بأنها ستبدأ نشر « سلسلة من روائع تأليف الكاتب الألمعى الشهير مصطفى أفندى الديوانى » . . . أى أنه أضفى على صفة الشهرة وكنت عنها بعيداً جداً ، ومنحنى لقب « الأفندى » ، وكان العرف إذ ذاك أن هذا اللقب لا يكون حقاً مكتسباً إلا لمن يحصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة الآن) .

وظهرت المسلسلة فى ستة أعداد متوالية من المجلة ، تحت عنوان « السر المكتون » : : : ويجب أن أعترف بأننى كدت أندفع فى هذا الهال البديع إلى

١٤٣

أقصى مداه ، وقد أصبح لى قراء ومعجبون يطلبون منى المزيد كلما تراخيت ، ولكنى ماكدت أطأ عتبة باب كلية الطب - فى عام ١٩٢٣ ، بعد حصولى على (البكالوريا) - حتى توقفت عن الكتابة للمجلة تماماً . ولما بعث إلى مديرها المرحوم إسحق صروف بخطاب رقيق يلح على فيه بأن أستأنف الكتابة ، رددت عليه فى تصميم عجيب : « لقد قررت أن أكون طبيباً : : : » .

* * *

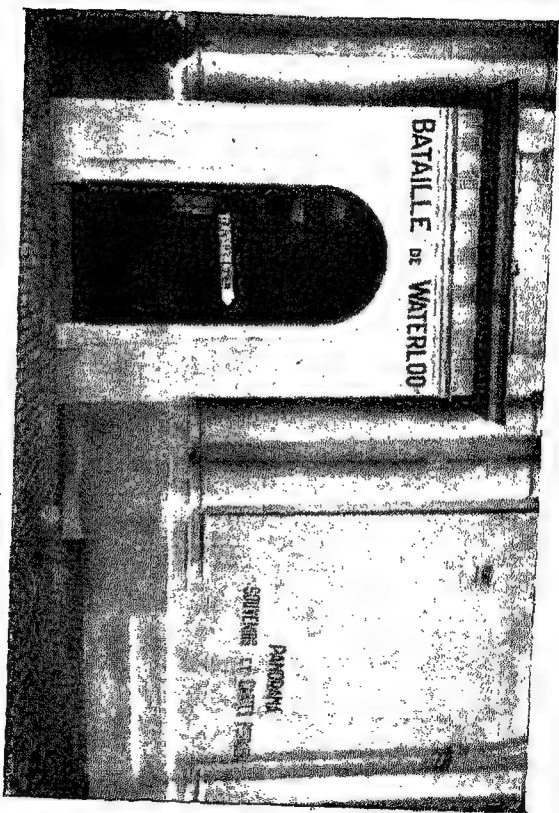
وبقيت عند كلمتى للمرحوم إسحق صروف ، فامتنعت عن الكتابة حتى تخرجت فى كلية الطب ، ثم سافرت فى بعثة للتخصص فى أمراض الأطفال ، بعد أن قضيت بقصر العينى حوالى أربع سنوات . وعدت من البعثة لأعمل مدرساً فى عام ١٩٣٦ ، ثم اجتذبتنى هوية الكتابة من جديد ، فاتجهت إلى هوامش الطب ، وأخرجت كتاباً عن « حياة الطفل » ، أعيد طبعه ثمانى مرات حتى الآن :

والواقع أننى عندما حاولت تأليف ذلك الكتاب ، كنت أجهل التفاصيل الصغيرة اليومية لحياة الطفل - مثل : الأكل والحمام والنزهة وغيرها - بالرغم من أننى كنت حاصلًا على أعلى الشهادات فى أمراض الأطفال وطرق علاجها . ولكنى اضطررت إلى النظر فى المراجع العديدة فى هذا الشأن ، وأخذت أنهل منها ما يفيدنى كوالد ينتظر طفله الأول ، الذى كان فى عالم الغيب حينذاك ، وهو الآن الدكتور خليل ، المدرس بقسم الأطفال بكلية الطب ، فى جامعة الأزهر : : : ومن هنا وجد

الكتاب طريقه إلى قلوب الأمهات في سهولة ويسر ، واشتد إقبالهن عليه على مدى الأعوام ، مما يغتبط له قلب كل مؤلف .

وهكذا ، كان هذا الكتاب بداية الرجوع لحواتي القديمة . . . هوية القلم . وكانت مجلة « الثقافة » قد ثبتت أقدامها في عالم الصحافة ، فدللت من بابها في هدوء ، وأخذت أكتب لقراءها الذين كانوا ينتمون إلى طبقة خاصة ، أى أنها لم تكن مجلة كل قارئ . . . وهذا ما كنت أبعيه ، لأنى كنت أفضل الانزواء وأنا أستأنف هوايتي ، حتى لا يعرفني الجمهور ككاتب ، وأظل في نظره — أولاً وأخيراً — طبيب الأطفال الذى يأخذ بأيدي فلذات الأكباد إلى بر الأمان .

وكان المرحوم الدكتور أحمد أمين — رئيس « الثقافة » — يشجعني ويوافق على نشر مقالتي دون تردد . وحدث في سنة ١٩٤٣ ، والحرب العالمية الثانية مشتدة الوطيس ، أننى كنت أصطاف برأس البر ، في « عشة » مجاورة لعشته رحمه الله . وكان معي كتاب أقره وعن حياة « نابليون بونابرت » من تأليف « جوزيف آبوت » ، اجتذبتني من بين صفحاته — التي جاوزت الألف صفحة — ذلك الجزء الذى يصف نهاية نابليون ، منذ فشله في حملة روسيا إلى وفاته منفيًا في جزيرة « سانت هيلانة » . فأخذت أترجمها على حلقات ، وكنت كلما انتهيت من حلقة ذهبت بها إلى الدكتور أحمد أمين في عشته ، فأجده جالساً في كرسى مريح ، ينظر نحو البحر مستنشقا هواء الليل ، فيدعوني إلى أن أبقى معه بعض الوقت ، أرتشف مرتباً أو قلحاً من القهوة ، ثم أناوله وريقات الحلقة فيقبلها في هدوئه وأدبه



مدخل البني الكبير الذي تقع فيه (البانوراما) التي تبين تفاصيل المعركة

المعروفين ، شاكراً لإسهامى فى ملء صفحات الحجلة ، ثم يرسلها للنشر فيها مع بريده اليومى الخاص .

وظلت الأيام تجرى وأنا ألث معها ، وإعجابى بنابليون لا يطفئه مر السنين . . . وفى نوفمبر ١٩٦٨ ، انتهزت فرصة وجودى ببروكسل عاصمة بلجيكا ، حيث ذهبت لزيارة ابنتى « مائسة » وزوجها الدبلوماسى « محمد شلقامى » . . . فكثرت فى زيارة الضاحية التى كانت مسرحاً للمعركة « واترلو » ، وهى تبعد عن بروكسل حوالى الاثنين والعشرين كيلومتراً ، واصطحبني صديقى « لطفى جاد الحق » - مستشار السفارة - فى سيارته ، وكان اليوم مشمساً جميلاً :

وكننت كلما اقتربت من مكان المعركة ، تحيب صوت نابليون يرن فى أذنى ، وهو يصيح فى جنوده : « إلى الأمام ! » . . . فيطيعونه طاعة عمياء ، غير مباليين بأنهم قد يلاقون حتفهم من عدو ينتظرهم فى الجانب الآخر : ولما وصلت إلى مكان المعركة ، خفق قلبي بعض الشيء ، وانتابنى وحوم أخذ يتلاشى تدريجياً كلما توغلت السيارة فى شوارع الضاحية الجميلة ، التى بدت فى حياد غريب ، بالرغم من تاريخها الحافل . . فالمرعى لا يدرك مداها البصر فيها العجول والخراف ، غير عابئة بأن المروج الخضراء كانت مشهداً لمعركة فاصلة ، من أروع وأعظم معارك التاريخ ، وهى معركة « واترلو » . ورأيت بعض المنازل والمباني على جانبي الشارع الرئيسى ، قيل لى إن تاريخها يرجع إلى أيام المعركة ، وقد تحول بعضها إلى متحف ودار للسينما لا تعرض إلا أفلاماً عن نواح مختلفة من

١٤٧



لوحة بواجهة دار السينما بواترلو . ويرى فيها نابليون رافعاً قبعته
التقليدية بيده محيياً ضباطه قبل بدء المعركة الفاصلة

حياة «بونابرت» . . . وتجد — كالعادة في مثل هذه البقع السياحية — مقاهى على درجة عالية من النظافة ، يمكنك أن تتناول فيها المرطبات والمشروبات البريئة .

* * *

ومى خرجت من المقهى الكبير ، واتجهت يساراً ، بلغت نظرك مبنى كبير بواجهته استدارة ، وقد كتب عليها بخط كبير « بانوراما معركة واترلو » ويدفعك حب الاستطلاع إلى الدخول — مقابل قليل من الفريكات — لترى معجزة فنية كبرى . . . فإن تفصيلات المعركة التاريخية الكبرى رسمت بالألوان الطبيعية ، على شكل لوحات بلغت من الضخامة درجة كبيرة ، إذ كان كل ما فيها من آدميين وخيول بالحجم الطبيعي . . . كانت الصور مثل الحياة تماماً ، فالخيول النافقة والقتلى من الجنود والضباط يبدو على تقاطيعهم — دون استثناء — كل ما فى الموت من جلال ، وقد تبرز عيون بعضهم من المحاجر ، منبهة بأن الفرع الهائل كان آخر انفعالات حياتهم . . . وفى ناحية بعيدة من « البانوراما » ، ترى نابليون يندم ركباً جواده ، وحوله قواده ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، قبل أن يأفل نجمه إلى الأبد . . . وتراه من بعيد مطأطئ الرأس ، وقد طغى الأسى على كل تقاطيع وجهه الصارمة . وكنا نستعين بالنظارات المكبرة لرؤية هذه المناظر ، التى بلغت من روعة الإخراج ودقته درجة يخيل إليك معها أنها تبعد عنك أميالاً ، وهى فى الواقع أقرب إليك من هذا بكثير . . . وتظل فترة طويلة من الوقت مدهوشاً مهوراً ، وأنت تقلب ناظريك مدققاً فاحصاً ، حتى تخرج من

مترى نابليون وحاشيته بلونجورد . وقد أقام فيه ابتداء من ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٥



هذا المبنى الضخم ، لترى النور من جديد يؤنسك بعد انقباض .
ولا تكاد تفيق من فيض الذكريات ، حتى تلمح خلف هذا المبنى
نصباً تذكارياً فريداً في نوعه . . . وهو شبه هرمي ، كسيت جميع أضلاعه
بالخضرة الدائمة ، ويبلغ ارتفاعه مائة متر على الأقل ، يعلو قمته تمثال
أسد كبير رفع ذيله إلى أعلى ، ووضع قدمه اليمنى على كرة كبيرة من البرونز ،
وكانها العالم الخاضع للقوة . . . ويمكن الصعود إلى هذه القمة بواسطة
سلم تبلغ درجاته المئات . . .

وفي طريق العودة إلى « بروكسل » ، سألت نفسي قائلاً : « هل ارتوى
غليلك أيتها النفس المتعطشة دائماً إلى تاريخ رجل أحلامك ؟ . . .
لقد تسمرت قدمي أكثر من مرة ، وأنا أفق تحت إلحاحك عند تابوته
الأحمر القاني ، في تلك الهوة العميقة الكائنة تحت قبة « الانفاليد » بباريس ،
ورجعت تلك القهقري متتبِعاً تفاصيل نهايته المحزنة في منفاه ، حتى نقل
جثمانه إلى فرنسا التي أحباها من كل قلبه . . . وذلك في الكتاب الذي أسميته :
« نابليون على فراش الموت » . . .

والآن ، اقرأ معي بعض ما اقتبسته من كتاب « جوزيف آبوت » عن
حياة بوناپرت في أيامه الأخيرة في سانت هيلانة ، نستعرضها سوياً بمناسبة
مرور مائة وخمسين عاماً على وفاته بجزيرة سانت هيلانة .

عندما فتح الباب قبل نقل الرفات إلى فرنسا التي أحياها من كل قلبه



١٥٢



مدخل متحف الشمع بواترلو

حملة روسيا بدء . . . للنهاية

لما آن للنجم أن يأفل ، وللشعلة الدائمة أن تخبو ، أضله
الوحي بأن يذهب إلى روسيا ، حيث الخير العميم والنعيم المقيم ،
فلم يجد إلا البرد والموت والدمار . . .

غادر الإمبراطور ميناء « دانتزج » في ١١ يونيو ١٨١٢ ، ووصل إلى
« كونسبرج » في اليوم التالي . وهناك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية
اللازمة لجيشه خلال زحفه في روسيا الواسعة الأرجاء ، وكان يهتم بأدق
التفاصيل ويعمل لإرشاداته طول الليل والنهار . . .

وكان قوام الجيش أربعمئة وعشرين ألف رجل ، نظموا في ثلاثة
عشر فيلقا ، عدا الحرس الإمبراطوري . وكان يصحبها بضعة آلاف من
عربات الذخيرة ، وقطعان لا حصر لها من الثيران ، وألف وثلثمئة واثنتان
وستون مدفعا ، وعشرون ألف عربة من مختلف الأحجام ، ومائة وسبعة
وثمانون ألف حصان .

وتحركات هذه الجماعات كتلة واحدة حتى وصلت إلى ضفة نهر « النيمن »
وكان الجو بديعا ، والسماء صافية ، والحقول خضراء مزدهرة . وكانت الثانية
صباحا عندما وصل نابليون إلى بلدة « كاو نو » ، فأخذ ينظر إلى الفضاء
الواسع أمامه على الضفة الأخرى من النهر . وشعر بدهشة غريبة ، إذ أنه
لم يواجه إلا ظلاما دامسا . . . كان كل شيء يدل على أن أهل هذه المدائن

قد هجروها . والواقع أن « القيصر إسكندر » — عاهل روسيا — كان قد أصدر تعليماته بأن يتقهقرا الجيش بانتظام أمام العدو ، وأن يدمر — في أثناء انسحابه المنتظم — جميع الجسور والقرى والمدائن ، فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافتح أو البرد القارس ! .

ونصب الجسور في ثلاثة مواقع من النهر ، فأقبل الجيش يعبر في نظام ودقة ، والإمبراطور يراقبه عن كثب . . . ثم واصل زحفه حتى وصل إلى ضواحي « فيلنا » ، في اليوم السابع والعشرين . وكان القيصر ألكسندر في حفلة راقصة ، في قصر أحد النبلاء ، فلما سمع بأن نابليون يحتاز نهر « النيمان » ، أسرع إلى مغادرتها بعد أن أصدر أوامره بحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بكل ما فيها ، حتى لا تقع في أيدي العدو .

ودخل نابليون مدينة « فيلنا » في ٢٨ يونيو ، فاستقبل استقبال الغزاة الفاتحين . فقد كانت المدينة عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذي اغتصبه الروس . فعاد أهلها الإمبراطور محرّره من رقة الاستعباد ، ومعيد مجد ملكهم التي اقتسمتها الدول المحيطة بها .

ومكث نابليون في هذه المدينة ثمانية عشر يوماً ، نظم فيها شؤون جيشه ، واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة ، فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير ، وعلى الرغم من أنه لم يخض معركة ما ، فإنه فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلاّت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه ، حتى لقد بلغ عدد من لجأ إليها خمسة وعشرين ألفاً من الجنود .



نابليون وهو جالس على صخرة في الجزيرة على مذكرة

وفى أثناء مقامه بهذه المدينة ، أرسل إليه القيصر رسولا ليعرض عليه استعدادده للدخول فى مفاوضات للصلح ، على شريطة أن يتقهقر نابليون بجنوده إلى ما وراء نهر « النيمن » فرفض الإمبراطور على الفور ، وأظهر استعدادده للمفاوضة على شروط معقولة . ولكن القيصر لم يسمعه إلا الرفض ، نظراً لارتباطه بمعاهدات مع إنجلترا حدثت - فى ذلك الوقت - من حريته فى العمل .

* * *

ومضى نابليون فى تقدمه والروس ينسحبون أمامه ، تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار فى كل مكان - فكانت جياده تنفق لعدم وجود العلف اللازم ، وجنوده يفنون جماعات من الجوع . وكان الجيش قد توغل خمسمائة ميل فى داخل الأراضى الروسية دون أن يلتقى مقاومة أو قتالا . فجمع نابليون مجلس الجيش . وأشار عليه معظم أركان حربه بأن يوقف الزحف حتى حلول الربيع . ولكنه رفض هذا الاقتراح رفضاً حاسماً ، وعزم على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسى ، الذين كانوا ينتظرون فى دفة وجزع نتيجة الحماة الروسية . وكان نابليون يعلم أن القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة « سمولنسك » ، استعداداً لموقعة فاصلة . فاستأنف زحفه فى يوم ١٣ أغسطس وكان الحر شديداً لافحاً ، فمات كثير من جنوده ، ونفق كثير من خيله . وبعد رحلة شاقة مضنية ، وصل إلى أبواب « سمولنسك » ، مساء يوم ١٦ أغسطس ، فاعتلى نابليون ربوة عالية ، وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو

المختشدة في نظام واستعداد . وصاح وهو مغتبط : « ها قد وجدهم أخيراً ! . . . » .

وحدث قتال بين طلائع الجيشين ، نجح الروس في أثنائه في إخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها . وبعد منتصف الليل ، فوجئ الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة من قصور ومنازل ومحازن وكنائس ، وعندما نقلت فرقة فرنسية إلى المدينة في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لم تجدها فيها جندياً روسياً واحداً . . . بل بلغت قسوة الروس في تقهرهم أن تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران . وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الإمبراطور إلى قمة إحدى القلاع ، وسدد نظاره إلى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين ، أحدهما اتجه شمالاً في طريق بطرسبرج ، والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ، ونصب المارشال « ناي » قائداً على الجيش المتجه نحو موسكو .

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر . ومع انتصاراته المتوالية ، استمر الروس في سياسة التخريب والتدمير ، فأخذت الجيوش الفرنسية تعاني الأمرين لقلة المؤونة والطعام والمأوى . وازدحمت المباني — التي نجت من فعل النيران — بآلاف الجرحى والمرضى . وكان الإمبراطور في حالة يأس شديد . . . فالتكوص يعرضه لسخرية أوروبا ، والتقدم مغامرة لا يملها إلا القنوط . . . ومع ذلك ، صمم على مطاردة الجيش الروسى حتى موسكو بجيشه البحائع العارى تقريباً . . . ولم يكن يخطر له أن القيصر

إسكندر يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ، ومجدها التليد ، وسكانها البالغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة .

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً . وشتت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين ، وأقامت كل عقبة ممكنة في سبيل الجيش التمس . . . حتى إذا كان يوم ٤ سبتمبر ، وصلوا إلى مدينة « بورودينو » ، حيث صادفوا أول مقاومة جديّة ، إذ تربص بهم جيش قوامه مائة وسبعون ألف جندي ، مجهزين أتم تجهيز ، ومستعدين لبلد آخر قطرة من دماهم في سبيل حماية الطريق إلى موسكو . وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد ، وأدرك بنظره الفاحصة مواطن الضعف التي يسددهم هجومه إليها ليوقع الارتباك في صفوف العدو . ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم .

وجلس نابليون في خيمته يفكر فيما قد يأتي به الغد ، وإذا برسول يحمل إليه خطاباً وصل في تلك الساعة من زوجته « ماري لويز » ، ومعه صورة لولده العزيز . وكان الفجر يوشك أن ينبلع ، ونابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه . ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول في الحال . فأخذ منه الرسالة بلهفة عظيمة . . : وحالما وقع نظره على صورة ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه :

وحاول أن ينام قليلا ، ولكن تعبته وجزعه حالا دون ذلك . وأصابه عطش شديد ، وعيناً حاول أن يروى غليله : وما إن بزغ الفجر وانفثت السحب ، حتى امتطى صهوة جواده ، ونظر إلى الشمس المشرقة

في انشراح وأمل ، وقال لمن حوله : « لاني أرى شمس أوسترليتز » !
ودارت معركة حامية ، كلف النصر فيها نابليون غالباً ، فقد فقد ثمانية
من أعظم قادة جيشه ، بينهم كونت « كولينكور » .

وما جاء يوم ٨ سبتمبر ، حتى ملك نابليون ناصية الموقف ، فاحتل
المدينة . بينما بدأ الجيش الروسى فى التقهقر نحو موسكو : ولم يفرح
نابليون بتلك النتيجة ، لأنه فقد فى تلك المعركة - بين جريح وقتيل -
ثلاثين ألف جندى وثلاثة وأربعين من القادة الذين لازموه فى انتصاراته
السابقة . . . وتصور حزن اليتامى والإرامل والآباء والأمهات الذين فقدوا
أعزاءهم فى تلك المعركة الدامية ، وثوب الحداد الذى سوف تلبسه فرنسا
لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا .

ولكنه واصل زحفه ، حتى وصل إلى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤
سبتمبر ، وبينما هو معتل صهوة جواده ، أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من
بعيد إلى موسكو الخالدة ، بقبائها ومآذنها . وصاح من قلبه قائلاً :
« يا إلهى ! . . . ها هى ذى عاصمة القياصرة المشهورة ! » . . . وظن
الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء ، فأخذوا يصيحون بدورهم :
« موسكو ! . . . موسكو ! . . . » .

وأسرعوا فى التقدم نحو المدينة ، ولكن عجبهم كان شديداً ، إذ لم
يلاحظوا فيها أثراً ما للحياة أو الحركة . وجاءتهم الأخبار من فرق الكشف
بأن الروس قد هجروا المدينة . ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال
النار فيها ، بالرغم من أن معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء إلى

الغابات المجاورة ، حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً ، بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر . وكان الانسحاب سريعاً حتى إن السيدات تركن حليهن وأدوات زينتهن في أماكنها ، وحلف رجال الأعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفي الأدراج :

وعين نابليون « موريثيه » حاكماً على المدينة . وفي الصباح ، انتقل إلى قصر « الكرملين » واتخذ مقرأً ، وكتب إلى القيصر ألكسندر يعرض عليه صلحاً شريفاً ، مذكراً إياه بصداقتهما القديمة . وأخذ الجنود يميلون في أنحاء المدينة المهجورة . واحتاوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم .

وبقي بالمدينة حوالي عشرين ألفاً من الروس ، وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش الروسي . فأخذ هؤلاء يعدون العدة في الخفاء لتدمير المدينة وإحراقها . وتسلاوا إلى أقبية « الكرملين » حيث أقام نابليون وأركان حربه ، وإلى جميع القصور والأبنية التي نزل فيها الفرنسيون فدمسوا فيها سراً مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها في الوقت المناسب . ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها ، وعطلوا وسائل إطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروس فرصة المهرج الذي صاحب دخول الفرنسيين المدينة ، ودبروا خططهم دون أن يفتن أحد إليهم .

* * *

أوى نابليون إلى فراشه في منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ ، وهو في أشد حالات التعب وشروء الفكر وانشغال البال . وكانت العواصف

تهيب بشدة . وفجأة ، امتلأت الشوارع بتلك الصيحة البرهية التي طالما خشيا نابليون : « النار ! . النار ! » واندلعت ألسنة اللهب في شرق المدينة ، وسمع دوى الانفجار في كل مكان ، فنسفت المنازل والقصور بمن فيها . واهتزت أرجاء المدينة في شبه زلزال خفيف . أو بركان يقلف حممه . وساعدت العواصف على امتداد ألسنة النار في جميع أنحاء المدينة ، فتحوّلت في مدة قصيرة إلى جحيم .

واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر ، وساعدتها الروابع على الانتشار . . . وأخيراً وصلت إلى قصر الكرملين ، فأحاطت به من كل جانب ، حتى بدا الحرب منه - لأول وهلة - في حكم المستحيل . وأخذ الإمبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم ، وقد كادوا يخنقون بفعل الدخان والنار . . . لولا أن ظهر المارشال « دافوست » وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاة . . . فما كاد يلمحه نابليون حتى احتضنه بشوق ولهفة ، ثم تابع معه السير إلى خارج أسوار المدينة ، حيث لجأ إلى قصر « بتروفسكى » ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

وانسحب الجيش الفرنسي من المدينة ، وعسكر في الفضاء الواقع حولها . وكان الجوع والحرى قد أخذوا منه كل مأخذ ، والشتاء يقرب ببرده القارس ، وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون إليه من قسوته . وكان يفصلهم عن فرنسا أكثر من ألفين من الأميال ، فكان الموقف داعياً إلى اليأس والخنوط بوجه عام .

وأخذت النيران تتجنى إلى الخمود أخيراً ، ونجا جانب كبير من

«الكرمليين» من عدوانها ، فعاد نابليون إليه مع حاشيته ، في يوم ١٨ سبتمبر ، في انتظار وصول رد من القيصر إسكندر عن خطابه . ولما لم يصله الرد ، أرسل مندوباً من قبله لمقابلة القائد العام الروسى «كوتوسوف» فقابلته هذا بفتور ، ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطاب نابليون .

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة ، دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور . وبعد مناقشات تاريخية ، استقر الرأى على الانسحاب من روسيا .

* * *

مكث نابليون وجيشه في موسكو أربعة أسابيع . . . ولم يأل جهداً — خلال هذه المدة — في إعادة تنظيم جيشه ، وإقرار النظام بعد الفوضى التى سادت نتيجة حريق موسكو المدمر . وما أطول الأيالى التى قضائها وهو يعمل على راحة جنده — وخاصة الجرحى منهم — ويراقب فى قاق تطور الجلو المنتظر . . . لقد رجع إلى التقارير الجوية الخاصة بالأربعين سنة التى سبقت الحملة ، ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقى فى روسيا ، والأمل يحده فى الصلح مع القيصر . . . ولكنه تبين أن الخطر داهم ، لا مفر منه . فاستفحل همه ، وشعب لونه ، ونقص وزنه .

وبحلول شهر أكتوبر ، بدأت أوراق الأشجار تتساقط ، تاركة الأغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية . وبدأ الثلج والصقيع قبل

١٦٣

مبعادهما الطبيعي بتلاثة أسابيع ، مما زاد في همّ الإمبراطور وتصميمه على الإسراع في الارتقاء في أحضان بولندا ، حيث يجد الجنود نارا وطعاما وماوى . وبالرغم من أن المسافة إلى بولندا حوالى ألف ميل ، فإنه صمم على القيام بهذه المغامرة ، معتزماً أن يسلك طريقاً آخر عبر الذى سلكه عند زحفه ، آملاً أن يصادف مدائن عامرة تدل الخرائب والأطلال والحرائق التى تركها الروس وراءهم .

وبدأ التجهيز فى يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٢ . وعهد نابليون إلى « مورتيه » — وكان قد عينه حاكماً على موسكو — بحماية مؤخرة الجيش ، وترك معه ثمانية آلاف جندي . وخرج الإمبراطور من قصر « الكرملين » فى فجر ١٩ أكتوبر ، والسما صافية . والواء بارد منعم . . . حتى إذا جاوز حدود موسكو ، كانت الشمس قد أشرقت فى الأفق البعيد ، فأشار إليها نابليون بإصبعه ، قائلاً لمن حوله : « انظروا يا رفاق ! . . . ها كوكبي الحارس ! . . . هيا بنا إلى فالوجا . والويل لمن يقف فى طريقى ! . . . » ثم تقدم إلى مورتيه ، فاحتضنه وقال له بصراحة وحزن : « إن مهمتك شاقة وخطيرة ، ولكن علينا جميعاً واجبات وتضحيات لا بد لنا من أن نقاسمها » .

ولقد احتفى « مورتيه » بأسوار « الكرملين » ، ووضع فى أقبية وسراييه مائة وثلاثة وثمانين ألف رطل من البارود ، ووزع براميل كثيرة منه فى غرف القصر وممراته ، حتى إذا ما استوثق من أن آخر جندي فرنسي قد رحل عن المدينة ، أشعل النار فى البارود فأخذ اللهب يسرى ببطء ،

بينما انطلق هو وجنوده يسحبون بسرعة . ولما رأى القوزاق القصر خالياً ، هجموا عليه طامعين في الاستيلاء على ما به من ثقاتس . ولكن . . . ما لبث أن دوى انفجار هائل أتى على القصر وما به ، وقضى على عدد كبير من الجنود المهاجمين . وكان الانفجار شديداً ، حتى إنه أيقظ نابليون من نومه ، مع أنه كان على مسيرة ثلاثين ميلاً من موسكو . . . وإذ ذاك نهض في ارتياح ، إذ علم أن جنود المؤخرة من الفرنسيين قد غادروا المدينة :

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنتسحب ، في مساء ٢٣ أكتوبر . واستمرت كرات العدو في فترات متقطعة على الجيش النعس ، ولكن نابليون صمم على متابعة السير ليصل إلى «سمولنسك» و «منسك» ، مهما كلفه ذلك . ففضى الجيش المهلك في رحلته المحفوفة بالخطار ، حتى وصل إلى «بورودينو» في يوم ٢٨ أكتوبر ، وإلى «فيازما» في يوم ٣١ منه . وهناك عهد نابليون إلى المارشال «ناي» بمهمة حماية المؤخرة الجيش . وعندما استأنف الجنود مسيرهم ، هبت عاصفة ثلجية على الجنود ، فدفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج . ويا ليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، بل أحاطت بالجيش - وهو في نحته - جماعات من جنود العدو ، أخذت تصليه ناراً حامية . وكان القوزاق يمثلون ببحث الموقى أشنع تمثيل ! . . .

هكذا استمرت الحال طيلة الطريق إلى «سمولنسك» . . . وما إن يأتي الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه حتى تهلك معه الألوف من البشر

والخيل . وكان الجنود يتزعون لجلود الحيات النافقة ويلتحفون بها ، ويضبطون أحياناً إلى قتل الجياد حتى يرتووا بدمائها الساخنة ، لعلها تساعدهم على مقاومة البرد . وكان المارشال « ناي » يتولى حماية المؤخرة على أرفى وجه ، طيلة الرحلة . . . وجنوده يسقطون الواحد تلو الآخر ، فيستبدل بهم غيرهم . وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب « أشجع الشجعان » :

* * *

وقبيل الوصول إلى « سمولنسك » ، وصل مبعوث يحمل بعض الرسائل إلى الإمبراطور ، فأخذ يفضها باهتمام وتلهف ، وإذا به يعلم بتدبير مؤامرة في باريس للقابض على الحكومة الإمبراطورية . فقد زور أحد الضباط — واسمه « ماليه » — مستنداً يثبت موت نابليون في أثناء الحملة الروسية ، فساد الدعر في البلاد ، وانتهز « ماليه » الفرصة فجمع حوله بضعة مئات من الحرس الأهلي ، وحاول أن يقبض على زمام الحكم . . . ولكن المؤامرة سرعان ما أحبطت ، وقبض على الضابط وأعدم رمياً بالرصاص . وعلى أثر قراءة هذا التقرير ، صمم الإمبراطور على أن يسافر وحده ، في أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه .

واستغرق لم شعث الجيش خمسة أيام . ولكنه لم يكد يستأنف رحلته ، منطلقاً من « سمولنسك » ، حتى صادفته متاعب أخرى بسبب إغارات العدو المتوالية . وكان أهمها الهجوم الكبير الذي قام به القائد الروسى « كوتوسوف » ، بجيش من تسعين ألف رجل ، وافي العدة ووافر الغذاء

والملبس . وكانت المعركة شديدة ، خسر فيها نابليون الآلاف من جنوده ، واضطر لامتنشاق الحسام بنفسه ، قائلاً : إننى أنزل من مقامى كإمبراطور ، لأعود إلى منصب الجنرال الذى طالما تقت إليه . وقاد جنوده واخترق صفوف العدو ، وأوقع الاضطراب فيها ، مما اضطر الروس إلى الانسحاب — بالرغم من تفوقهم عدداً وعدة — بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة :

وواصل الجيش الفرنسى سيره ، وقد أخذت منه الضربات المتوالية كل مأخذ . ولعل كارثة عبور نهر « البيريسينا » كانت أشد كارثة لحقت به ، إذ كان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر ، فاضطر الفرنسيون إلى أن يقيموا جسراً آخر . وفعلاً نجحوا فى تحويل أنظار العدو المتربص بهم ، ريثما أتموا بناء الجسر . . . وكانوا يشتغلون فى أثناء الليل ، ويختبئون فى الغابات فى أثناء النهار . . . والإمبراطور يشرف بنفسه على العمل .

ولما حان وقت عبور النهر ، تقدم نابليون الجموع فانتقل إلى الضفة الأخرى . وصباح عند وصوله : « إن نجمى لا يزال عالياً ! » . . . ولكنه لم يكذب ، فغرق وقاتل آلاف من جنوده . ولكن نابليون قاد قواته لرد هجوم العدو ، بينما أخذ المهندسون فى إصلاح الجسر ، منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم . واضطر العدو أخيراً إلى التقهقر ، مؤجلاً انتقامه إلى فرصة أخرى .

وواصل الجيش المنكوب إلى الأراضى البولندية ، فاطمأن نابليون نوعاً ما ، ودعا قواده إلى العشاء ، ثم أبدى لهم رغبته فى الرحيل إلى فرنسا ،

١٦٧

تاركاً لهم مهمة إتمام الرحلة ، مؤكداً لهم أنه سيعود إليهم قريباً على رأس
ثلاثمائة ألف جندي مجهزين مدربين . لاستئناف الزحف على روسيا . ثم
ضمهم إلى صدره الواحد بعد الآخر مودعاً .

وبعد رحلة قصيرة — تعرض نابليون في أثنائها للأسر بضع مرات —
وصل ومرافقوه بسلام إلى « فيلنا » ، ودخلوا « وارسو » في ١٠ ديسمبر .
وبعد راحة قصيرة ، استأنفوا رحلتهم ، فوصلوا « درسدن » في الساعة
الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر . . . وفي منتصف ليل ١٨ ديسمبر ،
كانوا على أبواب باريس .

في الأسر

وكأنما بدأ نحسه بحملة روسيا . . فتوالت النكبات والهزائم
ورضى بأن يذهب إلى جزيرة « البيا » ليقضى بقية حياته . ولكن
علموه إلى الغزو والسيادة دفعه إلى محاولة الهروب من الجزيرة ،
والمودة إلى أرض الوطن ليحرب حظه مرة أخيرة . . فكانت
موقعة « واترلو » ، التي عاد منها محطماً مهزوماً . . وانتهى به
الأمر إلى الوقوع في أسر أعدائه . .

« دعوني وحدي ! »

فاه نابليون بهاتين الكلمتين إذ عاد إلى قصر « الأليزيه » ، عقب
انسحابه من ساحة « واترلو » ، التي أفل فيها نجمه إلى الأبد . . . وكان
وصوله بعد منتصف الليل بقليل ، فوجد في انتظاره — عند باب
القصر — بعض خدمه المخلصين ، وصديقه الحميم « كولينكور » . وكان
الإعياء بادياً بوضوح على وجهه ، إذ أضناه التعب والسهرة والسفر
الطويل . وفيما هو يصعد درجات السلم ، خافته ساقاه وكاد يسقط ، لولا أن
أمسك صديقه بذراعه . وكان هذا الرجل الذي دوّخ العالم مطاطئ الرأس ،
غائر العينين ، مهدل الثياب ، يتمم عبارات الأسى والحزن على ما صار
إليه أمره وأمر جنوده وفواده البواسل . . . حتى إذا ما وصل إلى أول مقعد
صادفه ، ارتبى عليه ، وتهد بخرقة ، وقال في تضرع لمن حوله : « دعوني
وحدي ! » .

١٦٩

(مكان المركة) مراح شاسعة تفرح فيها الجمول والخراف



وبعد أن استراح قليلا ، قام إلى الحمام . فأزال عن جسمه آثار المعركة ثم ارتجى على فراشه محاولا النوم دون جدوى . وأخيراً استدعى صديقه « كولينكور » ، وأخذ يتحدث إليه في هدوء ممزوج بالحزن قائلاً : « إن الضربة التي أصابتني في وائرلو قاتلة بلا ريب ، ولا أمل لي في النهوض بعدها .. لقد كانت خطئي ترى إلى مع اتصال الجيشين المعادين ، وكدت أنجح لو أن خانتي الوغد « بورمونت » وانضم إلى الأعداء في آخر لحظة . . يا للخائن الوغد ! . إن دم فرنسا كلها يقع على رأسه ، وسوف تحل عليه اللعنة إلى الأبد ! . . أما « جروتشي » فقد تأخر في الوصول إلى نجلدني ، ولا أدري أكان ذلك بدافع الخيانة أيضاً ؟ ! » .

وبعد أن سكت قليلا ، استطرد قائلاً : « سأدعو المجلسين إلى اجتماع أصف لأعضائهما فيه - بكل أمانة ودقة - تفاصيل النكبة وأسبابها ، وأناشدهم القيام بمحاولة أخرى لإنقاذ الوطن . فإذا استجابوا دعوتي ، حملت على الأعداء حملة أرجو الله أن يوفقني فيها » .

وساد الفرع والهلح باريس ، إذ تتابعت الأخبار بتقدم قوات « بلوخر » و « ولنجتون » نحو العاصمة الفرنسية ، وانتهز أعداء نابليون السياسيون في داخل البلاد - فرصة انحطاط الروح المعنوية عند الشعب ، فأخذوا يذيعون أن نابليون هو أس البلاء ، وأن الحرب القائمة حرب أعلنها الحلفاء ضد نابليون وليست ضد فرنسا ، فإذا نبذت فرنسا نابليون وأقصته ، نجت من الأهوال . . . وراح هؤلاء الدساسون يناشدون بني وطنهم أن يخلعوه ويختاروا إمبراطوراً جديداً ، أو يؤسسوا جمهورية

١٧١



لوحة تمثل نابليون بونابرت على واجهة المتحف بقرية واترلو

تتقدم من الوهدة التي أوداهم فيها نابليون .

واجتمع المجلسان ، فكانت أغلبية الآراء في غير صف نابليون ، الذي استنتج من التفاصيل التي ترامت إليه عن سير المناقشات أن تنازله عن العرش أصبح محتما . . . فلما وصل إليه قرار المجلسين النهائي بمطالبتة بالتنازل عن العرش ، قال لمن حوله في حزن : « لقد ضاع كل شيء ، سوف يملئ الحلفاء علينا شروطهم ، وتقع البلاد تحت رحمتهم . . . كل ذلك بسبب هذه الغلطة الشائنة التي ارتكبها النواب والشيوخ بقرارهم عزلي . ماذا يظن هؤلاء السذج البلهاء ؟ . . . ! إن في إمكانية حل المجلسين ، والتخلص من مضايقة أعضائهما . ولكن لا ! . . . لن أضحى الآن بفرنسي واحد في سبيل تحقيق مطامعي » .

وهكذا انقضى يوم ٢١ يونيو في مناقشات حادة بمجلسي البرلمان والوزراء . وأوى نابليون إلى فراشه - في آخر الليل - سقيما ، مضطجع القوى . وسهرت باريس طول الليل ، فلم تم حتى الصباح ، بل قامت فيها المظاهرات الحماسية . وطالب الشعب بالسلاح ليحمي إمبراطوره المحبوب . . . ولكن ، ماذا تجدى حماسة الشعب وقد قرر ممثلوه عزل الإمبراطور ؟ .

وأخذت الحوادث تتابع بسرعة خلال نهار ٢٢ يونيو ، فتسلم الإمبراطور صيغة قرار أعضاء المجلسين ، يناشدونه فيه أن يتنازل عن العرش لخدمة لفرنسا التي أحبها وأحبته . وقابل نابليون المندوب الذي سلمه القرار بكل رقة ولطف ، ووعده بجوابه سريع عاجل . ثم أخذ يدرع الغرفة

١٧٣

محمياً على سكرتيره نداء للأمة الفرنسية ، يعلن فيه تنازله عن العرش . وما جاء فيه : « إن حياتي السياسية قد انتهت إلى الأبد ، وإني أناذى بابني نابليون الثانى إمبراطوراً على فرنسا ، وآمل أن يوفق المجلسان بسرعة فى تعيين الأوصياء على العرش ، حتى تتحد الأمة تحت لواء ملكها الجديد ، وتحافظ على كيانها واستقلالها . وأرجو من كل قلبى أن يثبت الحلفاء ما رددوه كثيراً من أن كرههم ونقمته منصبان على شخصى ، وأنهم لا يضمرون لفرنسا إلا كل خير .

* * *

وبرغ فجر ٢٣ يونيو فبدأت معه فترة من أخرج للقرات فى تاريخ فرنسا . . . فقد كانت جيوش الحلفاء تتقدم بسرعة نحو العاصمة ، بينما كانت البلاد بلا حاكم ولا حكومة . وقضى الإمبراطور يومه بقصر « الأليزيه » كأى مواطن عادى ، مجرداً من السلطان ، وأخذ يجاذب من كانوا حوله أطراف الحديث . ولما سأله أحد أفراد حاشيته عما ينوى عمله ، أجاب بدون مبالاة : « لم أقرر بعد ما أنوى عمله ، وإنى أتساءل ، ما الذى يمنعنى من البقاء هنا ؟ . . . لماذا لا أعيش فى معزل عن الناس ، يحيط بى بعض الأصدقاء الذين أخلصوا لعرشى لا لسلطوى ؟ . . . وإذا رفضوا السماح لى بالبقاء فى أرض الوطن فىلأ أين أذهب ؟ . . . لا أظن أن وجودى فى إنجلترا أمر مرغوب فيه . إذن ، فلتكن أمريكا مقصدي ، حيث يمكننى أن أعيش فى هدوء محتفظاً بكرامتى ! » .

وازدادت رغبة الإمبراطور فى الإسراع بالرحيل ، فأرسل إلى الحكومة

يطلب منها أن تعد له يارجتين حرييتين ليرحل ومرافقوه عليهما عن البلاد .
وطلب من « فوشيه » أن يتوسط لدى الحلفاء لينحوه أمان المرور إلى الشاطئ
حيث يغادر البلاد . ولكن الدوق « ولنجتون » رفض هذا الطلب ، وأمر
بتشديد الرقابة على الشاطئ حتى يحول دون هروبه .

وفي ليل ٢٧ يونيو ، أوعز « فوشيه » وأعوانه إلى يونابرت بأن الباخرتين
اللتين طلبهما موجودتان في ميناء « روشفور » في انتظار أوامره ، وأن عليه
أن يذهب إلى هذا الميناء ليستغل الفرصة السانحة للإبحار بسلام . ولم يكن
ذلك إمعاناً في الإخلاص من « فوشيه » ، ولكن خوفاً من أن يضع
الإمبراطور نفسه مرة أخرى — في ساعة يأس — على رأس الأمة الفرنسية .
فتبدلاً المتاعب من جديد .

وفي هذه الأثناء ، استولى الحلفاء على « كامبيين » . وهى على مسيرة
يومين من باريس . فحاول نابليون أن يلهب الشعور في قلوب القائمين
بالحكم إذ ذاك ، مظهراً استعداداه لقيادة الجيش من جديد . وكاد ينجح
في مسعاه ، لولا معارضة « فوشيه » ، بحجة أن وجود نابليون على رأس
الجيش يوغر صدور الحلفاء من جديد ، فيتشددون في حملتهم ، وفي
شروط الهدنة والصلح . وكان « بلونخر » و « ولنجتون » واثقين من النصر
النهائى ، فأخذت جيوشهما تتوغل في الأراضي الفرنسية دون انتظام .
بحيث كان من السهل على نابليون أن يردهم على أعقابهم لو أنه جمع جيشاً
قوياً ، وألهبت صدور جنوده برغبة ملحة في محو عار موقعة « واترلو » .
وفعلاً ارتدى ثياب المعركة ، وأعد جواده على باب القصر وجمع أركان حربه...

ولاذ برسول يحمل إليه جواب الحكومة برفض اقتراحه هذا ، فعلق على هذا القرار بقوله : « حسناً . سوف يندمون على ما فعلوا ! . . . » وأمر بإعداد معدات الرحيل إلى الشاطئ .

وكان ينتظره عند باب القصر بعض أصدفائه الأوفياء . الذين صمموا على مشاركته في محنته حتى النهاية ، مثل الكونت « برتران » وزوجته وولاده . والكونت « مونتولون » وزوجته وولده ، و « لاس كاساس » وولده .

* * *

وصل الركب في الساعة العاشرة مساءً إلى « رامبويه » ، بحيث قضى الجميع ليلتهم . ثم استؤنفت الرحلة في صباح ٣٠ يونيو . . . وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى « شاتودان » ، حيث استقبلتهم صاحبة الفندق سائلة في لطفة — دون أن تعلم شخصية ضيوفها — عما أشيع عن اغتيال الإمبراطور ولكنها لم تكذب تلمحه حتى عرفت في الحال ، فرفعت عينها إلى السماء ضامة يديها إلى صدرها ، ثم انفجرت باكية كأنها تشكر العناية الإلهية . وتأثر نابليون حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وربت على كتفها شاكرًا ومواسيًا . أخيراً وصل الركب إلى ميناء « روشفور » . حيث كانت الباخرتان الحربيّتان اللتان أوصى بهما الإمبراطور راسيتين في الميناء . وكان « فوشيه » قد أوعز إلى الأسطول الإنجليزي بأن يشدد الحصار على الشاطئ الفرنسي ، حتى يحول دون فرار نابليون .

وفي الساعة الرابعة من مساء يوم ٨ يوليو ، ركب الإمبراطور المعتزل قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الفرنسية « سال » ، حيث قضى يومى ٩ و ١٠

يوليو ، ينتظر عبثاً صدور الأمر إلى البوارج الإنجليزية للسماح له بالمرور .
ولما طال انتظاره ، أوفد شخصين من حاشيته وهما الدوق « روفيجر » ،
و « لاس كاساس » إلى قائد الأسطول الإنجليزي ، فأخبرهما الكابتن « ميتلند »
— قائد البارجة « بليروفون » — بأن لديه أوامر صريحة بأسر أية باخرة تحاول
اختراق نطاق الأسطول المحاصر ، وإنه سيتصل بالقائد العام للأسطول ليرى
إذا كانت لديه أية تعليمات أخرى .

وعندما بلغ نابليون هذا الجواب فكر قليلاً ، ثم أعلن عزمه على بدء
رحلته في الحال ، وبالرغم من كل عائق . وأمر الدوق « روفيجر » بأن
يصدر أمراً باسم الإمبراطور إلى قائد السفينة ليجر فوراً . وما كان أشد
دهشته عندما أجابه الكابتن « فيليبرت » بأن لديه أوامر من الحكومة
الفرنسية بالألا يحاول الإبحار إذا وجد في ذلك أى تعريض للسفينة للخطر .
وعندها صاح الدوق غاضباً : « إن في الأمر خدعة . إن الحكومة تتآمر
على تسليم الإمبراطور للأعداء ! » .

وفي أثناء هذه المحنة القاسية ، تقدم قائد الباخرة الدنيمركية « بابادير »
— وكانت راسية في الميناء — فعرض على نابليون حمايته ، مؤكداً له أن في
إمكانه الحرب به من نطاق الحصار ، فقد أعد له نجياً سريعاً في سفينته ، لن
يتوصل العدو إلى اكتشافه . ولكن الإمبراطور رفض هذا العرض في أدب
وظرف ، وفضل البقاء أسيراً على أن يترك رفاقه تحت رحمة أعدائه في
داخل البلاد وخارجها .

وعرض عليه شقيقه « جوزيف بوناپرت » — وكان يشبهه شَبهاً كبيراً —

أن يحل محله ، ليمتسل ناهليون إلى « بورد » ، حيث أعدت كل المعدات للرحيل إلى الولايات المتحدة . ولكن الإمبراطور رفض بشدة أن يضحى بأخيه ، وشكره على جميل عواطفه .

واقترح البعض عليه أن يعود إلى فرنسا ويبدأ الحرب من جديد ، فرفض ذلك مفضلاً الموت والأسر على الزج بأمنه في أتون حرب أهلية . وأثر الانتظار ريثما يصل إليه جواب القائد الإنجليزي .

* * *

أرسل الإمبراطور مندوبيه مرة ثانية إلى الكابتن « ميتليند » يوم ١٤ يوليو ، فأبلغهما بأن الأوامر صدرت إليه بأن يستقبل الإمبراطور على ظهر البارجة « بليرفون » ، إذا رغب في السفر إلى إنجلترا . ولما بلغ ناهليون هذا القرار ، أخذ يتشاور مع أصدقائه فيما يجب عمله ، فانهازت الأغلبية إلى الرأي القائل بأن يضع الإمبراطور ثقته في الشرف البريطاني ، ويسلم نفسه للإنجليز . ولم يشد عن هذا القرار إلا اثنان هما الكونت « مونتولون » والجنرال « جورجود » ، اللذان حذراه من الوثوق بوعود الحكومة الإنجليزية ، مهما كان واثقاً من عطف وكرم ضيافة الشعب الإنجليزي .

وأخيراً تناول الإمبراطور قلمًا وقرطاساً ، وكتب إلى جورج الرابع ملك إنجلترا ، الخطاب التالي :

« رغبة مني في تجنب سفك الدماء ، وإزاء تألب جميع القوى لهدى ، وجدت أن أقوم سبيل هو إنهاء حياتي السياسية ، واللجوء إلى إنجلترا لأتمتع بدفء نار الموقد الإنجليزي العتيق ، ولأضع نفسي تحت حماية القانون الإنجليزي للعادل » .

وكانت الساعة إذ ذاك الرابعة بعد الظهر ، فأوفد « لاس كاساس » و « جورجود » إلى البارجة « بليرفون » ليعلنا قائدها بأن الإمبراطور يصل إلى ظهرها في اليوم التالي .

وعهد إلى « جورجود » كذلك بحمل الخطاب المرسل إلى جورج الرابع وبأن يحاول تسليمه بنفسه إلى يدى الملك. ثم قال له : « إذا سئلت عن البلاد التى أفضل النزوح إليها ، فليكن الاختيار الأول : الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا رفضوا ذلك ، فإني أفضل البقاء فى إنجلترا نفسها . حيث يمكننى قضاء بقية حياتى فى ريفها الجميل على بعد عشرة أو اثنى عشر ميلا من لندن ، متذكراً تحت اسم الكولونيل مويرون أو دوروك ، وسأختار لسكنائى بيتاً كبيراً يكون فيه متسع لجميع أفراد حاشيتى وزوجاتهم وأولادهم » .

وسمح للجنرال جورجود بالسفر إلى إنجلترا ، ولكن حيل بينه وبين النزول إلى البر ، فأرسل الخطاب الذى يحمله إلى بلاط « سان ، جيمس » على يد رسول خاص .

وفى أثناء ذلك دخل الجنرال الفرنسى « بيكر » إلى غرفة الإمبراطور فى البارجة ، وأخبره بأنه وصل إلى علمه أن حكومة آل « بوربون » - التى خلفته فى فرنسا - أوفدت بعض الضباط للقبض عليه ، فلما سمع نابليون بذلك ارتدى ملابسه بسرعة ، واستعد للرحيل عند بزوغ الفجر ، فاستقل قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الإنجليزية « بليرفون » تصحبه حاشية من ضباط وسيدات وأطفال وخدم بلغ مجموعهم ٥٩ شخصاً . . . وعلى

سطحها استقبله الكابتن « ميتلند » وبقية الضباط استقبالا يليق بمقامه .
وحالما وضع قدمه على ظهر السفينة ، خاطب قائدها قائلاً : « إننى أتيت
سفينتك ، لأضع نفسى تحت حماية القانون الإنجليزى » .
فانحنى القائد باحترام وتأثر ، وصحب الإمبراطور إلى غرفة أعدت له ،
ثم قدم له جميع ضباط الباخرة .

واستغرقت الرحلة إلى الشاطئ البريطانى حوالى تسعة أيام ، لأن
الرياح كانت شديدة ، والأمواج متلاطمة . وقد سُرَّ الإمبراطور كثيراً
من الرحلة ، وكان يقضى معظم الوقت بين ضباط البارجة وبحارتها ، مظهراً
إعجابه بنظامهم وهندامهم . وأزالت المعاملة الحسنة - التى لقيها على ظهر
السفينة - شكوكه فى نيات إنجلترا نحوه . وكان كلما اقترب من الشاطئ
الإنجليزى ، ازداد طمأنينة ، وتضاعف حب الضباط والبحارة له ، حتى
لأنهم كانوا ينادونه بمولاي أو صاحب الجلالة . فلماذا سار على ظهر السفينة
خلعوا قبعاتهم بكل احترام وإجلال .

وفى الساعة التاسعة من صباح ٢٥ يوليو ، أُلقت الباخرة مراسها فى
ميناء « تورباى » . وما كاد يذاع خبر وصولها ، حتى احتشدت فى الميناء
مئات القوارب حاملة رجالاً ونساء من جميع الطبقات ، وقد أتوا ليفوزوا
بنظرة إلى الرجل الذى ملأ العالم إعجاباً . وقد خرج الإمبراطور إلى ظهر
الباخرة مراراً ، وكانت النساء تلوحن بمناديلهن فى كل مرة ظهر فيها . وفى
مساء اليوم ذاته استؤنفت الرحلة . ورسست السفينة بميناء « بليموث » فى
ظهر اليوم التالى . وفى الحال أدرك الإمبراطور أن فى الجو شيئاً غير عادى .

إذ لاحظ تغييراً ظاهراً في نفسية الكابتن « ميتلند » ، فقد بدا حزينا شارد للذهن على غير عادته . وأحيطت السفينة بسياج من القوارب ، لمنع أى شخص من الاقتراب منها أو مغادرتها بدون إذن خاص من أميرال الأسطول .

وفي مساء ٣٠ يوليو ، صعد إلى ظهر السفينة السير « هنرى بانبورى » ،
« أميرال » كيث » وقرأ أحدهما على الإمبراطور القرار الآتى :

« إن واجب الحكومة الإنجليزية إزاء نفسها وحلفائها يقضى بأن تقوم بمنع الجنرال يونابورت من القيام فى المستقبل بأى عمل يؤثر على السلم العالمى .
ولذلك تقرر إرساله إلى جزيرة « سانت هيلانه » ، حيث يمضى بقية حياته . وقد يجب الجنرال أن يعلم أن جو الجزيرة صحى ، وأن موقعها البعيد سيساعده على التمتع بحرية التجول فى أنحاءها دون أن يكون هناك خطر على حياته » .

وترك له أن يختار من رجاله طبيباً وثلاثة ضباط واثني عشر خادماً يصطحبهم ، ويعاملون كأسرى حرب طول مدة إقامتهم معه . وقد انتدب السير « جورج كوكبورون » بأصطحاب الإمبراطور ، ونبه عليه بأن يناديه بلقب « جنرال » ، وليس صاحب جلالة أو إمبراطور .

أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار ، دون أن تظهر عليه علامات للتأثر : حتى إذا ما انتهى من سماعه ، قال بكبرياء : « إننى ضيف لإنجلترا ولست أسيرها : لقد أتيت من تلقاء نفسى لأحتفى بالقانون الإنجليزي

١٨١

العادل ، الذى داست عليه حكومتكم بفعلتها هذه . لئننى أحتج بشدة ،
وأناشد مرة ثانية الشرف الإنجليزى ! » .

ولما انصرف المندوبان التفت نابليون إلى من حوله وقال : « سانت
هيلانه ! لا أصدق أن هذه الجزيرة النائية ، الشديدة الحرارة ، تصبح
مأوى الأخير ! . . . ليتهم سلمونى إلى آل بوربون ، أو سجنونى فى برج
لندن ، أو فى إحدى قلاع إنجلترا الحصينة . إنهم يريدون التخلص منى
بسرعة ، فجسمى لا يتحمل طقساً فظيماً كطقس جزيرة سانت هيلانه ! » .
وزداد عطف الشعب الإنجليزى على الأسير العظيم ، فتطوحت اثنتان
من كبريات الصحف للدفاع عنه . وأخذ أفراد الشعب يتجمعون كل يوم
على الشاطئ ، وفى القوارب ، يهتفون له كلما لمحوه على ظهر السفينة .
وهو يجيب عليهم بتلويح قبعته المشهورة . وتشجع نابليون إذ رأى وشعر
بهذا العطف الشديد من أفراد الشعب ، فكتب - بناء على اقتراح محاميه
الإنجليزى - الاحتجاج التالى إلى الحكومة الإنجليزىة فى ٤ أغسطس
: ١٨١٥ :

« لئننى أحتج بشدة على هذا الاعتداء الصارخ على حريتى وشخصى :
لقد أتيت إليكم بمحض إرادتى لأكون ضيفكم لا أسيركم . لقد كانت ثقى
كبيرة فى عدالة القانون الإنجليزى ، فحذار من حكم التاريخ الذى سوف
يتكلم عن غدركم بعدو حاربكم عشرين عاماً ، ثم سلم غتاراً فى ساعة محنة
وانكسار ، فإذا بكم تغدرون به وتستغلون ضعفه وتجرده من سلاحه . » .
وفى اليوم التالى ، أعلن نابليون إلى قائد السفينة أسماء الذين وقع عليهم

اختياره لمرافقته في الرحلة ،، وهم : «المرشال « برتران » ، والكونت « مونتولون » ، والكونت « لاس كاساس » . وإزاء تصميم الجنرال « جورجود » على مرافقة مولاه ، سمحت له الحكومة بالسفر أيضاً .

وفي مساء ٧ أغسطس صعد إلى ظهر السفينة « بليرفون » كل من الأميرال « كيث » والأميرال « كوكبورن » ، وعليهما أمارات الارتباك والخجل . وأخيراً تشجع الأميرال كيث ، وقال للإمبراطور في صوت خافت إن لديه أوامر من حكومته بتفتيش حقائبه وحقائب زملائه ، ومصادرة كل أموال يعثر عليها ، حتى لا يستخدمها «الجنرال» في محاولة الهرب من مفاه . على أن تحتفظ الحكومة بهذه الأموال حتى وفاته ، وبعدها تنتقل بكل أمانة إلى الأشخاص الذين يختارهم في وصيته .

وقام الأميرال « كوكبورن » بمهمة تفتيش الحقائب بكل دقة ، ولم تسلم حتى الملابس الداخلية وثياب النوم . وقد عثر على حوالى مائة ألف فرنك ذهباً ، فصادرها إلا مبلغ اثني عشر ألف فرنك تركها في عهدة خادم نابليون الخاص « مارشان » ، ليستعين بها مولاه في نفقاته الخاصة . ولم يجرؤ الأميرال على تفتيش جيوب الإمبراطور والملابس التي كانت عليه ، وبذلك سلمت من المصادرة مجوهرات وحوالات مالية قيمتها أربعة ملايين فرنك .

وكان نابليون — في أثناء ذلك — واقفاً في عرفته ، يرسل البصر خلال النافذة مفكراً حزيناً ، — ويحانه رفاقه خاشعين ساكنين احتراماً لحزنه . وإذا هم في هذا الموقف الرهيب ، دخل عليهم اللورد « كيث » وقال

١٨٣

بصوت يرتجف لفرط التحجل والاضطراب : « إن إنجلترا تطالب سيفك أيها الجنرال بونايرت » .

فأفاق الإمبراطور من ذهوله ، ورمى اللورد بنظرة جعلته يطلأطي رأسه الأشيب خجلاً . . . ولما وضع نابليون يده على مقبض سيفه لتسليمه ، تغلب التأثير على اللورد ، فانسحب نحو الباب قبل أن ينهي مهمته . وعندها ذكره سكرتيه - الذي كان يرافقه - بأن أوامر الحكومة صريحة في وجوب الحصول على سيف الجنرال ، فنظر إليه اللورد غاضباً وقال بمحدة : « ليس هذا من شأنك ! » .

وكان وداع نابليون لقائد السفينة « بليروفون » ورجاله مؤثراً . قبل أن ينتقل إلى السفينة الحربية « فورثمبرلاند » ، وهي التي اختيرت لتنقله إلى منفاه ، والتي أقامت - في ٩ أغسطس سنة ١٨١٥ - به وبجاشيته المكونة من الكونت والكونتس « مونتولون » وابنهما ، والكونت والكونتس « يوتران » وأطفالهما الثلاثة ، والبارون « جورجود » ، والكونت « لاس كاساس » ، والدكتور « أميرا » . وكانت تحرسها عشر سفن حربية . . . وقف الإمبراطور على ظهرها يتطلع إلى الأفق ، حتى إذا ظهرت سواحل فرنسا عن بعد ، حلق الإمبراطور في صمت وخشوع ، ثم رفع قبعة وانحنى للأرض النائية . وهتف من قلبه قائلاً : « وداعاً يا فرنسا . . . وداعاً يا أرض الشجعان ! » .

ولإزاء هذا المشهد خلع الضباط الإنجليز قبعاتهم ، وأحنوا رؤسهم في تأثير جياش .

على فراش الموت

وصل الأسير أخيراً إلى الصخرة النائية ، بعد رحلة طويلة شاقة . وقاسى ما قاسى من الهول والمذلة والهوان ، حتى رحمه ملاك الموت فاخطفه .

سرعان ما تمالك نابليون شعوره ، وسار في هدوء وثبات إلى قمرته بالباخرة ، فبقى فيها حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر ، يقرأ تارة ، ويتحدث تارة أخرى إلى من يستدعيه من أفراد حاشيته . ثم ارتدى ملابس العشاء ، وخرج إلى غرفة التدخين ، حيث قضى نصف ساعة يلعب الشطرنج . وفي الساعة الخامسة تماماً ، دخل قائد السفينة ، ودعا الإمبراطور لتناول العشاء . وقضى الجميع أكثر من ساعة بين أكل وشراب وسمير وحديث .

واستمر هذا النظام طول الرحلة . ولم يكن من عادة نابليون أن يستغرق في تناول الطعام أكثر من عشر دقائق ، ولكنه اضطرب — مراعاة أن معه — إلى أن يبقى معهم طول مدة تناول الطعام ، وكانت تتجاوز الساعتين أحياناً . وكان خادماه الخاصان يقفان خلفه ليقوما بخدمته . . . واعتاد أن يتمشى على ظهر السفينة بعد العشاء لساعة أو أكثر ، في محبة أصدقائه ، وفي أثناء هذه الساعات كان نابليون ينسى حاضره ، ويتحدث عن ماضيه سارداً على رفاقه — في صراحة وبساطة — ما صادفه في تاريخه الحافل من محن وانتصارات ، ودسائس وانكسارات . واعتاد بعد جولته أن يجلس على

مدفع حلى ظهر الباخرة ، فيجتمع حوله كل من أنس إليه من البحارة والضباط ، وقد يبقى معهم ساعات محدداً إياهم في بساطة وديموقراطية : وقد سمي هذا المدفع فيما بعد :

« مدفع الإمبراطور » :

وخطر لنا بليون أن يتسلى بإملاء مذكراته على صديقه « لاس كاساس » ، فكان إذا حان وقت الإملاء ، جلس هنية يفكر ، ثم ينتصب واقفاً ، ويلدع الغرفة وهو يذكر الحوادث منفصلة بتواريخها ومكانها . وكأنه يقرأ في كتاب مفتوح .

وعند غروب شمس يوم ١٥ أكتوبر ، صاح أحد البحارة قائلاً : « ها هي ذى الأرض أخيراً ! » . . . وكان ذلك إيذاناً بقرب الوصول إلى الجزيرة . وفي ظهر اليوم التالي ، ألقت الباخرة مرساها في ميناء « سانت هيلانه » . وأخذ نابليون يتطلع خلال منظاره ، متأملاً هذه الجزيرة القاحلة البشعة المؤلفة من صخور وتلال . ولبح مجرى كبيراً من الماء يترقق خلال الجزيرة ، كما لفتت نظره كثرة المدافع التي نصبت على كل صخرة وركن من الجزيرة .

ولقد استغرقت الرحلة مائة يوم ، منذ رحيل الإمبراطور من فرنسا ، وسبعين يوماً منذ إبحاره من إنجلترا . أما الجزيرة فصغيرة ، تبلغ عشرة أميال طولاً ، وستة عرضاً ، ويحيط بها سور عال من الصخر ، به ثلاثة منافذ هي الطرق الوحيدة للوصول إلى داخل الجزيرة ، وقد أحكم تحصينها حتى لا يتسنى لأى مخلوق الحرب منها بغير علم الحرس المنبئين في أنحائها .

وفي عصر يوم ١٦ أكتوبر ، تأهب الإمبراطور للتزول إلى سجنه .
فأرسل في طلب قائد السفينة ليشكره على ما لقيه أثناء الرحلة من حسن
المعاملة ، وسأله أن يبلغ تحياته إلى جميع الضباط والبحارة ؛ الذين
تجمعوا على ظهر الباخرة ليودعوه الوداع الأخير ، وعيون أغلبهم مغروقة
بالدموع .

وعندما وصل إلى الجزيرة ، كانت الشمس قد غابت وراء الأفق . ومشى
الإمبراطور في شارع حقير بقرية « جيمس تاون » ، قاده إلى غرفة
متواضعة رثة ، اختيرت ليقضى فيها فترة ، ريثما يتم إعداد منزل له . . .
وكان بها سرير حديدي بسيط في مظهره ، عليه حشية ووسادة . . .
وفي أركانها بعض قطع الأثاث التي لا تليق بمقام الضيف العظيم ، ووقف
عند بابها وعنده نوافلها حرس مدحج بالسلاح .

رأى نابليون كل ذلك فارتدى على كرسي قريب منه ، وأخذ يفكر
في هدمه وحزن ، ثم رفع رأسه في تناقل ، وأمر جميع من بالغرفة بالخروج .
ثم أطفأ الأنوار ، وارتدى على فراشه يلتبس الراحة في الوحدة القاتمة . . .
وراح يفكر ويفكر . ولا يعلم إلا الله ما جال بخاطره في ليلته الأولى
بالمنى ! . . .

في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ، امتطى نابليون صهوة
جواد ، وخرج يتريض في صحبة بعض رفقاته . وسار الجميع نحو قرية

« لونجوود » . التي تبعد بمسافة ثلاثة أميال عن « جيمس تاون » ، لمعينة المنزل الذي احتارته الحكومة الإنجليزية مقررًا للإمبراطور بالجزيرة . ولشدهما دعتس نابليون عندما رأى بقعة جرداء قاحلة ، يتخللها مجرى مائى صغير . ويقوم فى وسطها كوخ حقير كان فيما مضى حظيرة للبقر ، ثم أجريت فيه بعض الإصلاحات ليصبح صالحاً للسكنى . . . وكانت ميزته الوحيدة أنه يقع فى مكان من الجزيرة أقل حرارة وألطف جواً .

عاد نابليون من رحلته محطّم النفس ، كسير الفؤاد ، وإذ هو فى الطريق ، شاهد منزلاً ريفيًّا صغيراً ، فى بقعة اسمها « البرير » : فسأل عما إذا كان فى الإمكان الإقامة فيه حتى يتم إعداد منزله فى « لونجوود » وكان هذا المنزل ملكاً لرجل طيب القلب يدعى مستر « بالكومب » ، قبل عن طيب خاطر أن يفرد إحدى غرف منزله — الخمس للإمبراطور . ولكن هذا رفض أن يضايقه ، وفضل أن يشغل مبنى صغيراً ملحقاً بجديقة المنزل ، مكوّناً من غرفتين تعلو إحداهما الأخرى ، وهناك قضى نابليون شهرين ، يصحبه « مارشان » خادمه الخاص « ولاس كاساس » وولده . وكانت هذه أسعد فترة قضاها نابليون فى منفاه ، إذ اندمج اندماجاً كليًّا مع عائلة المستر « بالكومب » ، المؤلفة من زوجته وبتين وولدين ، وراح يقضى معظم النهار فى صحبتهم ، يضحك ويمزح ، ويطرى جهود مسر « بالكومب » . فإذا جن الليل ، عاد إلى غرفة بسيطة الأثاث . وكان لها بابان ، ونافدتان بدون مصاريع خشبية ولا ستائر تحجز ضوء الشمس أثناء النهار . وكان « لاس كاساس » يحكم إغلاق النافذتين كل

ليلة بعد أن يأوى الإمبراطور المنفى :

أما « مارشان » والخادم الآخر ، فكانا يلتفتان بعباءتيهما ، وينامان على عتبة الغرفة التي قدر أن يشغلها السيد الذي خدمه إبان سطوته وسطوانه . وكان يحيط بالمنزل حرس مسلح ليحول دون هروب الأسير .

وفي ١٠ ديسمبر ، انتقل الإمبراطور وحاشيته إلى « لونجود » ، حيث تم إعداد بيته المكون من بضع غرف صغيرة . ورأى ناپيون بعد فحصها أنها لا تكفي لإيواء جميع أفراد حاشيته ، فأقيمت خيمتان في فناء المنزل ، إحداهما للجندال « جورجود » ، والأخرى للدكتور « أوميرا » طبيبه الخاص . أما الجندال « برتران » وزوجته وولده ، فقد سكنوا منزلاً صغيراً على مسيرة ميل من بيت مولاهم .

وكانت الرقابة شديدة على الأسرى ، فكان يحرمهم أنى ساروا جنود يحملون بنادقهم . وحرّم عليهم الاتصال بالأهالى أو محادثتهم ، ومنعوا من الدنو من شاطئ الجزيرة . وكانوا يرسلون الاحتجاج تلو الآخر إلى الحاكم دون جدوى . وفي ذات يوم ، زار الإمبراطور قائد إحدى السفن التي صحبته إلى منفاه ، وكان على وشك الرحيل إلى أوروبا ، وسأله عما إذا كان فى إمكانه أن يؤدي له أية خدمة ، فشكا إليه المعاملة السيئة التي كان يلقاها هو وحاشيته من أولى الأمر بالجزيرة ، ورجاه أن يبلغ الوزراء الإنجليز شديد احتجاجه وعتابه . وألى على « لاس كاماس » مذكرة جاء فيها ما يأتى :

« إن الإمبراطور يرجو أن يسمع برجوع البريد أخباراً عن زوجته

وابنه ، ويريد أن يتأكد مما إذا كان هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة : وهو ينتهز هذه الفرصة ليسجل شديد احتجاجه على المعاملة الشاذة التي يلقاها . : .

« لقد وضع الإمبراطور نفسه — بمحض إرادته — تحت حماية القانون الإنجليزي ، وكان في إمكانه أن يلوذ بملك آخر ، كالإمبراطور فرانسو والد زوجته ماري لويز ، ولكنه وضع كل ثقته بدون تبصر ، في عدالة الأمة الإنجليزية ، فكان ما كان .

« إن الإمبراطور ليس أسير حرب كما تزعمون . وإذا سلمنا بهذا الأمر ، فإن لأسير الحرب حقوقاً ثابتة عند جميع دول العالم المتعدية ، ويطلق سراحه بمجرد انتهاء الحرب .

« إذا كان وزراء إنجلترا مصممين على استمرار هذه المعاملة الشاذة ، فإن الإمبراطور يكون سعيداً لو أصدروا حكماً بإعدامه في الحال ، فالموت أحب إليه من حياة هي الجحيم بعينه ! » .

وحاول نابليون — في مناسبة أخرى — أن يكتب خطاباً خاصاً إلى الملك جورج الرابع ، وأرسل إلى حاكم الجزيرة يستأذنه على اسان الجنرال « هوزان » . فأصر الحاكم على أن يقرأ الخطاب قبل إرساله . فرأى نابليون أن في ذلك نبلاً من كرامته ، وعدل عن الفكرة .

وفي ١٧ أبريل سنة ١٨١٦ ، وصل حاكم الجزيرة الجديد السير « هدسن لتوه » ولما قدم إلى الإمبراطور ، اشمأز هذا من منظره ، وقال بعده انصرافه : « إن شكله وجهه يبعثان للقشعريرة في نفسى ، ولكن

علينا ألاّ نتسرع في الحكم ، فقد تكون أخلاقه بعكس ما ينبئ عنه وجهه البشع ! » .

ولم يصدق حدس نابليون هذه المرة ، فقد لقي على يدي هذا الحاكم أهوالاً نفسية جعلت حياته جحيماً لا يطاق . . .

* * *

ومرت الأعوام وحالة الإمبراطور النفسية والمرضية تزداد سوءاً ، يوماً بعد يوم ، لا سيما بعد وصول الحاكم الجديد .

وكانت تقارير شهرى نوفمبر وديسمبر من عام ١٨١٨ ، مليئة بأحداث تحوى صنوف العذاب والآلام والمذلة . وبلغ اليأس بالإمبراطور مهلاً ، حتى إنه رضخ أخيراً - فى اليوم العاشر من يناير عام ١٨١٩ - لمشورة أصدقائه ، فسمح بأن يزوره الدكتور « ستوكا » ، جراح البارجة الإنجليزية « كوككر » . . . أى القاهر : وكان نابليون قد صمم على ألا يرى طبيباً إنجليزياً ، إذ كان الحاكم قد أمر بترحيل طبيبه الخاص « أوبرا » فلما عاده الدكتور « ستوكا » ، وجده فى أشد حالات الألم وانحطاط القوى الجسمية . وقد زاره مرتين فقط ، وجد نفسه بعدهما مضطراً لطلب إعفائه من عمله ، لأن الحاكم وحاشيته كانوا يتدخلون فى عمله تدخلاً أزعجه .

ومضت التسعة الأشهر التالية فى عذاب مستمر . ولم يأل حاكم الجزيرة جهداً فى أن ينغص على المريض حياته ، لدرجة أن نابليون أمر بإغلاق أبواب بيته ، وعدم السماح لأى شخص من طرف الحاكم أن يزوره

وقد كتب الإمبراطور عن هذا في مذكراته :

« في أيام ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٦ من شهر أغسطس عام ١٨١٩ حاول بعضهم أن يفتح داري للمرة الأولى منذ مجيئي إلى الجزيرة . ولقد أصدرت أوامري بإغلاق جميع الأبواب وإحكام قفلها . ولقد سبق أن أندرت أولى الأمر بأن انتهك هذا الحرم الضيق . المؤلف من ست غرف صغيرة ، لن يتم إلا إذا ساروا على جثتي . لقد مضى على عامان وأنا أفاقي من مرض الكبد المتفشى في هذه الجزيرة . وقد أبعد الدكتور « أوويرا » في يوليو عام ١٨١٨ ، والدكتور « ستوكا » في شهر يناير ١٨١٩ ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أفاقي أبشع الآلام دون أن يكون على مقربة مني طبيب يداويني ويخفف من آلامي . وبينما أقلب على فراشي من شدة آلام الأزمة الكبدية الأخيرة ، التي مضت عليها ستة أيام وليال دون تراع أو هودة ، إذا بي أفاجأ بهذا التلخل الذي لا معنى له ، والذي يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية » .

وأخيراً وافقت الحكومة البريطانية على أن يرسل أصدقاء بونابرت في أوروبا طبيباً من لدنهم . ووقع اختيارهم على الدكتور « انتوماركي » ، الذي وصل إلى الجزيرة في ١٩ سبتمبر من العام نفسه . وقد جاء معه اثنان من رجال الكنيسة ، لأن نابليون ألح في أن تقام الصلوات والمارسم الدينية في مملكته الصغيرة بالجزيرة . وكان أحدهما — وهو الأب « نونافينا » — متقدماً في السن ، بينما كان الآخر ، وهو الأب « فيجنالي » ، شاباً في مقتبل العمر . وكانت للإمبراطور معهم — فيما بعد — صولات وجولات في السياسة والدين ،

مما رَوَّحَ عن نفسه المكروبة ، وإسائه في محنته :

وفي ٢١ سبتمبر ، استقبل نابليون طبيبه الحديد للمرة الأولى ، وكان ذلك في الساعة الثانية والرَّبع . وعندما دخل الطبيب الغرفة وجدها مظلمة . وكان المريض راقدًا على سرير في أحد أركان غرفة حقيرة الآثاث ، فلم يره في مبدأ الأمر ، لولا أنه سمع صوتًا خافتًا رقيقًا يناديه ويدعوه للجلوس . ثم أخذ نابليون يسأله بدقة عن مولده ، وعائلته ، ومؤهلاته الطبية ، والدوافع التي جعلته يقبل الحُجىء إلى هذه للصخرة النائية . ثم أخذ يسأله عن أخبار أصدقائه القدامى في أوروبا :

وفي اليوم التالي ، عاد الطبيب مريضه حوالى العاشرة صباحًا . وكان الإمبراطور لا يزال ملازمًا فراشه ، بعد أن قضى ليلة حافلة بالآلام والأوجاع وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث ، وقفت عربة بياب المنزل ، وكانت محملة بالصناديق والكتب الواردة للإمبراطور من الخارج . ولما أمر بفتحها وجدها مليئة بالكتب والمجلدات ، فنظر إليها بونا برت نظرة فاحصة ، وقال لمن حوله : « ليست الكتب هي الشيء الوحيد ، الذى يبحث عنه والد فى رسالة واردة من الخارج . انظروا داخل الصندوق وافحصوه جيدًا ، فلا بد أن هناك شيئًا آخر أحبَّ إلى قلبى من كل هذا ! » . . . وقد صدق حدس الإمبراطور ، لأنهم وجدوا صورة لابنه بين الكتب ، فما رآها حتى انهمرت الدموع من عينيه ؛ ونظر إليها طويلا ، ثم قبلها بحرقه وشوق ، وقال وهو يبكى : « ولدى العزيز ! . ستكون خير خلف لوالدك ، إذا قدر لك أن تعيش بالرغم من 'دسائس أعدائى' ! » . . .

وقضى الإمبراطور ليلته ساهراً يقرأ الصحف والمجلات التي وردت من الخارج . فلما دخل عليه الطبيب في الصباح ، وجده منهكاً متعباً ، لا يزال ممسكاً بصورة ولده . فناولها إلى طبيبه قائلاً : وأرجو أن تضعها على رف المدفأة بجانب صورة والدته ماري لويز . : : ألا ترى الصورتين الآخرين ؟ : : إنهما للحبيبة جوزفين ! : : كم هي عزيزة إلى قلبي . : : لكم أحببتها ، ولا أزال أحبها ! : : إن صورتها وذكراها يؤنساني في وحدتي المؤلمة . : : ألا ترى مظاهر العظمة والأبهة التي تحيط بي في هذا الركن الحقيق ؟ : : شمعدانان بسيطان ، وقدحان مذهبان ، ومقص صغير ، وكوب ماء ، وزجاجتان من ماء الكولونيا ، وسرير حديدى ! : : هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى ! : : أين هذا من قصرى التويلرى والاليزه ؟ : : ولكن كل هذا يهون عندما أذكر أن ما أضحى به ليس إلا حبساً في فرنسا وأهاتها ! » .

ومرت الأيام حتى اكتملت أربع سنوات وآلام بونا بورت في ازدياد . وبدأ سنته الخامسة وهو يشعر بضعف جسمى وانحطاط معزى شديدين . وفى يوم ١٨ نوفمبر ، شعر بانتعاش على غير عادة ، بالرغم من ضعفه . وبينما هو يمشى مع طبيبه في حديقة الصغيرة ، انفتت إليه نجاة ، وقال : « بماذا تشير على يا طبيبى العزيز ؟ . أما من وسيلة أبدأ إليها لأبحث للنشاط إلى أطراف جسمى ؟ » : : . فأجابه الطبيب : « يا حبيذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة ! : : ما رأى جلالتك في فلاحه الأرض ،

وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك ؟ » .

فظهرت علامات السرور على وجه نابليون وصاح قائلاً : « يا لها من فكرة صائبة ! : : . سوف أبدأ من باكرا »

وفي صباح اليوم التالي ، أرسل في طلب طبيبه ، وقابله عند باب المنزل والفأس في يده ، وقال له وهو يضحك : « ها هو مريضك يطيع أوامرك وينفذها حرفياً ودون تردد . . . إننى أعتقد أن الفأس والمعول خير من أقراصك وأدويةك المقيمة ، التى لن أعود إليها ثانية ! » . : : وسرعان ما اعتاد جسم الإمبراطور ويده الناعمتان للرياضة الجديدة ، وأثرك معه في للعمل جميع رجال حاشيته : فتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق . : . وسمع الحاكم بمجهودات أسيره فى سبيل رفاهية « لونهجود » ، فحام حول المنزل ، وشاهد الطبيب واقفاً وحده فى الحديقة فناده فى حذر ، وقال له : « هل أنت الذى أشار على الجنرال بوناپرت بالقيام بهذا المجهود الشاق ؟ » وإذ رد الطبيب بالإيجاب ، هز الحاكم كتفيه وقال : « إنه مجهود ضائع . . . ألا تعلم أن كل هذه الشجيرات سوف تموت ، ولن تنمو واحدة منها ، مهما بذلتم من جهود ؟ ! » « يا قصّ الطبيب تفاصيل الحديث على نابليون ، صاح هذا قائلاً : « يا لاوغدا ! . . . ألا يريد أن يتركنى وشأنى دقيقة واحدة ؟ . : . : إننى أعرف أنه يتمنى موتى وينتظره بفارغ الصبر . ولقد طالعت حياتى لدرجة أزعجته وأقلقته . : . ولكن ليتمرّ عينا ، فهذا الجوالخائق سوف يقضى على عاجلا . : . . وعندنا يستريح بال سجنائى العزيز ! » . . . :

١٩٥

وأراد الإمبراطور ذات يوم ، عقب هذا الحادث ، أن يسخر من سجنائه ، فأوعز إلى الأب « فيجنالى » أن يرتدى إحدى حلله ، ويمتطى صهوة جواده ، ويمسك بمنظاره ، ثم يتجول بحصانه متظاهراً بأنه يستكشف ما حول المنطقة الحرام . . . وسرعان ما قامت الدنيا وتعدت . وجاء الحاكم مسرعاً إلى « لونجوود » فلما وجد أنه لا معنى للضجة القائمة ، انسحب في هدوء ، وقال للطبيب وهو ينصرف : « قل للجيرال إننى فهمت النكتة ، وإننى أن أقبلها مرة ثانية ! » . . فلما سمع الإمبراطور بذلك ، ضحك وقال : « الواقع أننا ضايقناه كثيراً بهذه المداعبة . إننى أرقى له ! »

٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢٠ : ها قد مضت على الإمبراطور خمس سنوات وهو يعافى الآلام القاسية ، فى منفاه النائى بسانت هيلانه ، حيث تمر الأيام والأسابيع ببطء قاس ، ليس أقسى منه إلا الزواجر والضباب^١ والأعاصير التى لا تنقذ من معظم أيام السنة .

شعر الإمبراطور بتحسن قليل فى صحته ، فنادى طبيبه الخاص الدكتور « أنثوماركى » وقال له : « إننى أعاهدك يا دكتور أن أرسلاك إلى أوروبا - منى من الله على الشفاء - لتتم أبحاثك ودراساتك ، فحرام على أن أربط مستقبلك بمستقبلى ، وأدعك تقضى حياتك على هذه الصخرة المشؤمة . . . »

.....

٢٦ أكتوبر : قام الإمبراطور من مقعده بالرغم من ضعفه ،

وأخذ يسير في بطنه نحو حوض صغير بناه بنفسه ، وأخذ يتسلى بمراقبة أسماك صغيرة حمراء اللون ، وهي تلعب في الماء ، وكان يرى لما قطعاً صغيرة من الخبز ، ويبتسم في تناقل لرؤيتها وهي تلتمها في نشاط عجيب . . . وفي فجأة ، لاحظ أن بعضها ميت ، والبعض الآخر كسول على غير عادة ، فنظر إليها أسفاً ، وقال : « ألا ترون أن كل شيء أحبه يسبقني إلى مصير أنا إليه سائر ؟ » . إن ملاك الموت أو شيطانه قد أنس إلى هذا المكان ، وهذا هو يتسلى بقتل الأسماك قبل أن يسقط على الرأس الكبير ! » :

وأخذ الإمبراطور — منذ ذلك الحين — يتردد يومياً ليطمئن على أصدقائه الصغار ، ويلج على طبيبه ليكشف سر موتها المفجأ . وفكر للطبيب في تحليل الماء ، ولكن الإمبراطور وجد أن هذا إجراء بطيء لا يسعف . وكان يرغمه على الذهاب عدة مرات في اليوم ، ليرى ما إذا كانت الأسماك بخير . وأخذ الطبيب يقدح زناد فكره ، عله يتوصل إلى اكتشاف يشفي به غليل الإمبراطور . وأخيراً وجد أن المادة التي استجمعت في بناء قاع الحوض كانت تحتوي على نسبة كبيرة من النحاس ، كافية ليتسمم بها السمك . وفي الحال نقلت الأسماك الحية إلى برميل من الخشب ، فكان ذلك سبباً في إنقاذ البقية للباقية منها . :

.....

١٩ نوفمبر : كان نوم الإمبراطور مضطرباً في الأيام الأخيرة ، وكان ألم للكبد يعاوده كل ساعة ، وقد انحطت قواه ، وفارقه نشاطه :

١٩٧

فأخذ ينأجى طبيبه قائلا : « ما ألد الراحة يا طبيبى العزيز ! : : :
 إن رفاهية الفراش دونها أى عرش فى الوجود : إيه ! : : . ما أعظم التغيير
 الذى طرأ على نفسى وعقلى وتفكيرى ، أيستطيع الفراش والراحة من
 كان مثال النشاط ، ومن كان يقضى الليالى بأكملها لا يغمض له فيها
 جفن ، بل يفكر ويفكر ، ويعمل ويعمل ! ... وطالما أملت أوامرى
 على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين فى وقت واحد ، ولكنى كنت إذ ذاك
 نابليون بوناپرت ، أما الآن فإنى لا شئ ! ... لقد غادرتى قواى وواهجى
 وأعصابى ، وأصبحت الحياة أياماً تقضى لا عمل فيها ولا أمل . . . بالله
 يا طبيبى العزيز ، لا تلح على فى أخذ الدواء ، فقد غلب الداء ولن
 يغلب ! » .

• • • • •

١٦ ديسمبر : اشتد ضعف الإمبراطور . فى الصباح ، عقب ليل
 قضاه فى ألم مستمر ، حاول مغادرة الفراش ، ولكن قواه خائفة ، فارتقى
 على مقعد قريب ، وأخذ يتمتم : « حتى رجلاى تخونانى ! : : . رياه ،
 ماذا بقى منى إذن ؟ : : . هيكلى عظمى بلا حركة ولا تفكير ! : :
 حقاً إن لكل شئ نهاية ، وبها هى نهايتى تقرب ، وخلاص آسف ولم يبق
 لى فى الحياة غاية ، ولم يعد لبقائى فى الدنيا فائدة ! ؟ » .

* * *

وازدادت الحالة الصحية سوءاً خلال شهرى يناير وفبراير سنة ١٨٢١ ،
 وأخذت الأيام تمر كالسنين ، بل كالأجيال طولا . فالألم والمرض المستمران

على حالهما ، والضباب والزوايح والأمطار لا تنقطع . . . وقد حل بنابليون
 بأس شديد ، وخاصة عندما قرأ في الصحف عن وفاة شقيقته « إيزا » . . .
 ٢٩ مارس سنة ١٨٢١ : أخذت النهاية تقرب ، والإمبراطور
 ينتظرها باطمئنان وثبات عجيبين . وفي ذلك اليوم ، خاطب طبيبه قائلا :
 « إننى أرفع راية العصيان في وجه كل من يحاول إرغامى على تعاطى أى
 دواء . فأنا شخص طالما واجه الموت بلا خوف ، وتعرض لأشد الأخطار
 هولا ، ولكن ليس أبغض إلى نفسى من أن تمس شفتى كأس الدواء ! . . .
 لعلك تقول عنى في نفسك إننى طفل مدلل . . . لىكن ! » .

ثم التفت إلى مدام برتران وقال : « خبرنى بربك ، كيف تطاوعاك
 نفسك على ابتلاع الحبوب والأدوية العديدة التى يصفها لك طبيبنا طيب
 القلب ؟ » . . . فأجاب : « إننى أتناولها لأن أوامر الطبيب مقدسة ،
 ويجب إطاعتها . . . وإنى أنصح جلالتك بأن تحذو حذوى » . فبرز
 رأسه فى ضعف ، وقال : « إننى إذن الوحيد بينكم ، الذى يثور فى
 وجه الطب والطبيب . سوف أطيعك يا مدام برتران ، وأتناول الدواء » .
 قال هذا ، ثم تناول قلدح الدواء ، وابتلع الجرعة دفعة واحدة * :

* أكثر « أنتوماركى » من وصف المقيثات والمسهلات حتى لقد
 صبر نابليون منها . وفى ذات يوم ، اقترح وضع حراقة على منطقة الكبد ،
 مما سبب للإمبراطور ألماً شديداً ، فصاح فى وجهه عند زيارته له ، فى صباح
 اليوم التالى : أنت جاهل . . . وأنا أجهل منك ، لتنازلى بقبول علاجك ! . .
 ألا ترى فى تعذيب « هدسون لو » ما يكفينى ؟ ! . وكان « أنتوماركى » -

.

٣١ مارس : كان حاكم الجزيرة السير « هلسون لو » قد كلف أحد الضباط بأن يقدم إليه تقريراً يومياً يتبنت فيه أنه رأى « الجنرال بونايرت - كما كان يسميه ، إمعاناً في الإذلال ، وتجاهلاً لعظمة ماضى هذا الأسير الكبير - فقام الضابط بواجبه منذ وطأت قدما نابليون أرض الجزيرة وقد لازم الإمبراطور فراشه منذ ١٧ مارس ، فلم تشأ عواطف الضابط الرقيقة أن يعضى فى إطاعة أمر رئيسه ، واقتحام غرفة المختصر العظيم ، ليقدم تقريره اليومي . . . بأنه رأى « الجنرال بونايرت » . فهاج السير هلسون وماج وسار تتبعه حاشيته إلى منزل بونايرت ، وأخذ يحوم هزجراً مهدداً الضابط بأقصى أنواع العقاب ، إذا لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه .

وذهب الضابط إلى الجنرال « مونتولون » ، وسأله أن يساعده فى محنته ، دون أن يكون فى ذلك إيذاء لمشاعر الإمبراطور . فساعده الجنرال ، بأن جعله ينتظر فى الخارج بجوار النافذة . وفى اللحظة التى قام فيها نابليون من سريره لقضاء حاجة ، مستنداً إلى ذراع طبيبه ، أزاح مونتولون الستار قايلاً ، متظاهراً بأنه ينظر إلى الخارج . وبذلك أتاح للضابط أن يسرق

= يدرك مقدار ثقة بونايرت بكفاءته ، وكثيراً ماطلب مغادرة الجزيرة ، وإعفاءه من عمله ، ثم كان يعود فيرضى بالبقاء ، حتى عين الحاكم الطبيب « أرزوت » ، وكان أكثر كفاءة من أى طبيب اختاره الحاكم ، فعاز ثقة نابليون ، لأنه قام بواجبه فى حدود المهنة والضمير والشرف . وتعاون مع « أنتوماركى » فى العناية بالمريض العظيم .

نظرة إلى الغرفة المظلمة ، وإلى الإمبراطور ، وأن يقدم تقريره اليومي لرئيسه المتعجرف .

ولكن هذا لم يكف لإرضاء الحاكم ، بل هدد بأنه إذا لم يسمح للضابط بالدخول يومياً إلى غرفة (الجنرال بونايرت) ، فإنه سيأتى بنفسه ومعه حاشيته، ويفتح الغرفة غير آبه بالعواقب، وعبثاً حاول الجنرال مونبولون أن يثنيه عن عزمه ، مكرراً على مسمعه الواجب الإنسانى نحو مريض يحتضر ، بغض النظر عن شخصيته . فلم يعرف الحاكم أى اهتمام ، واقتحم المنزل . ولكن الدكتور « أنتوماركى » كان قد سمع الضجة التى فى الخارج ، فخرج وهو نائر على هذا الإنسان الذى قد قلبه من صخر : ولما التفت عيناه بعينى الحاكم ، صاح الأخير بعجرفة « أين الجنرال بونايرت ؟ ! » .

فأجاب الطبيب : « الجنرال بونايرت غير موجود هنا » .

فقال الحاكم : « ومتى اختفى ، وأين ؟ » .

فأجاب الطبيب بهدوء : « إن آخر مرة سمعت فيها باسم الجنرال بونايرت كانت فى معركة أبو قير ، التى هزم فيها قواتكم ورمأها فى البحر ، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصراً حاسماً . : ومنذ ذلك الوقت ، لم أجد أسمع بالجنرال بونايرت ، إذ أصبح الإمبراطور بونايرت ملء القلوب والأسماع ، ترتعد له كل الفرائص ، وتتألب عليه كل الدول التى تخشى اسمه : فهلا تركت رجلاً ، هذا مجده وماضيه ، يموت فى هدوء ؟ » :

واحتدت المناقشة بين الطبيب والحاكم ، وكاد يحدث مالا تحمد

بدأت تلين لما طالت لحيته بدرجة أزعجته : وأفضى لطبيبه برغبته ،
فاقترح هذا أن يرسلوا في طاب حلاق ليقوم بالهجة . ونكر
الإمبراطور طويلا ، ثم قال : « إنني دائماً كنت أحاق ذقني ببدي ،
ولم أسمع حتى الآن ليد أخرى أن تمس وجهي . ولكنني الآن لا أقوى على
عمل شيء ، فلا أملك سوى الإذعان والخضوع .. ولكن ، لا ، لا ...
لن أدعهم يقولون إن الضعف والوهن بلغا بي حداً سمحت معه لمخلوق بأن
يمس وجهي ... لن ينال هذا الشرف إلا أنت ! »
فاحتج الطبيب بلطف ، قائلاً : إنه لم يؤت خبرة تؤهله لهذا الشرف ،
فسلم الإمبراطور بما اقترحه عليه :

..... : : :

١٦ - أبريل : أمضى الإمبراطور الصباح كله في كتابة وصيته ،
وقد ضمنها ما يأتي :

١ - أوصى بأن أدفن على ضفاف « السين » ، لأشعر في آخرتي
بأنني بين الشعب الفرنسي ، الذي أحبته بكل قلبي :

٢ - أغادر هذه الدنيا وقلبي مغمم بالحب والإعجاب لزوجتي
العزيزة الإمبراطورة « ماري لويز » ، وأوصيها خيراً بابنتي الوحيدة ، وأتوسل
إليها أن تحمي من جو الدسائس والمؤامرات ، التي يشاء القدر أن تحاك
حولها منذ طفولته البريئة .

٣ - أوصى ابني بأن يذكر دائماً أنه ولد فرنسياً ، فيجب أن يعيش
لفرنسا ، ويموت في سبيلها . وليذكر دائماً مبدئي الذي عملت به وهو :

« كل شيء لفرنسا وللشعب الفرنسي » .

ثم أوصى بإعانات ومعاشات لجميع أصدقائه القدماء ، الذين كانوا بعد على قيد الحياة ، وكذلك أرامل وأطفال ضباطه القدامى الذين بدلوا دماءهم في سبيله .

ثم كتب لابنه وصية طويلة ، حثه فيها ألا يجعل نصب عينيه الانتقال لأبيه ، بل عليه أن يتعظ بمصيره ، وألا يمضى في طريق الحرب والفترحات متشبهاً به . بل يعيش للسلام والسلام وحده ، فإن القرن الواحد لا يحتمل حربين ، وأرض فرنسا مملوءة بالخيرات ، فعليه أن يستغلها بمصاحبة شعبه النبيل . ثم كتب يقول :

« لا بد أن يتولد في كل مكان شعور بالعطف على ، نظراً للحالة البائسة التي صرت إليها ، وهذا العطف هو خير ميراث أتركه لأبني ، إذ سينعكس عليه ، وسيكون بذلك الأثر الذي تركته في دول العالم أجمع ، نتيجة المعاملة التي ألقاها وأقامي من ويلاتها في منفاه . وأنصح ابني - إذا أراد أن يعيش في سلام ووثام مع إنجلترا - بأن يراعى مصالحها التجارية قبل كل شيء ، والسبيل الوحيد الذي عليه أن يسلكه ، هو أن يتقاهم معها تجارة العالم ، ويدخل معها في صلح دائم .

« إن البوربون لن يبقوا في الحكم طويلاً بعد موتي ، ولا بد أن تسنح للفرصة لأبني للعودة إلى عرش أبيه ، ولكن إياه أن يعتمد على قوى أجنبية للوصول إلى هذا العرش .

« وأوصيه خيراً بعائلته : . إن أمي العجوز الطيبة القلب شديدة

٢٠٤

المحافظة على التقاليد ، وأخوئى جوزيف وأوجين يستطيعان أن يسديا إليه النصيح والإرشاد .

« وإذا قدر له البقاء بالمنفى ، فعليه أن يتزوج بإحدى بنات أعمامه أو عماته . أما إذا رجع إلى العرش ، فعليه أن يتزوج بأميرة روسية ، فإن الارتباط بروسيا مما يزيد من نفوذ فرنسا فى الخارج » :

ونختم وصيته بقوله : « أوصى ابنى بأن يكثُر من قراءة تاريخ الأمم والحروب والفتوحات ، فالتاريخ وعظاته ودروسه أكبر فلسفة يجب أن يقتدى بها ملك . على أن قراءة كل فلسفات العالم والتاريخ لن تعجدى ، ما لم يكن فى قرارة نفسه متمتعاً بنصيب كبير من حب الخير والرغبة عن الشرور والآثام . . . ولكنى أرجو من كل قلبى ، أن يهبته الله لمستقبله الذى لا يزال فى عالم الغيب » :

~ ~ ~ ~ ~

٢١ أبريل : طلب الإمبراطور استدعاء الأب فيجنالى ، وقال له : « أطلب منك أيها الأب أن تقوم بالمراسيم الدينية عقب موتى » وأن تصلى على روحى فى الكنيسة ، فى حضور جمهور المصلين : وأتوسل إليك أن تضع الصليب على قلبى ، وألا تكف عن صلواتك حتى أوارى التراب » .

~ ~ ~ ~ ~

٢٥ أبريل : نام الإمبراطور فى هدوء معظم الليل . وكان الكونت مونثولون جالساً بجوار سريره يراقبه . وفى الساعة الرابعة صباحاً ، استيقظ

٢٠٥

لجأة ، وقال وهو في شبه ذهول : « لقد رأيت الحبيبة جوزاين الآن ، ورفضت أن تضمّني إلى صدرها ، إذ اختفت في اللحظة التي كنت على وشك تقبيلها فيها . . . إنها لم تتغير كثيراً . . . ولا تزال عيناها مملوءتين بالإخلاص والمحبة . لقد قالت لي إننا سنتقابل في القريب العاجل . وإننا لن نفترق بعد ذلك ! » :

ثم غلبه النعاس ، فاستأنف نومه . وفي الصباح ، أُملي على الكونت نص الخطاب الذي يبلغ به الحاكم خبر موته :

« جناب الحاكم : لفظ الإمبراطور النفس الأخير في يوم الساعة ، بعد مرض طويل قاس . ولي عظيم الشرف بأن أبلغكم أن الإمبراطور أوصاني بأن أتصل بكم مباشرة ، لأتحدث في أمر نقل جثمانه إلى أرض الوطن ، وإعادة رفاقه كذلك إلى وطنهم الذي ابتعدوا عنه طويلاً . وإني ما زلت خادمكم المطيع .

توقيع : الكونت مونتولوف

٢٨ أبريل : باخ الضعف بالإمبراطور مبلغاً عظيماً ، وأخذ يتحدث عن موته بهدوء عجيب قائلاً : « أوصيكم بأن تشرّحوا جثتي بعد رتي ، ولكن عدوني بالألا يمسخها طبيب إنجليزي . . . فإذا كانت الحاجة ماسة لمساعدة من أحدهم ، فإن الدكتور « أرثوت » هو الوحيد الذي أسمع له بذلك ، وإذا ما فتحتم صدري ، فانتزعوا قلبي وضعوه في زجاجة بها كحول وأرسلوها إلى « بارما » ، حيث تقطن « ماري لويز » وأخبروها

بأننى أحببتها وبقيت على عهدهما طول حياتى .

« وأرجو منكم أن توجهوا عناية خاصة لمعدتى ، وتكتبوا عما تجدون فيها تهرباً وافياً ، وترسلوه لابنى العزيز . فإن هذا التواء المستعصى يثير فى نفسى الشكوك . إن معدتى هى أصل البلاء . لقد مات والدى بسرطان المعدة ، وإننى أحس بأننى مصاب بنفس المرض ، وقد انقلب الشك عندى يقيناً ، عندما صار التواء مستمراً . فلا تنسوا أن تخبروا ابنى بكل مشاهداتكم عن سبب موئى ، حتى تساعدوه على تجنب هذا الداء الوراثى ، وصفوا له الدواء اللازم لذلك : وإذا ما عدتم إلى روما ، فعليكم بزيارة والدتى العزيزة . فإذا سألتكم عنى ، فخبروها بكل شئ . . . عن معيشتى فى هذه الجزيرة النائية ، وعن مرضى ، وعن موئى . فعسى أن تجد فى هذه التفاصيل عزاء وسلى ! . . . »

وارتمى الإمبراطور على سريره وهو منهوك القوى ، ثم راح فى سبات عميق ، وهو يتمم بكلمات غير مفهومة .

.

٢ مايو : اشتدت حالة الإمبراطور وارتفعت حرارته ، وأخذ يهلى مستعرضاً تاريخ حياته . . . فتارة ينادى فرنسا ، وأخرى ينادى ابنته . وكان يبدو كأنه يتحدث مع رفاقه وكبار قواده الذين عرفهم فى أوج عظمتهم ومجده . وسمع مرة وهو يقول : « ستاينجل ، ديزى ، ماسينا . . . النصر قريب فهيا اهجما وشددوا الضغط على العدو ! » .

وعقب ذلك ، حاول القفز من فراشه ، فخانته قدماءه ، وسقط على الأرض فاقد الوعي : . . ويظهر أن تهيج الإمبراطور تفتح فيه قوة فوق العادة ، فهجم على « مونتاون » في هذيانه ، وألقاه على الأرض ، وشدد عليه الخناق حتى كاد يزهق أنفاسه ، لولا أن « أرشبولت » كان في الغرفة المجاورة ، فأسرع عند سماع الجلبة ، وساعد « مونتاون » على إرجاع المريض إلى فراشه . وبعد لحظة أشار إليهم بيده طالباً جرعة ماء ، فقدموا له إسفنجة مبللة ، لأنه لم يعد قادراً على الابتلاع . . . هذا الذي دوّخ الأمصار ١ :

وفي الساعة التاسعة صباحاً ، هبطت الحرارة ، وعاد إليه وعيه ، فنادى طبيبه وقال : « تذكر جيداً كل ما أوصيتك به ، فلا تهمل القيام بفحص معدتي بدقة بعد مرقى ، لأنني أريد أن يتفتح ابني بتجاربكم ، وأن نتعاون جميعاً على إنقاذه من الوقوع في براثن هذا الداء النعين . . : وأوصيك بأن تحاول الاتصال به ، فترشده إلى ما يجب عليه عمله لكي يقي نفسه هذا المرض : . . وهذا آخر مطلب أسألك القيام به ١ » .

وعند الظهر عاود المرض شدته ، ونظر الإمبراطور إلى طبيبه ، قائلاً وهو في رباطة جأشه : « إن حالتي سيئة جداً ، وما هي ذى النهاية تقرب ١ » ثم . فقد وعيه ثانية ، واستغرق في غيبوبة طويلة ، كان يفيق منها أحياناً ليوصى رفاقه ببعض أهل الجزيرة ، ممن كان يعطف عليهم بصفة خاصة . والواقع أن نابليون كان معبود سكان الجزيرة جميعاً من أكبرهم إلى أصغرهم مقاما وسناً . وكان سيولهم لا ينقطع ، وهم يترددون على المنزل ، منلهفين

غزير الأمطار ، عصفت رياحه بكل الأشجار التي تعهد بها الإمبراطور بعناليته ، فلم تبق على واحدة بل ألقتها على الأرض ، وكأنها تخر سحجداً رهبة الليل وحزن الموقف . وكان المريض العظيم فاقد الوعي ، لا يحس بما يجري حوله . . . يتقلب في فراشه ، ويتهد تنهداً عميقاً ، بين آن وآخر .

وفي أثناء ذلك ، سمح للأطفال القرية بأن يمروا أمام هذا الرجل ، الذي طالما حباهم بحطفه . . . ولم يكونوا قد حظوا برؤيته منذ شهر ، فهالهم ما رأوه من تغير شكله وملامحه . وبعد تردد قصير ، هجموا نحو فراش المريض ، وأخذوا يقبلون يديه ويبلون بها بدموعهم البريئة الغزيرة . وكان المنظر مؤثراً ، فلم يمالك جميع الواقفين من البكاء كالأطفال ، وأغشى على واحد منهم ، هو ابن « برتران » الذي سمي « نابليون » تيمناً بالإمبراطور . وفي أثناء هذه المناحة ، دخل الغرفة أحد الخدم المخلصين ، وكان قد لازم الفراش ثمانية وأربعين يوماً . . . وكان شاحب اللون ، مرتعش اليدين من تأثير الحمى ، وقد أخذ يهذى ويبكى ، وهو يتقدم في ضعف نحو سرير سيده حتى إذا ما وصل إليه ، جلس بجانبه ، وأخذ يتمم باستمرار : « أنا فداؤه ! . . . أنا فداؤه ! » .

وزدادت الحال سوءاً أثناء الليل . وكان الإمبراطور يهذى وينادى : « فرنسا ! . . . الجيش ! » . . . وسمع وهو يهتف بهما ثانية في الساعة السادسة صباحاً . واستمر في غيبوبته العميقة حتى الساعة السادسة مساءً : وكان طول هذه المدة نائماً على ظهره ، يتنفس بصعوبة ، وقد تدلت يده اليمنى خارج فراشه . أما قسبات وجهه وعينه ، فقد تجلى فيهما هدوء

واطمنثنان للمصير المحتوم .

وعندما آذنت الشمس بالمغيب ، وأخذت في الاختفاء وراء الأفق ،
صعدت معها روح نابليون إلى خالقها . وكانت آخر كلمات قالها :
« جزيرة إلما . . . نابليون . . . الجيش . . . جوزفين ! » .

* * *

كان نابليون قد أوصى بأن يدفن على ضفاف « السين » . فلماذا لم
يتسن ذلك ، في جزيرة « أجاكسيو » ، حيث دفن أجداده . . . فلماذا
رفضت الحكومة الإنجليزية هذا أيضاً ، فلتكن رقدته الأخيرة في « سانت
هيلانه » تحت شجرة معينة ، طالما تستظل بها بجوار النهر الصغير . . .
فلذهب أصدقاؤه — بعد الوفاة مباشرة — إلى حاكم الجزيرة ، وتضرعوا إليه
أن يتوسط لدى حكومته للسماح بنقل الرفات إلى أرض الوطن : ولكنه
صارحهم بأن لديه أوامر من حكومته بدفن « الجنرال بونابرت » في جزيرة
« سانت هيلانه » ، وإنه لا يمانع في أن يدفن في أية بقعة من الجزيرة
يفضونها . كذلك رفض بتاناً أن يسمح بحجز القلب والمعدة بعد إجراء
الصفة التشريعية — كما أوصى نابليون — بل صمم على أن تدفن جميع
أجزاء جسم « الجنرال » في أرض الجزيرة :
وبعد تشريح الجثة* أعدت للدفن ، فألبسها الخادم الخاص

* ظهر من تشريح الجثة أن نابليون كان مصاباً بالسل الرئوي ،
وبقرحة سرطان في المعدة . أما التهاب الكبد — الذي عولج لأجله — فكان
نتيجة مناخ الجزيرة الحار . وقد طغت هذه الفكرة على حقيقة مرضه ، =

للموت في الحلة التي اعتاد أن يلبسها في حياته — أي الصديريّة والبنتلون الأبيضان ، وربطة الرقبة السوداء ، والخدّاءان الطويلان ، والقبعة المشمورة — ونشر على ساقيه العباءة التي لبسها في موقعة « مارنجرن » ، ووضع الصليب الفضي على صدره ، بينما وقف الأب « فيجنالي » عند رأسه يتلو صلواته . وسرعان ما انتشر خبر وفاته في أنحاء الجزيرة ، فتدفقت الجماهير طوال يومى ٦ و ٧ مايو على المنزل ، مارين أمام جثثانه ، مودعين إياه الوداع الأخير في خشوع وحزن . . . حتى حاكم الجزيرة « السير هدسون لو » لم يتمالك أن يقول في حزن : « لقد كان ألد أعداء بريطانيا ، وعدوى أنا أيضاً ؛ : ولكنى أسامحه » :

وصحا الجو في صباح الثامن من شهر مايو ، وسطعت الشمس . واختفت السحب ، وهب نسيم منعش عليل . . : وازدحمت الطرقات بأهالى الجزيرة ، ليودعوا أسيرهم المحبوب الوداع الأخير . وفي الساعة الثانية عشرة والنصف حمل الجنود النعش إلى عربة جرتها أربعة جياد . وأحاط بالنعش اثنا عشر جندياً ، كانت مهمتهم حمل النعش في الأمانة التي يحول الوحل والمطر فيها دون متابعة سير العربة : ويتبع النعش مباشرة الأصدقاء الأعزاء وخدم المنزل ، وكانوا مطأطيء الرؤوس في حزن وخشوع وألم ، وتلاه حاكم

=فأكثر الأطباء من إعطائه المسهلات والمقيحات والمقرقات والحقن الشرجية والحمامات الملحية ، فضاغفوا من آلامه ، وجعلوا من جسمه حطاماً بالياً ، حتى إنه كان يصيح في أطبائه مستغيثاً : « دعوني أمت من الداء ، فهذا خير لي من أن أموت من الدواء ! » :

الجزيرة ، وقائد الحامية ، وكبار الضباط على ظهور جيادهم . . . وشى
فى المؤخرة جميع أهالى الجزيرة ، سيدات ورجالاً وأطفالاً ، واصطف على
جانبي الطريق أفراد الحامية — التى خصصتها الحكومة البريطانية لحماية
الجزيرة ، أثناء سجن الإمبراطور — وكان عددهم يباغ ألفين وخمسمائة جندى .
. . . وأخيراً وقف الموكب ، وحمل الجنود النعش على أكتافهم ،
وساروا به فى طريق ضيق ، إلى البقعة التى أوصى الفقيه بأن يُدفن فيها :
ووضع النعش على حافة المقبرة ، بينما أخذ الأب « فيجنالى » يتوا صاواته
. . . وعند الإنزال انعش إلى القبر ، أخذت السفن الحربية الراسية فى
الميناء تطلق مدافعها تكريماً للفقيه العظيم ، وكانت لم تنقطع عن ذلك طول
مدة سير الجنازة من المنزل إلى المقبرة .

ووضع لوح من الحجر بسيط فى مظهره على المقبرة ، نقش عليه :
« نابليون : ولد فى أجاكسيو فى ١٥ أغسطس
١٧٦٩ ، وتوفى فى سانت هيلانه فى ٥ مايو
١٨٢١ » .

* * *

وفى يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية — التى رافقته فى المنى إلى فرنسا .
وقبيل سفرهم ، ذهبوا إلى المقبرة فغطوها بالزهور والرياحين ، ولباوها بدعهم
الذى لم يستطيعوا حبسها . . .
ولكن واحداً منهم — وهو السرجنت « هوبار » — رفض بتائناً أن يترك
قبر سيده . فبقى بجانبه ، يزوره يومياً ، مدة تسعة عشر عاماً ، حتى استجاب

٢١٣

العالم لصوت فرنسا ، وسمح بنقل رفات الإمبراطور إلى ضفاف « السين » تحت قمة « الأنفاليد » ... وعندها راق هذا الخادم الخاص رفات سيده حزين القلب مكسور الفؤاد ولكن راضى الضمير .

خاتمة المطاف :

أوصى الإمبراطور بأن يدفن على ضفاف السين ، بين أبناء الشعب الفرنسي الذى أحبه من كل قلبه : وكان هذا الأمل يبدو مستحيلا عند كتابته ، ولكن سرعان ما مرت الأعوام ، وتغيرت الظروف . فاجاء شهر يوليو من عام ١٨٣٠ ، حتى قامت فرنسا قومة رجل واحد ، وطردت آل « بوربون » عن عرشها ، ووضعت التاج على مفرق « لويس فيليب » ، دوق « أورليان » .

وفى ٢٩ يوليو ١٨٣٢ ، توفى ابن نابليون الوحيد . . وكان عمره إذ ذاك واحداً وعشرين عاماً ، فزال بموته كل أثر مباشر للدرية بوناپرت . وأخذت فرنسا تتحرر تدريجياً من رقابة الحلفاء وسيطرتهم . فاتهمز الفرنسيون فرصة الاحتفال بذكرى وفاة بوناپرت ، فى اليوم الخامس من مايو عام ١٨٤٠ ، وقدموا التماساً للحكومة البريطانية مطالبين فيه برفات الإمبراطور . وكان اللورد « بالمستون » على رأس الحكومة البريطانية ، التى وافقت دون تردد ، فى خطاب ودى تمننت فيه أن يكون ذلك بداية عهد جديد بين الأمتين ، وأن تُدفن أحقاد الماضى فى القبر المعلن لتلقى رفات الإمبراطور :
وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو ، أعلن رئيس الوزارة الفرنسية —

في مجلس النواب الفرنسي — أن الملك قد أصدر أمره إلى الأمير «جوانفيل» بالسفر إلى جزيرة سانت هيلانة ، لاستلام رفات الإمبراطور ، وأبحر الأمير ومرافقوه على ظهر سفينتين حربيّتين ، وصحبه في الرحلة : الجنرال «جورجود» ، والجنرال «برتران» ، والكونت «لاون كاساس» ، وهم الذين كانوا في معية الإمبراطور في المنفى . وقد أخذوا معهم تابوتاً فاخراً من الآبنوس المتين كبير الحجم ليحوى التابوت الذي دُفن به الإمبراطور ، حتى لا تُزعج رفاته بنقلها من تابوت إلى آخر . وكتبت على التابوت كلمة واحدة ، بحروف من الذهب : « نابليون » ! .

ووصلت السفينتان إلى الجزيرة في يوم ٨ أكتوبر ، فقبولتا بترحيب كبير من مدفعية الساحل ، ومن السفن الإنجليزية الراسية في الميناء وكان يوم ١٥ أكتوبر يوافق الذكرى الخامسة والعشرين لنزول الإمبراطور إلى سجنه — في سانت هيلانة — فحدد ذلك اليوم بالذات لفتح قبره واستخراج رفاته ، وفي منتصف الليل تماماً ، اجتمع حول القبر جماعة من المهندسين الإنجليز ، وشرعوا في فتح القبر تحت إشراف حاكم الجزيرة ، وبحضور أعضاء البعثة الفرنسية : وبعد تسع ساعات من العمل الشاق المستمر ، أزيلت الأتربة والحجارة الصلبة من فوق اللحد . ولما رفعت البلاطة الصلبة من فوق التابوت ، أقيمت الصلاة .

ورفع التابوت في سكون وإجلال إلى خيمة قريبة أعدت من قبل . ولما فتحت الأبواب الثلاثة التي احتوت الرفات — وكان أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من القصدير — بدت الجثة وقد غطيت بطبقة

من الحرير الأطلسي : ولما رفع هذا الغطاء ، كانت دحشة الموجودين عظيمة لأن تقاطيع وجه الإمبراطور لم تتغير بالرغم من مرور السنوات الطوال ، حتى إن معرفته لم تتعذر على الذين رأوه في حياته . وقد دل هذا على أن الاحتياطات التي اتخذت لحماية الجثة من الهواء والرطوبة والحرارة ، أفلحت إلى حد كبير . أما الملابس فقد أصابها بعض البلى ، وبدا الإمبراطور وكأنه نائم نوماً هادئاً . ولم يستغرق التعرف على الجثة أكثر من دقيقتين ، أفلت بعدها التواييت الثلاثة ثانية ، ووضع الجميع في التابوت الأنثوي الفاخر الذي أحضرته البعثة معها .

وكانت السماء تمطر ورعد إبان هذه العملية . وقصفت مدافع الساحل تكريماً لذكري الإمبراطور ، ومشى جميع أهالي الجزيرة وراء النش أثناء نقله من القبر إلى الميناء . وكان النش وضوحاً على عربة تجرها أربعة خيول ، ويسير إلى كل من جانبيها ثمانية من ضباط حامية الجزيرة . وسار في المركب كل الموظفين الرسميين من مدنيين وعسكريين . وطلب حاكم الجزيرة - الذي خلف سير « هلسون لو » - رسمياً من جميع رجال الجزيرة أن يرافقوا الجثة في رحلتها إلى الميناء ، ومعهم كذلك جنود الحامية البريطانية المرافقة بالجزيرة . . . ورفعت الأعلام السوداء على جميع منازل « جيمس تاون » ونكست الأعلام على الدور الرسمية والسفن الحربية .

وعلى رصيف الميناء ، وقف الأمير جوانفيل وحوله الضباط انفرنسيون ، في ملابسهم السوداء . وعندما اقتربت العربة نكسوا رؤوسهم الحاضرة . ووقفت العربة على بعد خطوات منهم . وتقدم حاكم الجزيرة وسلمهم جثة

الإمبراطور باسم الحكومة البريطانية . ونقل التابوت في زورق صهبر إلى السفينة ، بينما كانت المدافع تقصف ، والعلم الفرنسي يرفرف فوقه . وهناك وضع في كنيسة صغيرة كانت قد أعدت من قبل لهذا الغرض . وأضيئت الشموع حوله ، ووقف لحراسته ستون جندياً ، ورفرف على النعش علم نفيس اشتركت في صنعه السيدات الإنجليزيات اللاتي كن يقمن بسانت هيلانه .

وأبحرت السفينة في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر ، أى بعد مئتي خمسة وعشرين عاماً وثلاثة أيام من تاريخ وصول بونابرت إلى الجزيرة ليقضى فيها بقية عمره .

* * *

وفي اليوم الثاني من شهر ديسمبر ، وصلت السفينة ميناء « شربورج » وعندها أرسلت المدافع من أفواها إحدي وعشرين طاقة . ثم نقل التابوت إلى ظهر الباخرة « نورماندى » ، حيث وضع على منصة عالية ، وأحيط بالشموع المضيئة من كل جانب ، ووضع التاج الإمبراطوري على وسادة فاخرة عند رأس التابوت . . . ووقف الأمير « جوانفيل » عند الطارف الآخر وكان وضع التابوت بحيث يسمح للاقفين على صفتي النهر برؤيته بجلاء ووضوح . وهكذا سارت السفينة عبر نهر « السين » بحملها الثمين ، الذي خفي له قلب فرنسا . وحيته الجماهير بحماس لا يوصف ، وقصفت المدافع من الجانبين ، ودقت الكنائس أجراسها الجنائزية . وكانت صفتنا « السين » — من « الهافر » إلى « باريس » — مكتظتين بالجموع التي لا حصر لها . ولم

ينقطع سيل الهتافات طول الطريق ، حتى وصل الموكب النهري إلى قرية « كوربيفوا » ، وهي تبعد مسافة أربعة أميال من باريس . وكان قد أقيم هناك تمثال كبير للإمبراطورة جوزفين ، يمثلها وهي تستقبل زوجها العائد إلى وطنه ، فاتجهت كل القلوب إليها ، ولم يفكر أحد في « ماري لويز » التي كانت لا تزال بعد على قيد الحياة ، تعيش في عزلة تامة في « بارما » . وفي صباح اليوم التالي ، سطعت الشمس في إشتراق مبهج ، فصاحت الجماهير المترصة « هذه شمس أوسترليتز » : . وابتدأ الموكب سيره ، تحف به كل مظاهر العظمة والأبهة . وكان شارع « السانزليزيه » وقوس النصر مزينين بأبدع زينة وسارت العربات بين الأعلام والجماهير الحاشدة ، يجرها ستة عشر حصاناً أسود ، ويحيط بها السمتة جندي الذين رافقوا الجثة أثناء رحلتها من « سانت هيلانه » .

وعندما وصل الموكب إلى « الأنفاليد » ، كان في انتظاره الملك « لويس فيليب » ، يحيط به كبار ضباطه . وهناك حمل النعش اثنان وثلاثون من حرس نابليون القلماء ، وساروا به يتقدمهم الأمير « جوانفيل » ، الذي تقدم إلى الملك قائلاً : مولاي ، إنني أقدم إليكم وفات الإمبراطور نابليون ! . . . فأجاب الملك : « وأنا أتسلمها منك باسم فرنسا » ! .

هل مات نابليون مسموماً ؟

هذا سؤال طالما دأب خواطر محبي هذا البطل الكبير وعندما استعرضت حياته في « سانت هيلانه » - في الكتاب الذي اقتبست منه تلك الصفحات - لم أجد إشارة واحدة تحيى في نفسى الشك في مصير بوناپرت ، حتى وقع في يدى عدد من مجلة « كتابى » للأستاذ « حلمى مراد » ، وبه تلخيص بقلمه لكتاب بعنوان « هل مات نابليون مسموماً ؟ » من تأليف الطبيب السويدي « ستين فورشوفورد » ، وتعليق عليه * .

والمعلوم أنه على إثر وفاة نابليون ، في ٥ مايو من عام ١٨٢١ ، راجت موجة من الشائعات في سائر بلاد العالم ، تجزم بأن الإمبراطور لم يمت ميتة طبيعية . ولكن تلك الشائعات سرعان ما خمدت ، على إثر إذاعة مضمون محضر تشريع جثته ، الذى قرر فيه موقعه - وهم خمسة من كبار الأطباء الإنجليز - أن الإمبراطور مات نتيجة لإصابته بسرطان المعدة .

وظل العالم مستقراً على هذا الرأى بصدد سبب وفاة نابليون ، حتى خرج الطبيب والمحقق السويدي « ستين فورشوفورد » على العالم بنظرية جديدة مؤدّاها أن نابليون إنما مات نتيجة تسممه بالزرنيخ تسمماً بطيئاً وبرهن على نظريته في كتاب مطول - يقع في ٢٦٠ صفحة كبيرة ،

* مقتبسة من مجلة « كتابى » ، العدد ١٠١ - للأستاذ « حلمى مراد » .

٢١٩

منظر آخر بقرية (راترلو) كانت هذه المنازل مبيّودة أيام الممركة



وهو الذى نلخص فى « كتابى » تلخيصاً مركزاً متقناً — بمناسبة مرور مائتى سنة على مولد نابليون ، فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . ولقد باغ من دقة الدكتور المؤلف أنه حلل خصلة من شعر نابليون ، حصل عليها من أحد ورثة « لويس مارشان » — خادم الإمبراطور الخاص فى منفاه — وأرسلها إلى قسم الطب الشرعى بجامعة « جلاسجو » ، فأثبت التحليل — الذى قام به الأستاذ الدكتور « هاميلتون سميث » — العثور على نسبة كبيرة من الزرنيخ ، فى عينة الشعر التى أرسلها المؤلف . . . وبالكتاب وثائق زنكوغرافية تثبت هذا الافتراض .

والكتاب يجيب فى صفحاته على كثير من الأسئلة الهامة ، التى تتعلق
بنهاية نابليون والتى من بينها :

- ١ — هل مات نابليون ميتة طبيعية أم مات مقتولا ؟ .
- ٢ — إذا كانت ميتة طبيعية ، فهل كانت نتيجة إصابته بالسرطان أو بقرحة المعدة أو بداء الكبد ؟ .
- ٣ — وإذا كان قد مات مقتولا ، فبأى سلاح قتل ؟ . ومن الذى قتله ، أو من المنفذ للجريمة ؟ . هل قتله حاكم الجزيرة بتحريض من الحكومة الإنجليزية ، أو قتله أحد أطبائه ، أو أن القاتل شخص ثالث ، والمعرض مصدر ثالث لم يخطر على بال أحد من قبل ؟ . . . وتنتابك الدهشة عندما يوجه أصعب الاتهام — فى النهاية — إلى ياور-الإمبراطور ، الجنرال « مونتولون » الذى وضع فيه نابليون كل ثقته : « وعندما يستخلص المؤلف أنه كان يعمل وفقاً لخطة مرسومة ، تنفيذاً لتعليمات محكمة كانت

تصدر إليه بانتظام ، فهو مرة يضع الزنبيخ في طعامه ، فيعدو الإمبراطور
فريسة لأزمات حادة متواصلة . ثم تتحسن حالته وتتعش نفسه عند
إيقاف الجرعات . . . وهكذا حتى حان موعد بداية النهاية المحتومة .
ففي يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٢٠ . دخل مرض الإمبراطور مرحلة
جديدة طويلة ، استمرت نحو خمسة أشهر . حتى أواخر شهر فبراير
عام ١٨٢١ . وبعد هذه المرحلة ، طرأ تحسن عابر على صحة نابليون ، حتى
إذا حل يوم ١٧ مارس . عاد إلى ملازمة الفراش ولم يقدر له أن يبارحه
بعد ذلك قط .

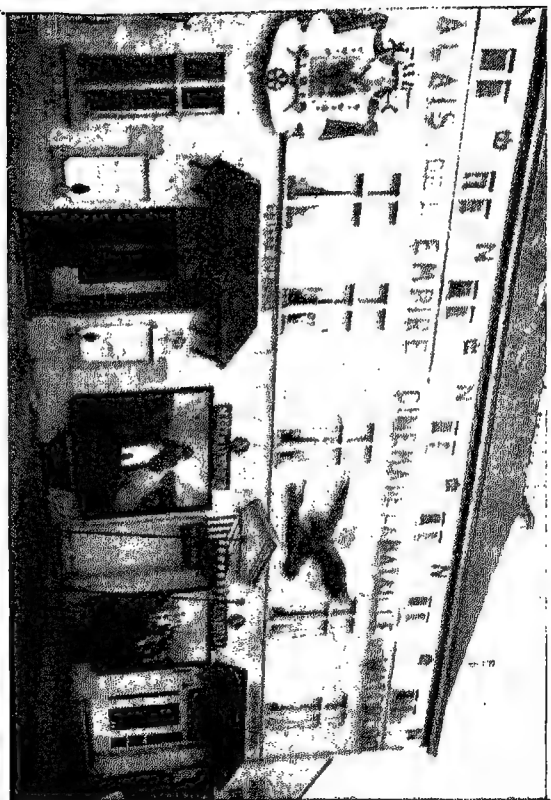
ويقول « مارشان » في وصف هذه الحقبة من حياة نابليون : إن سيده
صار يجد مشقة كبيرة في القيام بنزهاته اليومية ، سواء بالعربة أو سيراً على
الأقدام . . . وإنه كان يعود منها دائماً وقد استبد به التعب والإعياء . . .
وكان يشعر ببرودة شديدة في قدميه ، فلا يستطيع تدفئتهما ، إلا بدسهما
في اللفافات الساخنة ، التي كان يؤثرها على سائر وسائل التدفئة الأخرى . :
واستطرد « مارشان » يروي في مذكراته ، كيف أن نابليون حاول ذات
يوم ، أن يستنشق الهواء الطلق بالترييض في الحديقة ، أو بالقيام بنزهة
قصيرة بالعربة . لكنه لم يكده يصل إلى العربة حتى انتابه الدوار ، فإذا به
يهوى إلى الأرض فجأة . . . فهرع الخدم إليه وعاونوه على النهوض ثم أعادوه
إلى فراشه . ولما استرد أنفاسه ، نظر إلى « مارشان » — وكان يقف بجواره —
وقال له : « إنك تردني إلى الحياة . . . وأحسب أن هناك أزمة في

الطريق ، فلماذا أن تقذفني ؟ . أو تقضى على ! » :

ومنذ ذلك الحين ، بدأ مرض نابليون يتخذ صورة جديدة : فقبل ذلك ، لم تكن آلام المعدة واضطراباتهما هي أبرز ما يعاني ، فإذا بها تصير — فجأة — ظاهرة تلح على نابليون ، ولا تكاد تفارقه . . . ويبدو أن الحنأة كجائوا قد رأوا لاذ ذلك ، أن الوقت قد حان كي يدخل الإمبراطور المرحلة الأخيرة من حياته . : فقد راح يتقيأ بشكل عنيف متلاحق ، على نحو يدل على زيادة ضخمة في مقدار السم الذي لم يكن ينفك يتجرعه من أمد طويل ، على غير علم منه ! .

وبعد سفر الدكتور « ستوكار » ، كان لا بد من تعيين طبيب الحامية الإنجليزية — الدكتور « أرزوت » للعناية بالإمبراطور فاستشاط « نابليون » غضباً ، ورفض — كعادته — قبول أى طبيب موفد من قبل حاكم الجزيرة . ومضى الجنرال « مونتولون » — ياور الإمبراطور — يحاول إثناءه عن عزمه . لكن جهوده باءت بالفشل ، فطلب إلى كبير الخدم « مارشان » — في ليلة ٣١ مارس — أن يضم صوته إليه ، فإذا ما سأله الإمبراطور النصيح بشأن الطبيب الإنجليزي ، فعليه أن يؤيد هذا الإجراء بكل قواه ، وإلا لما توانى الحاكم عن اقتحام غرفة الإمبراطور ، حتى يستوثق من وجوده .

على أن ثمة أدلة عدة تؤكد أن « هلسون لو » كان على علم تام بأن نابليون طريح الفراش ، وأن حالته الصحية سيئة للغاية ، فلم يفكر مطلقاً في اقتحام غرفة المريض الكبير . ومن هنا يتضح أن « مونتولون » لم يكن صادقاً فيما ساقه من مزاعم أمام كبير الخدم . : فما السر في موقفه هذا ؟ :



سینا قصر « امپیر » تفریح فیلم عن مدرکة وائرل

وأى شيء دفعه إلى سلوك ذلك السبيل الملتوى ؟ .

إن لرواية الجنرال « منتولون » أهمية بالغة في هذا الصدد ، إذ أنها تساعد على إلقاء ضوء كبير على حقيقة المأساة التي اكتنفت ساعات « نابليون » الأخيرة . . .

من ذلك أن « منتولون » يقول في مذكراته إن تشخيص الدكتور « أرنوت » لمرض الإمبراطور ، تضمن أن المرض كان بالغ الخطورة ، وأن المريض كان يشكو من احتقان حاد حول بطنه . . . في حين أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك ، إذ يؤخذ من مذكرات سائر الشهود الآخرين ، أن « أرنوت » لم يعتقد مطلقاً بأن « نابليون » كان في حالة خطيرة . . .

ويزعم الجنرال كذلك أن نابليون ذاتحه يوم ١٠ أبريل عام ١٨٢١ — لأول مرة — في أمر وصيته وضرورة الانتهاء من كتابتها على وجه السرعة . . . فلما حاول الياور إقناع الإمبراطور بأنه ليس تمة ما يدعو إلى هذا الأمر ، وإنه سابق لأوانه ، أجابه نابليون في إصرار : « بل سأكتب وصيتي غداً ، إذا استمرت حالتى في التحسن » . . . والذي حدث في حقيقة الأمر — طبقاً لما رواه شهود « سانت هيلانه » الآخرون — أن « منتولون » نفسه ، هو الذى فاتح نابليون — في يوم ٣ أبريل — في أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وأن الوقت قد حان لكى « يرتب أموره » .

حتى إذا حل يوم ١٤ أبريل ، استدعى الإمبراطور ياوره ، وقال له : « سأملئ عليك اليوم رغبائى الأخيرة ، فلنعد إلى عند الظهر ا . . . وعندما أقبل فى الموعد المحدد ، طلب إليه الإمبراطور أن يغلق باب الغرفة ،

٢٢٥

ثم أملى عليه وصيته في ساعتين كاملتين دون توقف . . . وأخيراً طلبت إليه أن يقرأ عليه ما كتب ، فلما فرغ الجنرال من القراءة ، سأله نابليون : « هل تريد أن أوصي لك بنصيب أكبر ؟ » . . . فأجاب بالنفي .

وبما سجله « منتولون » في مذكراته ، يتبين — في جلاء — أنه قد حرص على تبرير ما لحدا بالإمبراطور إلى تمييزه في وصيته على « برتران » ، كبير الياوران ، فإذا هو يؤكد أن هذا التمييز إنما يرجع إلى أن الإمبراطور لم يكن يرتاح إلى « الآراء الأرستقراطية » التي كان يعتنقها « برتران » .

وقد حاول « منتولون » أن يثبت كذلك أنه لم يكن الذي سعى — كما أشيع — لحمل الإمبراطور على أن يحابه في وصيته ، بل إن نابليون هو الذي اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه . . .

وأيّاً كانت الأسباب ، فالماؤكد أن منتولون قد حرص على تدبير الأمر . بحيث لا يكون هناك أحد سواه بجوار نابليون في ساعاته الأخيرة . . . وبذلك يصبح هو في نظر الجميع الشاهد الوحيد ، الذي يعتد بشهادته بصدد الحدث الكبير ! .

لذلك يحق للمرء أن يتساءل : ترى ما الذي جعل « منتولون » يحرص — كن هذا الحرص — على إبعاد جميع أفراد حاشية الإمبراطور عن حجرة المريض المحتضر ، في أيامه الأخيرة ؟ ! .

* * *

وأخيراً : قدر لآلام الإمبراطور أن تصل إلى نهايتها : ففي يوم

٤ مايو عام ١٨٢١ ، استيقظ نابليون من نومه وقد أحس بظمة أشد يلهب حلقه . . . ولم يكذ يتناول قليلا من الماء والنبيد ، حتى لفظ ما شرب ، وانتابته شهقة حادة متواصلة : ثم لبث ساكناً بلا حراك ، لكنه سرعان ما أخذ يهذى ، ويتفرقه بكلام متقطع . وألفاظ غير مفهومة . . . وفي فجر اليوم التالي ، كان مستلقياً في فراشه وقد راح في غيرة تامة ، لا يأتي فيها بحركة تدل على أنه على قيد الحياة . . . باستثناء بعض تهديدات ، كانت تصدر عنه بين الفينة والأخرى ، في صفع ووهن . . .

وفي الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من مساء ذلك اليوم - ٥ مايو عام ١٨٢١ - وفي اللحظة التي كان فيها المدفع يعلن غروب الشمس واحتلال الحراس لمراكزهم اليومية لمنع الإمبراطور من الفرار ، كان « نابليون بونابرت » يلفظ آخر أنفاسه .

وبتشريح الجثة ، برزت في جلاء حقيقة هامة ، على نحو لا يدع مجالاً لأي شك ، هي أن الإمبراطور كان قد أصيب فعلاً بتزيف خطير في المعدة . . . فلقد أثبت التشريح أن المعدة كانت تحوى كمية كبيرة من مادة أشبه بछالة حبات البن . ولم يكن هذا التزيف المعدى ناجماً عن أية إصابة سرطانية ، ولا عن أية قرحة عادية في المعدة ، وإنما جاء نتيجة تآكل كامل في الجدار المعدى . . . وهي ظاهرة لا يحدثها إلا تسمم زئبقى خطيراً . . . وإذن ، فالسبب المباشر الذى أفضى إلى وفاة نابليون ، كان هو التسمم بمادة الزئبق . . . ومع أن الجثة كانت تحوى آثاراً واضحة

لتسمم مزمن بالزرنيخ ، فإن هذه الآثار لم تكن من الاستفحال بحيث تؤدي إلى موت سريع . . . بل كان واضحاً أن ثمة حالة تسمم حادة جديدة بالزئبق ، إلى جانب ذلك التسمم المزمن ! :

واقصد منع الحاكم الإنجليزي تحنيط الجثة ، بالرغم من أن الإمبراطور كان قد أوصى بتحنيط قلبه وإرساله إلى زوجته « ماري لويز » . . . وعندما أراد « أنتوماركي » الاحتفاظ بـ عدة نابليون ، كى يحملها معه إلى أوروبا — لإجراء أبحاث عليها ، بالاشتراك مع زملائه — رُفِضَ طلبه ، ولم يصدر الرفض هذه المرة من الحاكم ، بل صدر من « برتران » و « متولون » رفيقي نابليون وتابعيه ! : : : وقد أصدر الحاكم أوامره الأطباء الإنجليز بعدم السماح بانتزاع أى شيء من الجثمان : : : فوضعت المعدة والقلب في إناءين فضيين مملوئين بالكحول ، أحكم لهماهما ، ووضعها في التابوت :

وقد أودع جثمان نابليون تابوتاً من الحديد الأبيض أغلق بابَه بالحام : : ثم أدخل في تابوت ثانٍ من خشب « الموجي » ، ووضع هذا بدوره في تابوت ثالث من الرصاص . : : وكان الغلاف الخارجى تابوتاً رابعاً من خشب « الموجي » ، نُتِبَ غطاؤه بمسامير فضية . ولم يقرر الإنجليز تخفيف الحراسة على الجثة ، إلا بعد أن تم لحام التابوت الرصاصى :

وبعد تسعة عشر عاماً من وفاة نابليون ، استخرج التابوت من المقبرة ، وأعيد فحص الجثة للوقوف على ما عساه يكون قد طرأ عليهما من تغييرات : : وكم كانت دهشة الطبيب — الذى أشرف على العملية — حين تبين أن الجثة

كانت سليمة تماماً ، ولم تتعرض لأى تحليل أو عفن . . . على أن الطبيب ما لبث أن عزا هذه الظاهرة إلى نوع تربة المقبرة ، وإحكام التوابيت التى استطاعت أن تصون الجثمان وتحافظ عليه ردىاً طويلاً من الزمن . . .

والواقع أن هناك تفسيراً علمياً هاماً للصورة السايمة التى وجدت عليها رفات نابليون ، بالرغم من عدم تحنيطها . . . : ذلك أنه من المعروف طبيئاً ، أن جثث الأشخاص الذين يلقون حتفهم نتيجة تسممهم بـ « زرنينخ » ، تغل على حالتها ، وتحفظ بكيانها طويلاً . . . بشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب ! .

وهكذا يبدو جلياً اليوم ، بصورة قاطعة . أن « نابليون وبناوبرت » قد مات مسموماً ، وأن تهمة السعى لاغتياله — التى كان هو قد جهر بها أمام التاريخ — تستند إلى أسس من الحقيقة والواقع . . . بحيث يمكن الجزم بأنه إنما قتل قتلاً بطيئاً ، محكماً ، مع سبق الإصرار . . . ولكن المهم فى الأمر ، هو تبين ما إذا كان الإنجليز هم الذين قتلوه . . . أو سواهم .

* * *

ولو احتكنا إلى المنطق ، فإنه لا يبدو أن الحكومة الإنجليزية ترى مصلحة ما فى القضاء على نابليون . . . ولعل الحاكم « هدسون لو » قد أصاب كبده الحقيقة ، حين ذكر أن بقاء أسير « سانت هيلانه » فى قبضته ، إنما كان يزود الحكومة الإنجليزية بمفتاح يمحلهما تتحكماً فى توجيه التيارات السياسية الكبرى . . . فقد كان نابليون بمثابة « رهينة

ثمينة . بات في مقدور الإنجليز استئلاها ضد المول الأخرى الأعضاء
في « الحلف المقدس » . وخاصة ضد فرنسا . . . وطالما كان الإمبراطور
في قبضة الإنجليز . فقد كان من الميسور عليهم التفاوض مع « باريس »
ولإملاء شروطهم عليها ، لا سيما فيما يتعلق بمسألة الرسوم الجمركية . : :
وثمة سبب آخر يهدم من الأساس فكرة تدمير (الحكومة الإنجليزية)
اعتقال نابليون : إذ ما إن أعلن نبأ نفي الإمبراطور المنزول إلى جزيرة « سانت
هيلانة » ، حتى تحول الرأي العام الإنجليزي عن موقفه السابق . المعادي
للزعيم الفرنسي ، إلى موقف ينطوي على العطف عليه . والتأييد له . بل
واعتباره بطلا مغواراً جديراً بالتمجيد والخلود . ولا علمت « لندن » ب وفاة
الإمبراطور ، انتشرت الملصقات في كل مكان : تدعو جميع المعجبين
بالقائد الفرنسي الراحل إلى ارتداء ملابس الحداد . . . بل لقد حدثت ذات
مرة ، أثناء سنوات الأسر ، أن عرض أحد الضباط الإنجليز أن يعهد
لنابليون سبيل الفرار ! : . فلما أبدى أحد أتباع الإمبراطور دهشته لهذا
التصرف — الذي عرضه الضابط بغير مقابل — أجابه هذا بقوله : « كيف
تقول إن هذا بغير مقابل يا سيدي ؟ . . . أتراك لم تحسب حساباً لشرف
الذي سيعود على » ، من جراء اقتران اسمي بإنقاذ بوارت ؟ » .

ومن ثم لم تكن الحكومة الإنجليزية لتجسر ، حتى لو رغبت على
أن تمس الإمبراطور بسوء ... بدافع الخشية من (رد الفعل) لدى الرأي
العام الإنجليزي ، على الأقل ... إذ كان نابليون يتمتع لديه بتعبية حقيقية
لا يسهل محوها ! .

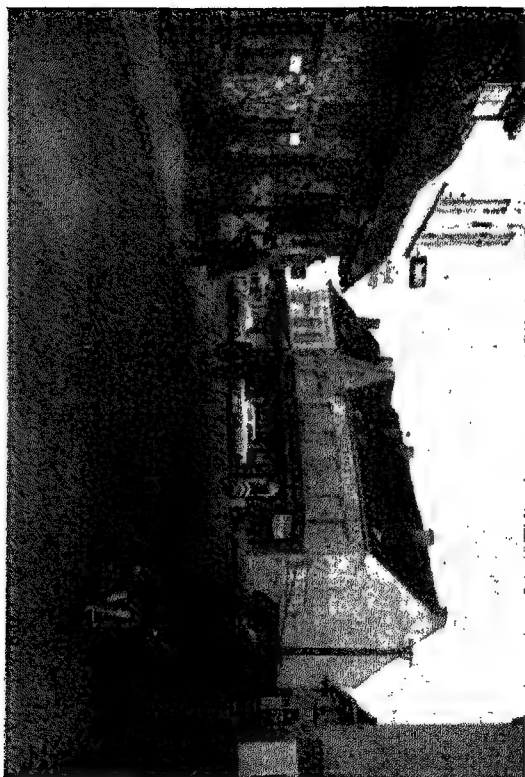
على أن هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية كان يختلف — على خط مستقيم — عن موقف حكومة آل «بوربون» المالكة في فرنسا، فطالما كان نابليون على قيد الحياة ، كانت الملكية الفرنسية في خطر دائم ، وعرضة للانتهيار في أية لحظة . . . حتى لقد كانت الحكومة الفرنسية تشعر بانزعاج بالغ ، خشية أن يهاون الإنجليز في حراستهم للإمبراطور الأسير! . . . ولعل هذا ما دفع وزير خارجية فرنسا — في ذلك الحين — إلى أن يقول للسفير الفرنسي في لندن : « لو قدر لنا نابليون أن يهرب من جزيرة « سانت هيلانة » لكان هذا سبباً في اضطرابات لا حد لها في وطننا التمس . . . ولأنه لمن المحزن حقاً أن يبقى هذا الرجل بين أيدي شعب قد ينجم عن تغيير حكاه تدير مؤامرة تفضي إلى إعادة نابليون إلى مسرح الأحداث العالمية مرة أخرى » ! .

وكان لفرنسا مبعوث خاص في « سانت هيلانة » يدعى « الماركيز دي مونشينو » ، عرف بعدائه الشديد لنابليون . . . على أنه كان على درجة من الحماسة ، وضيق الأفق ، وضآلة التفكير ، يستبعد معها أن يكون قد قام بأى دور رئيسى في مأساة « سانت هيلانة » . . . ولعل شخصاً آخر في فرنسا كان يقف وراءه ليمسك بجميع الخيوط ، هو « تاليران » وزير خارجية نابليون السابق ، الذى انقلب عليه في عام ١٨٠٩ ، وأعد قرار مؤتمر « فيينا » القاضى بعزل نابليون عن الإنسانية : : بل (قتله) إذا دعا الأمر .

وهناك واقعتان تبرزان ساحة « دي مونشينو » ، وتبعدان عنه هجمة

٢٣١

ضاحية في مدينة (ليون)



الاشترك في وضع السم للإمبراطور : أولاها أنه لم يكن في وسع المبعوث الفرنسي الاقتراب من « نابليون » أو مقابله ، حتى حين أن دس السم كان يتطلب أن يتولاه رجل يعيش على مقربة من الإمبراطور بصفة دائمة . . . والواقعة الأخرى هي أن عملية التسمم كانت بدأت بالفعل قبل وصول « دى مونتينو » إلى الجزيرة ، إذ أنه ولد إلى « سانت هيلانه » بعد أربعة أشهر من ظهور أولى أعراض التسمم على نابليون . . .

وليس من شك في أن قاتل نابليون كان يقيم في « سانت هيلانه » ، منذ أواخر شهر نوفمبر عام ١٨١٥ . ولا بد أنه كان على اتصال بالإمبراطور أثناء مراحل المرض المختلفة ، وكان في مقدوره أن يكون موجوداً في غرفة نابليون ، في الوقت الذي كان فيه الجميع بعيدين عنها .

ولم يكن في « سانت هيلانه » سوى أربعة أشخاص تنطبق عليهم هذه الظروف ، وهم : الجنرال (منتولون) ياور الإمبراطور ، و « مارشان » كبير الخدم ، و « نوفيراز » و « سان دينيس » الخادمان . . . ومن هؤلاء الأربعة ، يجب استبعاد الثلاثة الآخرين ، الذين كان حبهم وولاؤهم للإمبراطور فوق الشبهات ، كما دلت القرائن والملاحظات على استحالة ارتكابهم للجريمة . . . فلم يبق سوى الجنرال الكونت « منتاون » ياور نابليون ، الذي تدينه الملاحظات ، وتنحصر فيه الشبهات . ويبدو أنه اضطر إلى التوقف عن دس السم للإمبراطور ، حين تولت حكم فرنسا وزارة « ديكاز » ، الذي كان رجلاً معتدلاً ، سبق له العمل في خدمة والده نابليون ، وكان يكنّ لها تقديراً وإعجاباً بالغين :

٢٣٣

وهكذا تحسنت صحة بونابرت حتى بدا كأنه شفى تماماً . خلال الفترة من أكتوبر ١٨١٩ إلى أكتوبر ١٨٢٠ ، وهى المدة التى بقيت فيها وزارة « ديكاز » فى الحكم ! . . . وكلها ملايسات توحى بمساوية آل « بوربون » وحكومة فرنسا عن استخدام عميلها « منتولون » للقضاء على حياة غريما نابليون . ٤

* * *

ومن الملايسات الأخرى ، التى تزيد التهمة التصانفاً بمتعاون ، أن صحة نابليون تحسنت أيضاً فى مناسبة أخرى . . . إذ لم يكبد يعان اعتزاه تعديل وصيته الأولى ، التى كان قد ترك فيها أنصبة متساوية لآتياعه ، حتى طراً تحسن واضح على صحته ، استمر طوال الفترة التى قضها نابليون و « منتولون » ، فى إعداد الوصية الجديدة ، التى خرج منها متعاون بأكبر نصيب من ميراث الإمبراطور .

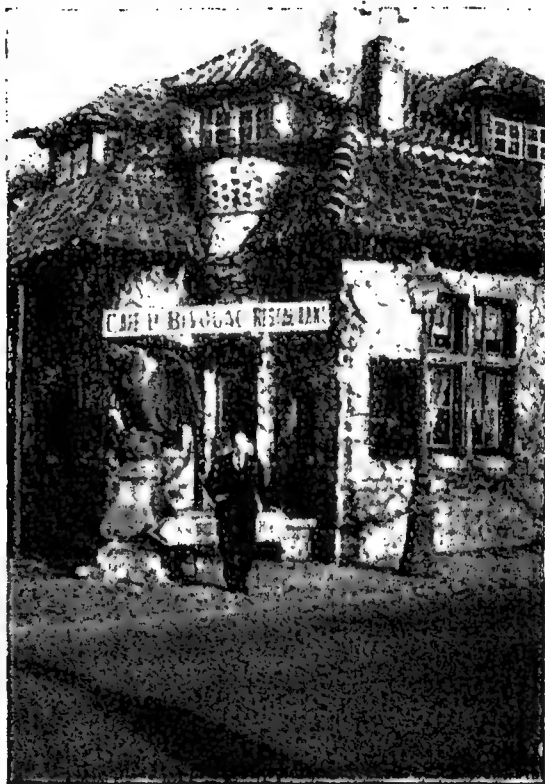
وعندما فرغ نابليون من إملاء وصيته وتوقيعها ، التفت إلى متعاون قائلاً : « والآن يا بنى ، أليس من المؤسف حقاً ألا يموت المارم ، بعد أن دبر شؤونه على هذه الصورة الرائعة ؟ ! » . . . فلم يكبد يمل مساء ذلك اليوم ، حتى أصيب الإمبراطور بنوبة حادة خطيرة ، صارت تتفاقم يوماً بعد يوم ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أسابيع . . .

وبما يزيد فى اللصاق التهمة بالجنرال « متولون » أنه أوحى فى مذكراته بأن نابليون مات بالسرطان . فقد زعم أن الإمبراطور بدأ يفقد بدانه بشكل ظاهر ، منذ أوائل فبراير ١٨٢١ ، وأن معدته بدأت تنزف دمًا

منذ ١٧ مارس من نفس العام : : : في حين أن هذه الأعراض لم تظهر عليه حقيقة ، إلا في أيامه الأخيرة . : : كذلك زعم أن نابايرن كان يقوم بترهات طويلة على صهوة جواده ، في فترة كانت ساقا الإمبراطور خلالها — بشهادة الجميع — من الضعف والزالج بحيث لا تكادان تقويان على حمله بسبب البرودة القاسية التي كانت تسرى فيهما ، والتي هي من أعراض التسمم البطيء . . . وقد أغفل الياور الإشارة إلى هذه البرودة في مذكراته بالرغم من أنه تحدث عنها إلى حاكم الجزيرة « هندسون لو » ، معللا إياها بمعرض في القباب . : : وعندما نشر متولون مذكراته في عام ١٨٤٦ ، كان جميع شهود « سانت هيلانه » قد لاقوا ربهم باستثناء واحد فقط ، هو « مارشان » ، كبير الخدم . فكتب الأخير — في مذكراته — يقول إن ذاكرة متولون قد « خائنته » في عدد كبير من النقاط الهامة ، وإنه وحده بإصدار طبعة جديدة منقحة من مذكراته . . . بالتعاون معه ! . . لكن المنية عاجلت متولون قبل أن يحقق وعده : : .

على أن هذه القرائن كلها ليست أكثر من شبهات لا يمكننا من الجزم بأن متولون بالتحديد هو القاتل : : كما يتعذر تحديد « المحرض » الذي سخر التماثل للقضاء على حياة نابليون . . . وإن أمكن القول بأن ساسة أوروبا ، من أعضاء مؤتمر « فيينا » ، هم جميعاً « محرضون أصليون » ، لأنهم أصدروا قراراً بجرمان عدوهم اللدود من « حماية القانون » : : . أما الشخص الذي استخدم في تنفيذ الجريمة ، فلعل الأيام تساعد

٢٣٥



منزل بالقرية كان موجوداً منذ أيام المعركة . ويرى المؤلف واقفاً أمامه

على كشف الزناب عنه بصورة مؤكدة . . . بفضل جهود المحققين وسعيهم الدائب للتأكد منه .

• • •

أما حاكم « سانت هيلانه » الإنجليزي « هلسون لو » ، الذي اتهمه نابليون في كل مناسبة بالسعي إلى قتله ، فتكاد بجريمته تنحصر في « الخشونة » و « سوء المعاملة » ، والطريقة الخرقاء التي نفذ بها تعليمات حكومته بشأن حراسة الأسير الخطير ! . . . وقد عاقبه الشعب الإنجليزي نفسه على سوء تصرفه ، فحفلت مذكراته بالآئين المتواصل والشكوى المرة من المعاملة السيئة التي لقيها في إنجلترا بعد عودته من « سانت هيلانه » . . . فلقد أراد المثل بين يدي الملك « جورج الرابع » ، لكن أمين القصر استقبله في خشونة بالغة ، وأبلغه بأن الملك يرفض مقابلاته . . . وحدث بعد ذلك ، أن طلب الانضمام إلى نادى الضباط ، إلا أن طابعه رُفص بإجماع الأصوات . وكان في كل مكان يمضى إليه ، يقابل بعاصفة من السباب والشتائم ، حتى لقد أطلق عليه الإنجليزي وصف « القاتل » ، مما حدا به — في النهاية — إلى مغادرة إنجلترا ، والرحيل إلى « سيلان » ! .

ولكنه لم يجد في « سيلان » الاستقبال الذي كان يحلم به ، فسافر إلى « بومباي » ثم غادرها إلى جزيرة « موريس » ، فوصل إلى هناك في مايو ١٨٢٨ . . . وذات يوم ، خطر له أن يذهب إلى أحد المسارح ، فتلقي تحذيراً بأنه — إذا نفذ ما اعتزم — فسيغادر جميع النظارة القاعة ،

٢٣٧

عائدين من حيث أتوا ولما أبحر أخيراً ، راجعاً إلى بلاده ، ودعته
 جموع حاشدة ، راحت تصيح مزججة . وهى تشير إليه : « انظروا إلى
 جلاد سانت هيلانه ! . . . اشتقوا المجرم ! . . . إلى قاع البحر أيها
 الوغد ! » . . . حتى لقد عمد ياوره الخاص ، إلى تحطيم سيفه على رؤوس
 الأشهاد ، لاعتاً الظروف التى وضعت تحت إمرة شخصية أصبحت موضع
 ازدراء الناس جميعاً ! .

وحين وصل « هدرسون لو » إلى إنجلترا ، حاول الحصول على منصب
 حكومى ، ولكن دون جدوى . . . فلما أعياه السعى ، أسقط فى يده ، فقرر
 فى النهاية الانزواء فى إحدى المدن الصغيرة ، حيث عاش بقية أيامه متخفياً
 تحت اسم مستعار . . .

محتويات الكتاب

الموضوع	صفحة
في آفاق الروح	٥
في آفاق الطب والمؤتمرات	٤١
كلمة سواء إلى مرضى القلوب	٤٢
طبيب أطفال .. في السودان	٥٤
مشاهدات في مؤتمر الطفولة بأنقرة	٦٥
أنيميا البحر المتوسط « في مؤتمر طهران	٨١
أنيميا القول .. في المكسيك	٨٨
مقتطفات من مؤتمر الطفولة بباكستان	٩٤
لقطات علمية في مؤتمر الطفولة بالمكسيك	٩٩
قصة طعم شلل الأطفال	١٠٤
في آفاق الحياة والموت	١٢٣
محمد رسول الله . : في أيامه الأخيرة	١٢٤
نهاية ابن رسول الله	١٣٣
نهاية نابليون	١٤٠

٢٤٠

صفحة	الموضوع
١٥٣	حملة روسيا
١٦٨	في الأسر
١٨٤	على فراش الموت
٢١٨	هل مات مسموماً ؟

م إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٥/٣٩٥٧

مطابع دار المعارف بمصر - ١٩٧٥

١ / ٧٥ / ١٦٠

